الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة– الجزائر

قسم الفلسفة

الأسس الابستمولوجية للفوضوية في المنهج عند بول فييرابند

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم تخصص:

فلسفة غربية

إعداد الطالب:

عامر براهيمي

إشراف:

أ. د. صباح قيلامين

السنة الجامعية: 2025/2024

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة– الجزائر

قسم الفلسفة

الأسس الابستمولوجية للفوضوية في المنهج عند بول فييرابند

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم تخصص:
فلسفة غربية

إعداد الطالب:
عامر براهيمي

إشراف:
أ. د. صباح قيلامين

السنة الجامعية: 2025/2024

الإهداء

إلى الوالدين حفظهما الله

إلى العائلة الكريمة (زوجتي وابنتي)

إلى كل الأحباب والأصدقاء

إلى كل من علمني حرفا

أهدي هذا العمل المتواضع

شكر وتقدير

أتقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير إلى الأستاذة الدكتورة صباح قيلامين على إرشاداتها السديدة ونصائحها القيّمة وعلى صبرها وتفانيها ليخرج هذا العمل المتواضع.

مع شكر خاص للأستاذين بن شريك جلول وحميدات الشيخ

ولا يفوتني أن أشكر اعضاء اللجنة الذين تفضلوا بقراءة هذا العمل لتصويبه وتقويمه.

ملخص الأطروحة

ملخص بالعربية:

تبدو مسألة الفوضوية عند فييرابند ذات أهمية بالغة إذ اسهمت في التقليل من الثقة المفرطة بالعلم، والتي كانت سائدة في العقدين المنصرمين، وإعادة النظر في التسليم المطلق بصدق النظريات العلمية والمنهج العلمي، فثورة فييرابند لم تكن ضد العلم والمنهج بقدر ما هي فتح الباب واسعا أمام الإبداع والتحرر من القيود المنهجية وإزالة تلك الهالة على قدسية المنهج العلمي، لأن الأخير صناعة إنسانية وإبداع فكري بامتياز ومادام كذلك فلابد أن يكون خاضعا لقرارات سياسية وايديولوجيات تديرها قوى غربية، ففكرته الفوضوية ليست فكرة عبثية وإنما هي طريق لا يلتزم فيها التقيد بقواعد منهجية صارمة، بقدر ماهي طريق للإبداع والتحرر، فالعلم ليس لوحده كفيلا للوصول وتحقيق نتائج يقينية بل يمكن الوصول إلى نتائج أفضل من طرق أخرى كالأسطورة والخرافة والفن ويبقى على حد قوله "كل شيء حسن".

Abstract

The issue of anarchism according to Feyerabend seems to be of great importance, as it contributed to eliminating the excessive confidence in science that had prevailed in the past two decades and reconsidering the absolute acceptance of the truth of scientific theories and the scientific method. Feyerabend's revolution was not against science and method as much as it opened the door wide to creativity. And freedom from methodological restrictions and removing that aura over the sanctity of the scientific method, because the latter is a human industry and intellectual creativity par excellence, and as long as it is so, it must be subject to political decisions and ideologies managed by Western powers, so his chaotic idea is not an absurd idea, but rather a path that does not adhere to strict methodological rules, as much as It is not a path to creativity and liberation. Science alone is not sufficient to reach and achieve certain results. Rather, better results can be achieved through other methods such as myth, legend, and art, and as he says, "everything is good."

مقدمة

مقدمة:

إن الاهتمام الحاصل بالعلم ومناهجه وطرائقه في الفلسفة الحديثة والمعاصرة أسهم في إعادة النظر فيه من جديد مع منظريه وحاملي لوائه، وإذا كانت المعارف بصفة عامة ولاسيما الطبيعية منها ارتكزت في العصر الحديث على إمكانية اختبار صدق النظريات باعتبار هذا الاختبار المنهج الأقوم لقبول نظرية عملية ما، فإن مشكلة الاستقراء أدت الى إعادة النظر في صدق النظريات العلمية وبالتالي التقليل من مبدأ الصدق (اليقين) المطلق للنظريات العلمية واستعيض عن هذا المبدأ بمبدأ يضاده وهو مبدأ التكذيب وهو البرهنة على كذب النظريات العلمية فإذا أدت أية نظرية إلى نتيجة كاذبة فهذا يكفي لدحض النظرية واعتبارها كاذبة وبهذا الأساس فالنظرية العلمية هي النظرية التي من الممكن تكذيبها انطلاقا من ما هو موجود في الواقع وإذا لم يمكن تفنيدها ودحضها فهي خارجة المنهج عن عالمنا الواقعي وبذلك فهي نظرية لا تمت للعلم بصلة ومن هنا يصبح العلمي الملائم يتمثل في بناء الفرضيات ومحاولة الاستمرار في تكذيبها، إلا أن الطرح القائل بمبدأ التكذيب واجه مشكلة عويصة وهي أنه مثلما من الصعب البرهنة على صدق النظريات العلمية كذلك يصعب البرهنة على كذبها، كما أنه توجد بعض النظريات العلمية التي تلقى قبولا عند العلماء ولكن من المستحيل تكذيبها كالنظرية التي تقول بوجود ثقوب سوداء في الفضاء. وهكذا ثمة علوم لا اختبار لها رغم قبولها من الناحية العلمية وهذا كفيل بأن يجعل من الخطأ اعتبار أن النظرية العلمية هي النظرية التي من الممكن تكذيبها و من الخطأ اعتبار المنهج العلمي كامن في السعى نحو تكذيب النظريات، ولما كان من الصعب جدا إن لم نقل من المحال تصديق وتكذيب النظريات العلمية، فقد ابتدع بول فييرابند الفكرة القائلة: بأن لا وجود لمنهج علمي، فلا توجد مبادئ أو قوانين منهجية يستخدمها العلماء بشكل دائم، فوجود أي

منهج علمي يحدد عمل العلماء ويسجنهم في مبادئ معينة ما يؤدي الى منع نشوء أي تطور علمي جديد، ثم إن النظرية العلمية تحدد طبيعة الحقائق والظواهر وتراها على ضوء مسلماتها المسبقة وبذلك من الخطأ مقارنة النظريات بالحقائق والمشاهدات كون هذه الحقائق والمشاهدات تسلم مسبقا بصدق نظريات ومسلمات معينة وعلى هذا الأساس يقر "فييرابند" (Paul Feyeraben / 1924– 1994م) بأنه لا وجود لمنهج علمي صارم، وهذا ما يجعلنا نطرح الإشكالية الآتية:

ما الأسس الابستمولوجية التي برّر على أساسها "فييرابند" فكرته الفوضوية والتعددية في المنهج؟

الأسئلة الجزئية:

ما الذي جعل فييرابند يقترح منهج الفوضوية؟

هل العلم يتميز بمفهوم ثابت خلال تاريخه أم أنه يتغير عبر الاكتشافات العلمية؟

هل العقلانية الغربية محايدة في كلامها عن العلوم الشرقية؟

هل وجد العقل البشري المقياس المحايد الذي من خلاله يمكن قياس المعرفة؟

أهمية الدراسة:

– تكمن أهمية الدراسة في كون الموضوع يشكل جانبا بالغ الأهمية في فلسفة العلوم المعاصرة، ذلك أن الموضوع يتعلق بمفهوم العلم عند "فييرابند" وبحث الأسس والمقياس الذي من خلاله يمكن قياس المعرفة الصحيحة، بإعادة توجيه الثقافة الغربية إلى النظر في منجها وعقلانيتها تجاه العلوم الشرقية، وبما أن "بول فييرابند" قد لمع نجمه في الحقبة الزمنية الممتدة

من 1950–1980 وذلك باعتباره أحد الفلاسفة الذين كان لهم الحظ الوافر في التأثير على الساحة الفلسفية والعلمية بعد الوضعية المنطقية، فقد كان لكتابه (ضد المنهج: 1975م) صيت عند جل الفلاسفة وكثير من العلماء والمثقفين.ولعل الملفت للانتباه هو انتقاله إلى موقف شبه منطقي – بمنهج ثابت ووحيد – إلى الترحيب بكل عمل معرفي بغض النظر عن مصدره ومنهجه.

– كما أن الأهمية تظهر أيضا في تحدي التصورات التقليدية، التي عرضها "فييرابند" وبين تهافتها، وطلب اعادة النظر فيها وتحليلها، وتحديد مفهوم العلم بين الشرق والغرب، ومحاربة الهيمنة الغربية على هذا المصطلح، كل هذا يفتح آفاق جديدة الى التفكير خارج الايديولوجيات الثقافية، ويشجع على استخدام العقل بطريقة حرة.

– أيضا تكمن أهمية الدراسة في فهم العلاقة بين العلم والمجتمع، وتأثير السياق الثقافي على هذه العلاقة، فيوضح "فييرابند" تأثر العلم بالقيم والمعتقدات السائدة، ونسبية العلم وتهافت سلطته ومطلقيته في تحديد الصحيح من الخطأ، وهذا ما يفيدنا به تاريخ العلم في كل مرة يكتشف فيها معارف جديدة.

أهداف الدراسة:

من الاهداف المتوخاة من هذه الدراسة يجملها الباحث في:

– فهم فلسفة "فييرابند" ومنهجية نقده للعلم، ومفهومه للفوضوية، وكيف أثرت الأخيرة على فلسفة العلم، مع تقييم نقدي لأفكاره، وتحليل حججه وبراهينه، ومناقشتها مناقشة موضوعية وتقديم عرض متكامل حول مدى قوتها من ضعفها في ميدان العلم.

– الكشف أن التحولات العلمية التي كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بتحولات إبستيمولوجية، لذلك ينبغي النظر في هذا الجانب باعتباره ركيزة أساسية لكل علم. من جهة تقليل الثقة التامة في يقين العلوم والنتائج المترتبة عن هذه الوثوقية، وفتح المجال أمام نظريات من شأنها تطوير المعرفية الإنسانية.

– اثراء المكتبة العربية التي تفتقر إلى الانتاج الفلسفي بصفة عامة وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بفلسفة العلوم إذ لابد لنا كباحثين من مسايرة الركب الحضاري في النظر في المشكلات التي تطرحها متطلبات الحياة المعاصرة ومحاولة ايجاد حلول لها سيما تلك المشكلات التي تتعلق بالمنهج والمعرفة.

– كيفية تطبيق افكار "فييرابند" في العلم، بل وفي مجالات أخرى مثل العلوم الانسانية والاجتماعية، من خلال فهم العلاقة بين العلم والمجتمع من خلال كتاباته التي تكلم فيها عن خروج العلم من رحم الثقافة والاسطورة.

– أيضا من الاهداف التعرض للانتقادات التي وجهت لفلسفة "فييرابند" وعرضها وعرض حججها ومناقشتها واظهار ما لها وما عليها، من خلال مقارنتها بأفكار فلاسفة آخرين، حاورهم فييرابند نفسه، وانتقدهم، واستفاد منهم في الوقت نفسه.

صعوبات الدراسة:

ككل بحث لابد من وجود صعوبات في الدراسة، ومن بين تلك التي من الممكن أن تواجه الباحث في دراسته الحالية.

– صعوبات متعلقة بالموضوع في حد ذاته باعتباره ذا طبيعة علمية ابستيمولوجية، وبالتالي ضرورة التعامل معه باللغة العلمية، ومحاولة تقريبها الى لغة الفلسفة، مع الاشارة إلى

صعوبة الربط بينهما وذلك للتباين بين اللغتين، بالاضافة إلى صعوبة فهم مصطلحات "فيرابند" فهو أحيانا يستعمل مصطلحات علمية بطريقة مختلفة، وربما يوسع من دلالات بعض الألفاظ ويدخل في العلم الثقافة والمجتمع ويجعلهما أداة أساسية في تحديد العلم.

– وهناك صعوبات متعلقة بالمادة العلمية ذاتها، فالتطور الهائل الذي تعرفه الساحة العلمية في وقتنا الراهن والوتيرة التي يسير بها هذا التطور يشكل علينا به ما إذا كنا نتكلم عن حالة راهنة أو نتكلم عن حالة صارت من الماضي، وبالتالي لابد من العودة إلى ميدان التخصص الذي يصعب الحصول عليه بالنظر إلى أن مادة البحث مكتوبة باللغة الأجنبية مما يتطلب اللجوء الى الترجمة، والتي تكون قاصرة في احيان كثيرة، وقد حاولت تجاوز هذه الصعوبات من خلال انتقاء بعض المصادر والمراجع التي تساعد وتخدم الدراسة.

مناهج الدراسة:

لقد اعتمد الباحث للإجابة على تساؤلات الدراسة الحالية على مجموعة من المناهج العلمية نذكر منها:

– **المنهج التاريخي**: اذ ان الدراسة الحالية تتناول مجموعة من الوقائع التي تبرز تطور العلم الحديث والمعاصر وعلاقة ذلك بالمنهج، وبالتالي يجب الاشارة الى تسلسل الحركة الفكرية العلمية وتتبع اثارها ونتائجها، ولا يخدم هذا المطلب الا المنهج التاريخي.

– **المنهج التحليلي المقارن**: إن الدراسة الحالية تحتوي على مواقف متباينة، ولإظهار مدى تقارب هذه المواقف أو تباعدها، يجد الباحث نفسه ملزما بالمقارنة فيما بينها ليسهل بناء الاحكام.

خطة البحث:

فقد جاء البحث في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، أما المقدمة ففيها شرح الموضوع وأهميته، مع بيان أهداف الدراسة، والصعوبات العلمية التي اعترضت طريق البحث، والمنهج أو المناهج المستعملة أثناء سير هذا العمل العلمي، وشرح للخطة.

ثم الفصول على الترتيب، فالأول منها كان في المعرفة عند "بول فييرابند" وفيه تم بحث التطور الفكري لهذا الفيلسوف مع تناول حياته العلمية وكيف تأثر بكل من "كارل بوبر" و"توماس كون" و"إمري لاكاتوس"، ثم التعريض على نقده لفلسفة العلم التقليدية خاصة نموذج "توماس كون" و"لاكاتوس"، لنختم الفصل بكلمة "فييرابند" حول أن العلم لم يقل كلمته الأخيرة بعد، فهو يبحث في المادة وعلومها خاصة بعد ظهور "نظرية الأوتار الفائقة".

أما الفصل الثاني فكان في العلم والثقافة العلمية عند "فييرابند"، وفيه تم تعريف العلم لغة واصطلاحا، ثم التمييز بين العلم واللاعلم، ثم رؤية فييرابند للمنهج العلمي، مع النظر في هجومه على العلم الحديث والفيزياء اللذين يزعمان أنهم يملكان العلم، ثم في المبحث الأخير في هذا الفصل تم التركيز على الثقافة العلمية عند هذا الفيلسوف.

فيما جاء الفصل الثالث بعنوان "من العقلانية إلى التعددية المنهجية عند فييرابند"، وتم التطرق في المبحث الأول إلى العقلانية مفهومها وتطبيقاتها، ثم أسس العقلانية الغربية، ثم نقد هذه العقلانية من طرف "فييرابند"، وبعدها مبحث التعددية المنهجية عند فيلسوفنا، ثم مبحث الفوضوية مفهومها في فلسفة العلم المعاصرة وشرح هذه النظرية في علاقتها بالإبستمولوجيا، ثم في مبحث رابع بحث اللاقياسية بين النظريات، وفي الخامس النسبوية عند فييرابند وعلاقتها بكتاب العلم في المجتمع الحر.

وفي الفصل الأخير تناولنا أبعاد فكرة الفوضوية في المنهج، ببحث أولا الجانب الميتافيزيقي لنظرية الأوتار بشرح النظرية ومعاييرها وقواعدها ونتائجها، ثم في المبحث الثاني تم بحث منهج "بول فييرابند" في كلامه ضد المنهج، وفي الثالث البعد الاجتماعي لفكرة الفوضى في المنهج ودور العلم في المجتمع، والنتائج السياسية لفكرة الفوضى في المنهج.

وفي الأخير خاتمة وفيها نتائج البحث مع التوصيات العلمية.

الفصل الأول
المعرفة عند بول فييرابند

محتوى الفصل الأول

مدخل

المبحث الأول: التطور الفكري لفييرابند

المبحث الثاني: حياته وأعماله

المبحث الثالث: علاقة فييرابند بكل من "بوبر" و"توماس كون" و"لاكاتوس"

- علاقته بـ كارل بوبر
- علاقته بـ توماس كون
- علاقته بـ إمري لاكاتوس

المبحث الرابع: نقد فييرابند لفلسفة العلم التقليدية

- نقد فييرابند لفكرة النموذج لدى "توماس كون"
- نقد فييرابند لفكرة برامج البحث عند "لاكاتوس"
- العلم ليس الكلمة الأخيرة عند "فييرابند"

مدخل:

في هذا الفصل سنحاول فهم فلسفة المعرفة عند "بول فييرابند" ببحث التطور الفكري لهذا الفيلسوف مع تناول حياته العلمية وكيف تأثر بكل من "كارل بوبر" و"توماس كون" و"إمري لاكاتوس"، ثم التعريض على نقده لفلسفة العلم التقليدية خاصة نموذج "توماس كون" و"لاكاتوس"، من أجل فهم مسألة العلم وهل قال كلمته الأخيرة بعد؟

مع بيان معرفة العلم تجعلنا ننظر في منهج العلم نفسه، وما موقف "فييرابند" من هذه المناهج؟ ولماذا ألف كتابه "مع المنهج وضد المنهج" مع صديقه "لاكاتوس"، ثم كتابه "ضد المنهج"؟ وما علاقة هذا بالإلتباس القائم بين العقلي واللاعقلي؟.

وعلى اعتبار أن فلسفة العلوم شهدت تطورات علمية مذهلة ومهمة بداية من ظهور كتابات الوضعية المنطقية، والردود التي تبلورت جرائها بداية من التحليلات النقدية، نسأل: ما موقف "فييرابند" الفلسفي من الإتجاهات الكلاسيكية؟

ثم نبحث النظرية العلمية، وهل هي طريقة إلى العلم وبالتالي هي وجهة نظر فلسفية، أم أنها تقوم على قوانين ثابتة لا تتغير؟

المبحث الأول: التطور الفكري لدى فييرابند

انصب اهتمام "فييرابند" في مقتبل حياته على الفن، فالتحق بأحد المعاهد لدراسة "فن الاوبرا" ثم التحق بالجيش وانخرط رغما عنه في الحرب العالمية الثانية ولم يسلم من طلقات الحلفاء حيث أصيب بثلاث طلقات في يده اليمنى ووجهه وعموده الفقري مما أعجزه عن الحركة الطبيعية طوال حياته ثم تحول لدراسة العلم[1] وكانت الاطروحة لنيل الدكتوراه حول مشكلات الديناميكا الحرارية الكلاسيكية ويخبرنا "فييرابند" أنه درس المسرح والتاريخ والرياضيات والفيزياء والفلك ولم يدرس الفلسفة الا في مرحلة متأخرة وقد انتهى فكره الى الفوضوية سنة 1977م، وتعد أعماله من الأعمال القيّمة في فلسفة العلوم المعاصرة فهو يعد من الذين أبدعوا واثرو الحقل المعرفي الإنساني في جمال نظرية المعرفة في الفترة الأخيرة. بل نجد "توماس كون" يذكر "فييرابند" في تصديره لكتابه "بنية الثورات العلمية" ضمن الذين يدين بإسهاماتهم ومقترحاتهم الكثيرة كما أنه يعد من أهم المنتقدين للحضارة الغربية وللعلم على أسس جديدة ومفاهيم شديدة الأهمية.

كما كان لـ"توماس كون" أثر عميق على "فييرابند" سيما في فكرة اللاقياسية[2] التي دفع بها الى أقصى الحدود وأفتتن بها إلى حد الجنون واستحضرها في كل لحظات فكره من شدة تمسكه بها، نجده في بعض كتاباته يوحي أنها من وضعه، فهي على حد قوله: "هبة منه للفلاسفة والسوسيولوجيين. كما أن "فييرابند" لا يؤمن بالعقلانية ولا يقبل بوجود

---

[1]- سيأتي الكلام عن مفهوم العلم عند "فييرابند"، وبيان علاقة العقلانية الغربية بالعلم نفسه. وكيف أن الغرب حاول أن يجعل العلم فقط ما أنتجته حضارتهم دون غيرهم من الحضارت، وهذا ما سيتعرض له "فييرابند" بالنقد الشديد.

[2]- سيأتي شرحها في الفصل الرابع.

ضوابط وقواعد"[1]. ومن هنا يمكن اعتبار "فييرابند" ظاهرة مستنفرة داخل مجال فلسفة العلم بمواقفه الغريبة والطريفة لا سيما في شقه الاستبيمولوجي، فهو حقا يتعب قارئيه الشغوفين بحديثه وكتاباته المهمة واللا مفهومة والمناقضة لما هو كائن أحيانا، فهو يدرج نظريته حول العلم في خانة الابستيمولوجيا الفوضوية، لكنه في الوقت نفسه لا يخفي استعداده للأخذ ببعض المبادئ، ما ينافي ويناقض روح الفوضوية المناهضة لكل مبدئ أو قاعدة، يعلن تارة انتمائه إلى النسبانية البروتاغورية[2] وتارة أخرى إلى الواقعاتية، لكن سرعان ما يتنصل من ذلك كله منتسبا إلى الدادائية العلم ويدافع عن التنجيم والسحر والتصوف والأسطورة بحماسة[3] في وجه منتقديه من جهة أن العلم له من الأسس ما يرجع إلى هذه الاخيرة من سحر وتنجيم.

شارك "فييرابند" وهو طالب في برنامج دائرة كرافت الوضعانية واعتنق الابستيمولوجيا التفنيدية "البوبرية" ودافع عنها ضد النزعة الاختبارية الاستقرائية لكن سرعان ما انقلب عليه. واتفق مع صديقه "ايمري لاكاتوس" على تأليف كتاب مشترك بينهما تحت عنوان

---

[1]– بول فييرابند، ترجمة: مُحَّد أحمد السيد، ثلاث محاور في المعرفة، الاسكندرية، منشأة المعارف، 1993م، ص 230.

[2]– نسبة إلى بروتاغوراس، وهو من فلاسفة اليونان التابع للمدرسة السفسطائية القائلة بنسبية المعرفة. أي أن "فييرابند" في فلسفته العلمية يقول بنسبية المعرفة مرة وتارة بعكسها من "الواقعاتية".

[3]– يدافع عن التنجيم والسحر والتصوف والأسطورة بحماسة، يدافع عنها لا لذاتها، بل لأنها مقدمات من خلالها جاء التفكير العلمي، وحققت ما يحتاجه إنسان تلك الفترة في حياته اليومية، فإن كان العلم هو ما يحقق رغباتنا فقد حقق التصوف الإتزان النفسي، وحقق السحر مقدمة لعلم الكيمياء، وحققت الأسطورة مقدمة لعلم التاريخ، وحقق التنجيم مقدمة لعلوم الفلك، كان هكذا تفكير "فييرابند" نحو تلك المعارف.

"مع المنهج وضد المنهج" ووضع كتابه "ضد المنهج" سنة 1975 "خطة لنظرية فوضوية في المعرفة[1] ومن ثم تفرغ لنقد فلسفة "بوبر" ذات النفوذ الواسع في الحقل الابستيمولوجي.

وفي منهجيته يرفض الانتقادات التي وجهها التجريبيون والدغماتيون للعقلانيين وهكذا فإن الالتباس الذي يقره "فييرابند" بين العقلي واللا عقلي هو ما جعله يتحدث أحيانا عن نوع من المناهج اللاعقلية معتقدا أنها تؤدي هي الأخرى إلى نجاح ملحوظ لا بمعنى العقل ولكن بالمعنى اللاعقلي وهذا هو المثير في موقفه من العقلي واللاعقلي، فهو يوحد بينهما وحينما يؤكد على تعليم السحر أو العلم فهذا نابع من عمق تفكيره وتفتح فكره لكونهما سواء السحر أو العلم يخضعان لقواعد معينة يتم التسليم بها من طرف العقل ذاته ويؤكد فييرابند على أنه من العبث أن نأمل في اختزال العلم إلى بعض القواعد المنهجية البسيطة وذلك نظرا لتعقد تاريخه[2]، فالفكرة القائلة في نظر "فييرابند" بأن العلم يمكن وينبغي له أن ينتظم وفق قواعد ثابتة وشمولية في آن واحد فكرة طوباوية[3] وذات بريق خادع، وكل المناهج لها حدودها والقاعدة الوحيدة تبقى وتحيا هي في كل شيء جائز، هنا مكمن التصور الفوضوي الذي يعتنقه ويدعو إليه.

---

[1]- أي خطة لمعرفة غير نسقية، أي عدم اتباع نسق واحد ووحيد من أجل البحث عن المعرفة، فتاريخ العلم دائما ما أثبت أن العلم يسلك طرقا كثيرة من أجل الوصول الى القانون العلمي، هذا ما أراد أن يثبته "فييرابند" وسيأتي تفصيله.

[2]- يمكن أن يرجع الباحث في هذا الى "تاريخ العلم" عند "جورج سارتون" والذي فيه ستة مجلدات، وسيجد الكثير من التعقيدات، في مسائل مثل نشأة العلم نفسه، وكيفية حضوره في الحضارت الشرقية، وانتقاله لليونان خاصة منه علم الطب الذي يزعم الغرب أنه نشأ من السحر والشعوذة، وعلم الفلك وأنه نشأ من التنجيم، فهم من جهة يزعمون أن خلفية العلم ميتافيزقية ومن جهة يناقضون أنفسهم بأن أسس العلم علمية ولا علاقة لها بالشرق؟

[3] - B, BACZKO. *Loumére de l'utopie*, Payoy (Paris, 1978).

تعتبر النزعة النسبية من أهم تجلياته يستعمل مفهوم النسبانية بدلالات مختلفة ومتباينة وأحيانا عبث، إلا انه يتضح من خلال النظر في تطور العلوم والفنون والفلسفة، أن الغنى الفكري متلازم ومتناسب مع التعدد المذهبي، بحيث لا يمكن أن يتوفر التعدد إلا في جو ثقافي تتعايش فيه المذاهب والعقائد تتلاقح بدرجة ما من أجل الإبداع والابتكار وهذه هي الخاصية الأساسية للعقلية العلمية فتنوع الآراء سمة ضرورية للمعرفة الموضوعية والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد الذي يساير النظرة الإنسانية[1].

بعد ذلك طالب "فييرابند" بأناركية العلم حيث أنه لا يمكن التسليم بالقواعد والقوانين كثوابت أساسية في بناء وتطور العلم، واهتم بالفيزياء وتأثر بـ"كارل بوبر" و"فتجنشتين" ويحب أن يزعج الناس ويسخر منهم كما أعجب فييرابند باللاحتمية "هيزنبارغ" (Werner Karl Heisenberg 1901-1976)، كما أنه مولع بالفيزياء الكمية[2]. تهجم على "توماس كون" و"ايمري لا كاتوس" بأسلوبهما هذا يحجمون عقول الناس. فالعلم اليوم أصبح يقوم بدوغما مثلما كانت الكنيسة المسيحية تقوم بدوغما توجه فيها "غاليلي"(Galilée 1564-1642)، وأما فلسفة العلم فإنها لا تحتوي أي ادعاء داخلي، العلم مثله مثل المعرفة الشعورية التي تتبناها المتصوفة أو المعرفة الدينية التي يتبناها المتدينون عن طريق الوحي والتواتر، أو مثل الطب البديل والطب المعاصر ليس هناك أفضلية.

---

[1]- بمعنى: أن عقل الإنسان مفتوح على كل الإحتمالات، ومن الجيد منهجيا أن نترك الباب مفتوحا أمامه، ولا يصلح علميا تقييد العقل بمنهج موحد، هكذا يرى "فييرابند".

[2]- جون جريبين، البحث عن قطة شرودنجر الفيزياء الكمية والواقع، ترجمة: فتح الله محمد ابراهيم الشيخ، أحمد عبد الله السماحي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة ط1، 2009، ص46.

يلاحظ "فييرابند" أن التطور الفكري في "توماس كون" أن آرائه سجلت حول نقده للنظريات الكلاسيكية، والنظريات القديمة في فلسفة العلم، حيث نجد أن فكرة الفلسفي استقر من الوضعية المنطقية، والتي استمد آراءها وأفكارها، ونظرياتها بالطابع العلمي المنطقي إلى المنهج الاستقرائي، فلم يلبث ما أن انقلب عليها بعد اطلاعه على فلسفة صديقه كارل بوبر، والتي ساعدته وبشكل قوي وبارز في تكوين نظريته العلمية لفلسفة العلم، ومحاولا إبراز رؤيته لها، فنجد أن نقده لفلسفة الوضعية المنطقية يكمن في حرصها على التبرير المنطقي للنظريات العلمية على أسس المنهج الاستقرائي، ونسيانها المضمون التاريخي، والإنساني للنظريات العلمية، وهذا من خلال آراء ونظريات صديقه كارل بوبر، حيث أخذ منه أفكار ونظرياته حول المنهج الاستقرائي، ولكن سرعان ما انتقده في مسألة القابلية للتكذيب، أو المنهج التكذيبي، أي أنه يمكن القول بعبارة أخرى أن فكره تطور عبر نقده للتقاليد وتعاليم فلسفة العلوم، ومن خلال إبراز نظريته الفوضوية، والتي يراها حلا ملائما للمشاكل العلمية، إذ نجده يقول: "بأن الفوضوية ليس لها جاذبية فقط في الفلسفة السياسية، وبالتأكيد فإنها الدواء الشافي لإبستيمولوجيا وفلسفة العلوم"[1].

بالإضافة إلى ذلك فإن فكره الفلسفي كان مبنيا على نقد فشل الاتجاهات الكلاسيكية، والفلسفات العلمية في محاولة معالجة النظريات العلمية، والتعبير عنها، وصياغتها بمفهوم واسع وجلي، محاولا بذلك ابراز أن قيمة هذه النظريات العلمية هو أعمق بكثير مما تقدمه

[1]- Manuel Maria Carrillo, *la philosophie des sciences*, OP.CIT, p 522.

وتتصوره هذه الاتجاهات الكلاسيكية من جهة، وأنها قابلة للاختبار ويمكن رفضها ودحضها ما لم تتوافق مع النتيجة التي نتنبأ بها من جهة أخرى[1].

التقى فييرابند بأعلام عصره من الفلاسفة أمثال فيليب فرانك وانسكومب، بالإضافة الى لقائه بالفيزيائي اهرنهافت، ومن أنشطته التنقل بين العواصم الأوربية والأمريكية بعد حصوله على الدكتوراه 1951 وانتهى به المطاف في لندن حيث التقى "ببوبر" مرة ثانية، كما حصل على صحة دراسة (فتجنشتين) من جامعة بيرستول.

تبنى "بول فييرابند" موقفا مناهضا للتسليم بإطار محدد للتفكير العلمي، كما عارض صك الأفكار أو صبها في قوالب، وراح يؤكد على أن الثقافات المختلفة والحقب التاريخية المتتالية، تنتج كل واحدة منها نموذجا من العقلانية يخصها دون غيرها[2]، ومن ثم لا مجال لتعميم يدرك طالما أن ما نراه حولنا تعدد وكثر لا تعني سوى الفوضى وأهم الأفكار الأساسية التي تتعلق بتصوراته[3]:

- نقد القواعد المنهجية العامة كما نقلها كويرتج عن فييرابند[4].
- عدم التسليم بكل النظريات العلمية باعتبارها نتائج استنباطية.
- عدم الاتفاق بين التنبؤ النظري وما تكشف عنه التجربة.

---

[1]- ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم، ص 96 .

[2]- يعني الحضارت الشرقية، فالحضارة الهندية أو الصينية أو العراقية أو الفرعونية، كل منها يتميز بنموذج ثقافي معين، وقالب معرفي متميز، كل منها تنتج عقلانية مختلفة عن عقلانية غيرها، والجميع مختلف عن العقلانية الغربية.

[3]-مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم: رؤى معاصرة في فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، 2006، ص: 252- 253.

[4]- Koertage. N, " *For and Against Method* " in British journal of philosophy of Science , Ud .23/1972, pp-274- 290, -p-281.

– الفروض العينية ينبغي قبولها بجوار غيرها حسب فييرابند على عكس بوبر الذي رأى أن التفسيرات العينية غير قابلة للاختبار لأنها محدودة المحتوى.

– لا يمكن فهم النظريات في صورتها المجردة إلا عندما ترتبط بالخبرة عبر الملاحظة.

– السبب الرئيسي لإدراك النظريات التي يؤخذ بها لا تتسق مع تقريرات الملاحظة هي بالأصل اعتماد على حجة قديمة أصبحت مرفوضة ومن ثم التمسك بالتقاليد البالية تعني خطأ في النتائج.

يذهب فييرابند إلى أنه لا سبيل إلى إقامة مقارنة موضوعية أو تستند إلى معيار محدد، بين الأدبيات المختلفة أو بين النظريات العلمية اعتمادا على مبدأ اللا قياسية، صحيح أنه من الناحية المنطقية يمكن أن نسلم بما يذهب إليه فييرابند، على أساس أن الناس أصحاب الثقافات المتباينة لا تجمعهم قيم حكم واحدة، إلا أنه من المؤكد نكتسب الحياة معنى آخر في إطار خطة عامة تسود حياة البشر أن نفترض قدرا ضئيلا من المعقولية والتتابع أو الاطراد في النظم الأخلاقية والمعرفية[1].

وفي مناخ فكري من هذا النوع يقبل فيه فييرابند بكل الآراء والفروض والنظريات حيث لا يمكن رد نظرية إلى أخرى كما تذهب الوضعية المنطقية ولا يكفي أن نقبل ما هو قائم من نظريات بل علينا أن نقترح ونقدم نظريات حتى وإن كانت لا تتسق مع النظريات السائدة، كما أننا ينبغي ألا نتخلى بسهولة عن نظرية تواجه تحديات واسعة، وكأن فييرابند يفرغ بقوله هذا مفهوم العقلانية الذي ارتضاه بوبر وغيره من كل محتواه، فلا سبيل عند فييرابند للاستناد إلى معيار للمناضلة بين النظريات، بل تقبل كل النظريات وكما رفض في

[1]- Koertage. N, "*For and Against Method*" in British journal of philosophy of Science p-388-389.

موضع سابق معقولية الطبيعة واطرادها، ينادي هنا بالاتساق حيث يراه علاقة على تنافس النظريات وأن وجوده يحمل قيمة لصالح تقدم العلم، النتيجة التي يحبذها فييرابند تقبل كل الأحكام ولا نصادر حق نظرية في الوجود[1].

أما بالنسبة لانتقادات فييرابند للوضعية المنطقية فقد تبوأت مكانة كبيرة في كتاباته المختلفة إذ يقر أن الوضعية الجديدة تمثل تقهرا نحو بدائية فلسفية جديدة[2].

ويقصد بالبدائية الفلسفية ما قبل الفلسفة اليونانية أي الشذرات الفكرية والتصورات، وفي زحم هذ المعارف التي يقدمها فييرابند إلا أنه لا يخفي التصور الذي يستعيره في ستورات ميل عن الحرية الفردية، يقف في وجهه اعتراض كلاسيكي. إن هذه الفكرة التي نقصد بالحرية نفيا لكل قسر أو إرغام، تهمل الوجه الموجب لتحديد الحرية، وهو كونها ما يكون في متناول الأفراد داخل بنية اجتماعية ما، فإذا قصرنا حرية التعبير مثلا في مجتمعنا على عدم وجود الرقابة، فإننا نغفل التساؤل: إلى أي حد يكون في متناول الأفراد الوصول إلى وسائل الإعلام؟.

لقد أوضح "دفيد هيوم"(David Hume 1711- 1776م) فيلسوف القرن الثامن عشر هذه الحجة بكيفية بالغة وذلك عندما انتقد فكرة العقد الاجتماعي التي صاغها "جون لوك"(John Locke 1632-1704م)، وهي أن العقل الاجتماعي يتم تبنيه بحرية من طرف اعضاء المجتمع الديمقراطي، على أن يتمتع المعارضون له بحرية الهجرة، فقد كتب هيوم قائلا: "هل يمكن أن نؤكد بجدية أن فلاحا مسكينا وأن صانعا تقليديا لا يعرف لغات

---

[1]- مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم: رؤى معاصرة في فلسفة العلوم، ص 257 .

[2]- مشقف الطاهر: مناهضة المنهج عند فييرابند، رسالة ماجستر قسم الفلسفة جامعة منتوري، قسنطينة، 2006م، ص 12.

البلاد الاجنبية ولا عاداتها واخلاقها والذي يعيش كل يوم بما يكسبه من عمل عمله، هل نستطيع القول كذاك حر في مغادرة بلده الأصلي؟، أحب أن أقول أن إنسانا يوضع في سفينة هجرة، بينما هو نائم، يعترف إراديا بسلطة ربان السفينة، ولم لا يفعل ذلك، أليس حرا في أن يقفز إلى البحر وأن يغرق فيه؟"[1]

إن خروج "بول فييرابند" من تحت عباءة "كارل بوبر" التي كانت تمثل زيا حريريا تنطوي عليه من آراء جديدة ومبتكرة في المعرفة والمنهج، إلا أنه سرعان ما تخلص من هذا الرداء مثله مثل أقراف جيله، وذهب يبحث عن بدائل تسد له ثغرات معرفية وتساؤلات خفية. فقرر "فييرابند" أن يبحث بطريقة تلقائية دون خطة محددة سلفا، فلم يورثه هذا الأسلوب في البحث إلا تشوش في الحكم واختلاط الرؤى أمامه، فنقل لنا ما يراه عبر تاريخ العلم المزدحم بوفرة الأفكار وتعددها، رأى أن المعرفة العلمية نسبية، كما رأى أن حقل البحث العلمي تسوده الفوضوية، وأن خطوات البحث في واقع الأمر لا تنطوي تحت هذه الصورة الطوباوية التي يقدمها لنا علماء المناهج، إن كانت ثمة علم للمنهج في أصل القول، ورأى من ثم أن يعنون في كتابه الأشهر بعبارة تعبر عن موقفه شخصيا (ضد المنهج).

كما أن فييرابند يحسب له ضرب كل قيود سابقيه الممثلة في صورة الشذوذ والاستفتاءات في حركة التقدم العلمي، إذ يراها علامات فارقة وخصائص لهذه الحركة مثل المفاهيم "اللاقياسي، تعدد الثقافات، وغير ذلك"، لا مجال للتميز الصارخ بين ما يسمى علوم طبيعية وأخرى انسانية، كلها محاولات للمعرفة ومن جانب آخر يعتقد فييرابند أن المعرفة العلمية

---

[1]- آلان شالمرز: نظريات العلم، ترجمة الحسين سحيان، وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 1991، ص 144.

تتخذ من الجانب الاسطوري أو الاعتماد المسبق في رأي أو فكرة أو نظرية فنية أو غيرها أساسا تنطلق منه النظرية العلمية المكتشفة[1]، إنها الانكاركية أو الفوضى.

يمكننا القول أن بداية مشوار "فييرابند" تأثرية بالمطلق "بالبوبرية" الذي تؤمن بأن طريق الفلاح والنجاح في العلم تكمن في التعلم بالمحاولة والخطأ سرعان ما تحول من مناصر الى مناهض وخصم له، ويظهر التأثر من خلال النقد الذي وجهه "بوبر" إلى الوضعية المنطقية والمنهج الاستقرائي سيما من خلال ما عرف بمنطق الكشف العلمي وذلك من جانب التفتح على كل الاقتراحات الممكنة لحل المشكلات العلمية، حيث عبر بوبر عن ذلك بقوله: "نحن بحاجة الى الآخرين لوضع أفكارنا موضع اختبار لنكشف أي من بين أفكارنا هي الصحيحة"[2]، هذا ما نجده عند فييرابند حيث يدعو للتفتح على جميع التقاليد وإتاحة الفرصة للجميع للمشاركة في تطور ونمو العلم ويكمن الاجراء الأولي في نزع ونبذ الحصانة عن النظريات العلمية مهما كانت المبادئ أو القواعد التي تقوم عليها لأنها لا يمكن أن تكون مصدر لليقين وشروط المعرفة الموضوعية العلمية تجعل من المحتم بقاء كل فرض علمي ضرورة وأبدا، معطى على سبيل المحاولة[3]، فالمعرفة الموضوعية تتطلب ترك اليقين لأن مطلب مستحيل التحقق موضوعيا، فالعلم يوجه اهتمامه بالبحث عن بنيان وشواهد سالبة أو عن مكذبات حتى يتخلص من توقعاته الكاذبة ويتمسك بالصادق منها، ويشير رفض الإنسان للتوقعات الكاذبة إلى دور العقل في فهم العالم. وغلبة الاتجاه النقدي في عملية اختيار النظريات البديلة لنظريات فاشلة.

---

[1]- ماهر عبد القادر مُحَمَّد: فلسفة العلوم المشكلات الغربية، دار النهضة العربية، ج2، 1984، ص 14.

[2]- لخضر مذبوح: فلسفة كارل بوبر، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 71.

[3]- لخضر مذبوح: فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، (رسالة دكتورة غير منشورة) جامعة منتوري، قسنطينة، 2022، ص 17.

يختلف "فييرابند" عن "بربر" من وجهة المنطلق العالم لفلسفة "بوبر" على الرغم من تأثره بداية إيجابا ونهاية سلبا، إلا أنه لم يخبرنا بالكثير عن معرفته في كتابه السيرة الذاتية وفي مكان آخر يمدح بوبر، أعجب بحرية أخلاق بوبر ووقاحته وموقفه غير المحترم تجاه الفلاسفة الألمان الذين أعطوا الاجراءات وزنا في أكثر من حاسة واحدة، إحساسه بالفكاهة وقدوته على إعارة صياغة مشكلات مضجرة في لغة بسيطة وصحفية وهنا كان عقلا حرا، ويطرح أفكاره بفرح غير مهتم بردة فعل المحترفين[1].

وتمثل الاختلاف "الفييرابندي" عن "بوبر" عبر طريقين: نقد المعرفة الموضوعية، نقد القابلية للتكذيب. ومن هنا يقول فييرابند إن بوبر يشكل ما يناقض ذاته حينما يقول إن المعرفة برغم انها نتاج إنساني فإنها تظل مستقلة عنه وهو أمر يبدوا مستحيلا فإذا كانت الاعتقادات سابقة للتجريب فإنها تؤثر في كل شيء (خيراتنا، حياتنا، شعورنا...).

1. تعريف النظرية العلمية:

اعتقاد مسبق يحدد رؤيتنا للعالم وبعبارة أخرى طريقة النظر للعالم، وبالتالي فإن النظرية تختلف اختلاف الملاحظ ويمتد ذلك التعريف لينتقد في الأساس ارتباط النظرية العلمية بالخبرة، ويتساءل فييرابند هل يمكن أن نعتبر أن الخبرة الحسية هي المصدر الرئيس للمعرفة العلمية؟ ثم يجيب بـ (لا) وأحد الأسباب التي يعرضها في دراسته (العلم دون خبرة)، ذلك الفصل التعسفي بين النظرية والملاحظة وآخر يتعلق لعدم حاجتنا للخبرة الحسية أثناء فهم النظريات كذلك فإن بعض النظريات يمكن اختبارها من خلال عمليات حدسية فقط دون حاجة للتجريب.

---

[1]- Paul . Feyerabend. *Science in a Feé Socely* – London – new Left. Books .1978 pp.115.

ويستمر "فييرابند" في نقد بوبر فيما نسميه العقلانية النقدية ليس في الاقتباس نقدا، فالمعنى الحقيقي للنقد هو الاستمرار في التساؤل عن نقاط ضعف أفكارنا التي نقدمها، لكن القواعد التي يفرضها بوبر – القابلية للتكذيب نموذجا – المعيار الذي يقول أنه يعرقل العلم أكثر ما يعطيه الفرصة للتقدم، تقود من حريتنا في النقد، فيصبح نقد كارل بوبر هو نسخة باهتة غير حقيقية للنقد، وبالنظر لتاريخ العلم سوف نجد في حالات كثيرة، حالة غاليلو مثلا، أن القابلية للتكذيب لم تكن لتنجح في تطوير العلم.

بمعنى أن التكذيب لم يكن منهجا واضحا في فكر العلماء من قبل، خاصة في فترات الثورات العلمية البارزة من مثل ثورة كوبرنيكوس، أو غاليلي غاليلو، ولكن "بوبر" أراد أن يجعل هذا المنهج السبيل الأوحد للعلم، ومن هنا أخطأ، إذ لا يمكن تقييد العلم بمنهج موحد بل يجب الإنفتاح على كل الإحتمالات المنهجية في البحث العلمي من جهة، ولا يمكن ربط العلم بعقل واحد من عقول البشرية إذ عقل "بوبر" عقل نسبي يتطور مثل غيره من العقول، فلا يمكن أن نفرض على علماء الفلك مثلا جعل منهج التكذيب شيئا صالحا دائما وأبدا في الفيزياء الكونية، والذرية، والطب، والعلوم الإنسانية والإجتماعية.

وعليه فان فلسفة "فييرابند" تتمحور حول فكرة "الفوضوية" في المنهج العلمي، ومعنى ذلك أنه يجب على العلماء أن يكونوا أحرارا في استخدام طرق البحث التي يرونها مناسبة وليس من الضرورة العلمية الالتزام بالمناهج والقواعد القدمية، وهذا الكلام منه من باب الخصوبة العلمية التي تدفع بالعلم قُدُمًا.

المبحث الثاني: التسلسل الزمني لحياة وعمل فييرابند:

– 1955: حصل على أول تعيين أكاديمي له بدوام كامل كمحاضر في الفلسفة في جامعة برسيتول انجلترا، وظهر ملخصه لكتاب "تحقيقات فلسفية" للفيلسوف "فيتجتشين" (فيلسوف إنجليزي: 1889– 1951م)[1] كمراجعة للكتاب في مجلة المراجعة الفلسفية. ويدور الكتاب حول "فلسفة اللغة" وفيه أعطى "فيتجتشين" دفعا قويا للغة، وأصبح كتابه مرجعا مهما في باب فلسفة اللغة، دعوة لتحليل اللغة، مثل عمليات الفهم والدلالة والإبلاغ والتواصل، حيث نشر في كتابه بأن الأفكار في نهايتها هي ترسبات أبحاث فلسفية شغلته طيلة ست عشرة سنة. وهي تهم مواضيع مختلفة منها: في مفهوم الدلالة والفهم والمنطوقات ووأيضا في موضوع المنطق وهكذا في أسس الرياضيات، وفي علم النفس فيما يخص حالات الوعي ومواضيع أخرى مختلفة. وقد دون هذه الأفكار في شكل فقرات قصيرة مركزة وتحتاج إلى شرح، وأخرى في شكل ملاحظات يمكن للباحث أن يستفيد منها وتفتح له آفاق فلسفية فكرية، البعض من هذه الملاحظات والأفكار على هيئة سلسلة تدور حول موضوع واحد، والبعض الآخر منها متنوع في تغيرات من مسألة إلى أخرى[2].

– و"بعد أن قابل (لودفينغ فيتغشتاين) حاول إعادة صياغة مقولاته المختصرة في كتاب (تحقيقات فلسفية Philosophical Investigations) على شكل حجة منهجية، وذلك لتذمره من تصوره العقائدي للفلسفة باعتبارها علاجية فقط، وعمل مع (كارل بوبر) Karl

---

[1]– لودفيغ فيتغنشتاين: تحقيقات فلسفية، ترجمة: عبد الرزاق بنّور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

[2]– "أكبر فلاسفة القرن العشرين، أحدثت كتاباته ثورة في فلسفة ما بعد الحربين. وليس من باب التضخيم أن يعتبره المخيال الشعبي في أوربا سقراط العصر الحديث. ورغم أسلوبه النيتشوي المربك، فقد غير وجهة التفكير الفلسفي وطرق التعامل مع المسائل الفكرية" لودفيغ فيتغنشتاين: تحقيقات فلسفية، ص7.

Popper في لندن، وحمل أفكارا عقلانية هامة إلى أوربا وشمال أمريكا، وذلك قبل أن يتحول إلى أحد أشد منتقدي بوبر"[1].

– 1956: "تزوج (ماري أوتيل) ونشر مقالا عن مقارنة التحليل وتعرف على الفيزيائي الهومي ديفيد بوهم الذي كان لأفكاره تأثيرا عليه بشكل كبير.

– 1957: قدم ورقة عن النظرية الكمية للقياس في ندوة كولستون للأبحاث في جامعة برسيتول.

– 1958: تولى منصب محاضر زائر في جامعة كاليفورنيا في بيركلي وظهرت ورقتين من أهم أوراقه "محاولة في تفسير واقعي للخبرة والتتمة في أعمال أرسطو، وفي هذا جادل الوضعية ولصالح التفسير الواقعي للعلاقة بين النظرية والخبرة وذلك إلى حد جد كبير على أساس مألوفة من آراء التكذيب عند كارل بوبر.

– 1959: كنتيجة للمناقشات السابقة مع هربت فيجل نشر بول فييرابند مشكلة وجود الكيانات النظرية، حيث قال أنه لا يوجد هناك مشكلة خاصة بالكيانات الافتراضية وقدم محاضرتين لكلية (أوبرلين)، (اوهايو) والتي بالغ فيها حول آراء بوبر عن المفكرين ما قبل السقراطين"[2].

---

[1]– بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ترجمة: مركز دلائل، مراجعة وتعليق: عبد الله الشهري، مركز دلائل، ط1، الرياض– السعودية، 1996م، ص: 19.

[2]– جون بريسون: بول فييرابند، فيلسوف العلم النمساوي. ترجمة: منال مُحَّد خليف، موقع hekmah.org بتاريخ:12-02-2024 الساعة: 17:21

– 1962: "ظهر كتاب (الشرح والرد والتجريبية) وانتقد التفسيرات التجريبية القائمة للشرح والرد النظري (هميل، نيجل) وقدم (مفهوم عدم القابلية للقياس) بناء على النظرية السياقية للمعنى الذي ادعى فييرابند أنه وجدها في تحقيقات (فيتجنتشين).

– 1967–1968: ركز على التعددية النظرية ودافعت مقالاته عن النقد الحديث لتتمة "عن آراء نيلز بور ضد نقد بوبر (فبوبر ليس مسلبا).

– 1975: كتاب ضد المنهج: خطة لنظرية فوضوية في المعرفة، والذي نشره سنة (1975م)، ثم طور أفكاره في أعماله الأخرى من مثل "العلم في مجتمع حر Science in Free Society (نشره سنة: 1978م)، ثموداعا للعقل Fsrewell To Reason" ومع "ظهور أول كتاب (ضد المنهج) وانطلاقته الفوضوية الاستيمولوجية التي كانت أطروحتها الرئيسية أنه لا يوجد شيء أسمه المنهج العلمي وأن العلماء العظماء هو الانتهازيون المنهجيون الذين يستخدمون أي تحركات تصل إلى اليد لو انتهكوا معايير المنهجية التجريبية"[1].

– 1978: ظهور كتاب "العلم في مجتمع حر"[2] فيه رد على مراجعي كتاب ضد المنهج وبعض التوضيح للفوضوية الايستمولوجية.

– 1984: نشر "العلم كفن"[3] و"دافع فيه عن التفسير النسبي الواضح لتاريخ العلم.

– 1987: نشر كتاب (وداعا للعقل).

---

[1]– جون بريسون: بول فييرابند، فيلسوف العلم النمساوي. ترجمة: منال مُحَمَّد خليف، موقع hekmah.org بتاريخ:08-03-2024 الساعة: 17:55

[2]– بول فييرانبد: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 17.

[3]– شبه العلم بالفن، تنبيها على أنه ليس شيئا جامدا، بل يخضع للذوق الإنساني، ففيه النسبية واضحة مثل نسبية الفن.

- 1990: استقال من بيركلي.
- 1991: تقاعد مع زيورخ ونشر ثلاثة حوارات حول المعرفة وما وراء العقل.
- 1993: أدخل إلى المستشفى.
- 1994: توفي في عيادة جينولييه كانتون فود – سويسرا –.
- 1995: نشر له كتاب قتل الوقت (السيرة الذاتية بول فييرابند) [1].

. وبعد هذا العرض الزمني لأهم محطات حياة "فييرابند" بدء من تعيينه الاكاديمي وصولا إلى آخر مؤلفاته وأعماله العلمية، نلاحظ أنّ الفيلسوف قد مرّ بخمس مراحل كبرى في حياته العلمية:

. الخمسينات: بداية مسيرته الأكاديمية، وتأثره بفيتجنشتاين وبوبر، وبداية تطوير أفكاره الخاصة حول فلسفة العلوم.

. الستينات: تركيزه على قضايا التفسير العلمي، ونقد التفسيرات التجريبية، وتقديم مفهوم "عدم القابلية للقياس".

. السبعينات: نشر كتابه الأشهر "ضد المنهج"، الذي أعلن فيه عن فلسفته الفوضوية في العلم، ودعا إلى التنوع في المناهج والأفكار.

. الثمانينات: مواصلة تطوير أفكاره، ونشر كتب أخرى مهمة مثل "العلم في مجتمع حر" و"وداعا للعقل".

---

[1]–بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص:18.

. التسعينات: تقاعده من جامعة بيركلي، ونشر سيرته الذاتية "قتل الوقت".

المبحث الثالث: علاقة فييرابند بكل من كارل بوبر وتوماس كون وإيمري لاكاتوس:

على اعتبار أن فلسفة العلوم شهدت تطورات علمية مذهلة ومهمة بداية من ظهور كتابات الوضعية المنطقية والردود التي تبلورت جرائها بداية من التحليلات النقدية لـ"كارل بوبر" لمبدأ التحقيق، مرورا بتكريس الفكرة البوبرية القائمة على مبدأ التكذيب وصولا إلى فكرة النموذج لذا توماس كون في مؤلفة "تركيب الثورات العلمية" ومدي استيائه للتصور الايستمولوجي للعلم وما انجر وترتب عليه من أبحاث ايمري لاكاتوس في فكرة برامج البحث العلمي مرسخا تحليلات عقلانية نقدية مرتبطة بسياق تاريخي موظفا الفكر بصورة جديدة تتسق مع واقع ايستمولوجيا علمية جديدة يتطلع إليها الفكر العلمي.

فما علاقة "فييرابند" بكل من الرواد الثلاث "بوبر" و"كون" و"لاكاتوس"؟

1. علاقة فييرابند بكارل بوبر:

1.1. إن الحديث عن العلاقة بين الفيلسوف "فييرابند" بالفيلسوف "كارل بوبر" يسوقنا مباشرة إلى الحديث عن مدى تأثره بفكره، لكن سرعان ما هجر النموذج العقلاني للعلم الخاص ببوبر، وربما كان هجوم "فييرابند" على العقلانية النقدية، وخاصة على مؤسسها الحقيقي "بوبر"، لقوله بفشل الكلاسيكية في معالجة النظريات العلمية، وعلى اعتبار أن المنهج العلمي هو منهج المحاولة والخطأ، وهنا يعتقد فييرابند أنه ليس هناك منهج

للعلم، وخاصة في التمييز بين العلم واللاعلم، على اعتباره مجرد فصل اصطناعي لا يخدم التقدم والتطور المعرفي[1].

ويستمر "فييرابند" في نقده لـ"بوبر"، خاصة في الأمور الآتية:

- مسألة العقلانية النقدية، لكونها لا تشكل نقدا في نظره.
- بل إن المعنى الحقيقي للنقد عنده الاستمرار في طرح التساؤل عن مدى صحة أفكارنا على أنها صحيحة، وإيجاد مدى ضعفها، ومحاولة تصحيحها.
- وكذلك استمر نقده على مستوى القابلية للتكذيب، والتي يعتبرها على أنها معيار يعرقل العلم أكثر مما يقدم له الفرصة للتقدم، والتطور المعرفي.
- بالإضافة إلى أن القابلية للتكذيب تكبح وتضيق من حريتنا في النقد.

والسبب في ذلك كله:

هو أن بوبر يناقض ذاته حينما يقول بأن المعرفة برغم أنها من انتاج الإنسان فإنها تظل مستقلة عنه، وهو أمر يبدوا مستحيلا، فإذا كانت الاعتقادات سابقة للتجريب، فإنها تؤثر في حياتنا وخبرتنا عن العالم نفسه.

وعليه يمكن القول بأنّه ومن بداية من "كارل بوبر"، لازالت مداد الأقلام إلى اليوم تسيل لتسجل جوانب هامة من كتابات الرائد الأول في فلسفة العلوم باعتباره الفيصل في الحديث عن فلسفة العلوم ما قبله وما بعده، مكرسا فكرة مفادها أن الالتزام جريمة سافرة وهي دلالة قطعية وضمنية على حالة الاعتقاد السائد، لذى لزم احضار الوضعية المنطقية

---

[1]- بول فييرابند: ثلاث محاور في المعرفة، ترجمة: مُحَمَّد أحمد السيد، الاسكندرية، منشأة المعارف، 1993م، ص: 141.

واتباع الماركسية[1]، ملوحا في الوقت ذاته إلى النهوض وكسر حالة الركود والسكينة، والدفع بالمرء إلى التخلي عن هذا الجمود وضرورة القيام بالعمل، في اللحظة التي يلزم القيام فيها، فبوبر لم يكن معاديا للفلسفة والميتافيزيقيا تماما، كما فعل أنظار الوضعية المنطقية[2].

ويؤكد بوبر على وضع المعيار الذي من خلاله يمكن التمييز بين العلم والفلسفة، وأن هذا التمييز ليس يبين ما له معنى وما ليس له معنى، ولهذا يقول: "أعتقد أن هناك على الأقل مشكلة فلسفية واحدة، يعكف عليها كل المفكرين وهي مشكلة الكوسمولوجيا[3]، تلك المشكلة التي تشمل ذواتنا ومعرفتنا، كجزء من العالم Problem of cosmology، فكل العلم كوسمولوجيا، وبالنسبة لي أعتقد أن ذلك هو أهمية الفلسفة وأن الفلسفة لا تقل أهمية عن العلم، وعلى أية حال فإن كلا من الفلسفة والعلم يفقدان كلا من جاذبيتهما إذا تخليا من مواصلة السعي" – ثم يواصل قائلا فيما يخص المشكلة الرئيسية للايستمولوجيا "إن المشكلة الرئيسية للايستيمولوجيا كانت ولازالت دائما هي مشكلة نمو المعرفة[4]، وأن نمو المعرفة يمكن أن يدرس على أحسن وجه عن طريق دراسة نمو المعرفة العلمية[5]، ويبدو أن بوبر عمق هذه المشكلة وسماها مشكلة التمييز، ويرى أن مشكلة العثور على معيار يمكننا من التمييز بين العلوم اللامبرهنة من ناحية والرياضيات والمنطق بالإضافة إلى الأنساق الميتافيزيقية الأخرى، هذه المشكلة هي ما اطلق عليها مشكلة التمييز[6]، فإن هذه المشكلة

---

[1]– فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 82– 83.

[2]–كارل بوبر: منطلق الكشف العلمي، ترجمة ماهر عبد القادر، دار النهضة العربية بيروت، 1986 ص 51.

[3]– المصدر نفسه، ص 51.

[4]– المصدرنفسه، ص 52.

[5]– المصدر نفسه، ص 57.

[6]– جيلز دونالد: فلسفة العلم في القرن العشرين، ترجمة حسين علي، دار التنوير، بيروت ط 1، 2009م، ص: 389.

هي مصدر كل المشكلات الأخرى لنظرية المعرفة[1] عموما ويعتقد أن العثور على معيار مقبول للتمييز لابد وأنه هدف حاسم بالنسبة لأي استيمولوجيا لا تقبل المنطق الاستقرائي.[2]

لكن هل التمييز بين العلم واللاعلم – حسب بوبر– يلزم منه أن الميتافيزيقا ليست علما ولا يمكن الوثوق فيها، ولا يمكن أن تكون من أسس العلم؟

الجواب أنّ "بوبر" قد دافع عن الميتافيزيقا[3] موضحا للذين يمقتون الميتافيزيقيا ويكرهون الفلسفة قائلا: "ولكن الشيء الأخير الذي أود أن أسهم به هو أن أدافع عن اعتقاد آخر، فإنني لست شغوفا بالعلم والفلسفة فحسب، لأنني أريد أن أتعلم شيئا ما عن لغز العالم الذي نعيش فيه، وعن لغز معرفة الانسان بهذا العالم، وانني أعتقد أن الاهتمام بهذه الالغاز يمكن أن ينقذ العلم والفلسفة من التخصصية الدقيقة"[4]. فيستدل كارل بوبر على أهمية الميتافيزيقا في العلم بأنها شيء في جوهر الإنسان الباحث عن حقيقة العالَم، شيء في أنفسنا يدفعنا إلى الميتافيزيقا ويربطنا بها منذ الأزل، هذا الشيء لا يتوقف فينا أبدا بل يحاول أن يردنا دائما إليه، ومن هنا يقرر فشل العلم في القضاء على الميتافيزيقا ومعه فشل الوضعين في ابطال صوت الميتافيزيقا، بل ويرى أن هؤلاء فشلوا في ترسيم الحدود ووضع

---

[1]– يعني أنّ نظرية المعرفة حسبه:

أولا: فيها مشكلات، وأهم مشكلة وأساسها إنما يتمثل في مشكلة التمييز بين العلوم المبَرهتنة واللامُبرهنة.

ثانيا: العلوم المبرهنة، تلك التي برهن المنطق والحسابات الرياضية عليها، والغير مُبرهنة عكس ذلك.

ثالثا: أن المنطق والحساب الرياضي من خلالهما فقط نعثر على المعير الذي نميّز به بين العلم واللاعلم.

رابعا: والعثور على هذا المعيار حاليا غير ممكن، ولهذا يجب أن يكون أول المشكلات البحثية.

[2]–كارل بوبر: منطق الكشف العلمي، ترجمة ماهر عبد القادر، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص 72 .

[3]– الميتافيزيقا: في العادة تطلق على ماوراء المادة، بحسب المعاجم لكن في أصلها يمكن تعميم المصطلح عند الكثير من الباحثين من مثل: أنّ الأفكار التي لا نراها تنتمي بالضرورة لعالم الميتافيزيقا، فالأفكار أشياء غير مادية.

[4]- Kuhn.T.S, "*logic of Discorery or Psychology of Research*", ed . incritiscism and the . Growth of knowledge, by lakatos. J.and Musgrave . A.-ed, Cambridge university, Press.cambridag, 1981, p2.

معيار التمييز بين الأنساق العلمية والميتافيزيقية، بمعنى أن العلماء إلى الساعة لم يستطيعوا وضع فاصل واضح بين العلم والميتافيزيقا، إذ يقول: "وعلى هذا فإنه بدلا من حذف الميتافيزيقا من العلوم الامبريقية، فإن الوضعين ينتهون إلى أن تغزو الميتافيزيقا النسق العلمي"[1]. وهذا الغزو من الميتافيزيقا إنما كان:

- لأن الميتافيزيقا من جهة حاضرة مع العلم.
- بل والاكثر من هذا، أنّ الكثير من القواعد العلمية أصلها الميتافيزقا.
- ثم نجد بأنّ علماء المادة لم يستطيعوا أبدا إزاحة الميتافيزيقا من الواقع العلمي.
- بل والعلم دائما وفي كل مسألة يرجع إلى التفسيرات الميتافيزيقية.

وخير دليل على ذلك نظرية الأوتار التي أُسُسها ميتافيزيقية ولا دليل علمي ثابت إلى الآن حول صحتها من عدم ذلك، ومع هذا نجد علماء الفيزياء يتكلمون عن هذه النظرية وكأنها علمية وقواعدها حاضرة وهي ليست كذلك[2]. ويزعمون أن كلامهم علميّ ولا أثر للميتافيزيقا في علم الفيزياء، وهم يكذبون على أنفسهم ويحاولون إيهام الناس بوهمهم.

فالنزعة التكذيبية[3] التي تبناها "كارل بوبر" تحمل طابعا معارضا للنزعة الوضعية المنطقية التحقيقية، والتي في نظره تكمن في مشكلتين أساسيتين في فلسفة العلوم وهما:

---

[1]- كارل بوبر: منطق الكشف العلمي، مرجع سابق،ص 73 .

[2]- سيأتي الكلام عن نظرية الأوتار وموقف فييرابند منها وكيف يستغلها في الرد على علماء المادة ويبين الأسس الدينية والميتافيزيقية للعلم، في الفصل الرابع من هذه الأطروحة سيتم توضيح هذا.

[3]- النزعة التكذيبية: وفيها الكلام عن التكذيب الذي هو اللامعيار، والفرق بينه وبين القابلية للتكذيب، فالأخير هو المعيار الذي نفصل من خلاله بين العلم واللاعلم، من خلال الإجراء التكذيبي الذي هو مجموعة قواعد وشروط من خلالها يتم التكذيب، وسيأتي مزيد شرح لهذا المبدأ.

مشكلة الاستقراء التي أثارها الوضعين ومن مظاهر النزعة التكذيبية التي ظهرت في مؤلفة منطق الكشف العلمي سجلت نقاط مهمة وهي:

- ✓ . معيار العلمية: قابلية التكذيب.
- ✓ . التكذيب عن طريق القاعدة المنطقية Modus Tollens.
- ✓ . الفحص النقدي للفرضيات.

فتصورات بوبر وإن كانت تحمل معنى سلبيا كالتفنيد والدحض والنقد والتكذيب وقابلية الوقوع في الخطأ، إلا أنها أثرت في سير واتجاه العلم والمعرفة، فالعلم لا يتم كما يعتقد أصحاب النظرة الاستقرائية بتجميع المعلومات الايجابية لدعمة والمحضنة لنظرياتنا العلمية، ولكن بمحاولة تكذيبها ونقدها، لأن هذه الطريقة هي التي تمنحنا الامكانية الوحيدة لمراجعتها أو استبعادها واستبدال نظريات أخرى أفضل منها[1].

2.1. معيار العلمية قابلية التكذيب:

يميز "بوبر" بين مصطلحين مركزيين وهما:

- قابلية التكذيب.
- والتكذيب.

[1]– نعيمة ولد يوسف: مجلة دراسات فلسفية، قسم الفلسفة الجزائر، العدد 11، 2015، ص: 137.

أما قابيلية التكذيب فهو المعيار إذ بعد أصل البحث الابسيتمولوجي لأنه معيار الفصل بين العلم واللاعلم وأما التكذيب فيعني به بوبر لا المعيار، ولكن المنهج أو الاجراء التكذيبي من حيث هو يمثل مجموعة من القواعد التي تحدد الشروط التي تكذب سقاما[1].

ودَأَبَ بوبر على التعريف بمعيار يمنح النظرية وضعا علميا ويفصلها عن النظريات غير العلمية، ذلك ان معيار الوضعية المنطقية هو معيار قابلية التحقيق القائمة على اجراءات استقرائية.

وأثبت بوبر عدم جدواها ومشروعيتها من الناحية المنطقية إضافة إلى التمييز بين القضايا ذات المعنى وهي القضايا العلمية والخطابات الخالية من المعنى والتي ينبغي استبعادها من الدائرة العلمية والمقصود بها الميتافيزيقا.

وتتضح هنا قيمة كشف بوبر عن مبدأ قابلية التكذيب من حيث صلته بنمو المعرفة العلمية وكونه معيارا بين ما هو علمي من فروض ونظريات وما هو غير علمي.

إن أهم سمات النظرية العلمية هو مدى قابليتها للتكذيب أو قابليتها للدحض والتفنيد، فالعلم يوجه اهتمامه لبحث عن بنيات وشواهد سالبة أو عن مكذبات حتى يتخلص من توقعاته الكاذبة ويتمسك بالصادق منها ويفسر رفض الانسان للتوقعات الكاذبة إلى دور العقل في فهم العالم وغلبة الاتجاه النقدي في عملية اختيار النظريات البديلة لنظريات فاشلة[2].

---

[1]- Dacques Monod, *Préface de logique de la découverte scientifique* Tard.de .N thy ssen – Ruthen et ph. Devaux, Paris 1 payoT , 1973, P 85 .

[2]– محمد قاسم: رؤى معاصرة في فلسفات العلوم، دار المعرفة الجامعية، 2006، ص 226 .

ويمكن القول أن مشكلة معيار التمييز يتمثل حسب بوير في " المشكلة تتمثل في ايجاد معيار يسمح لنا بالتمييز بين المنطوقات (القضايا) التي تنتمي الى العلوم الامبريقية (النظريات والفرضيات) والمنطوقات (القضايا) الأخرى خصوصا المنطوقات (القضايا) العلمية المزيفة الما قبل العلمية والميتافيزيقية لكن ايضا القضايا (المنطوقات) الرياضية والمنطقية[1].

3.1. التكذيب عن طريق القاعدة المنطقية:

تتميز النظرية العلمية في تصور "بوبر" بطابعها الافتراضي التكذيبي، فهي ليست بناءا يقينيا، لكنها تقبل التكذيب بصورة غير مباشرة عن طريق تنبؤاتها التي يمكن البث فيها تجريبيا وهذا بشرط توفر قضايا فردية اثناء كل عملية تكذيب تكون كمقدمات للاستدلال التكذيبي وتسمى هذه القضايا بـ(قضايا الأساس) باعتبارها قضية واقعية فردية ذات شكل منطقي محدد ويستجيب لشرطين هما:

أ. انطلاقا من قضية كلية لا يمكننا استنباط قضية أساس من دون توفر شروط أولية.

ب. يمكن للقضية الكلية ولقضية الأساس ان تتناقضا بصورة متبادلة هذا يعني أن قضايا الأساس هي بالتعبير المادي قضايا أن واقعة ما قابلة للملاحظة قد حدثت في موضع خاص من المكان والزمان[2].

وعليه فإن قبول قضية أساس مناقضة للنظرية سيؤدي حتما إلى تكذيب هذه الأخيرة، ويمكننا التعبير عن هذه الخاصية المنطقية الاستنباطية في صورة الاستدلال التالي:

---

[1]- Karl popper . *La logique de la decouverte Scientifique* . O.P De .N. thyssen – Rutten Et Philippe De Vaux Auec Une Préface . De jacques Monod . paypt paris 1912 p 01

[2]- Karl Popper, *Les deux probèmes pondament daux de la théorie de la connaissance* . trad . CH . Bonnet .paris Hermann -1999 p 16 .

- مقدمة: لقد لاحظنا غرابا غير أسود في المكان س وفي اللحظة ج.
- نتيجة: ليس كل الغربان سوداء.

من الجازم إذن أن كذب القضية الكلية يمكن استنباطه من قضايا فردية، وهذا صحيح من الناحية المنطقية ويشترط بوبر أن تكون الواقعة المكذبة من نظرية قابلة للحدوث مرات عدة وهذا سيستدعي صياغة فرضية مكذبة، وبهذا يكون بوبر أدخل مفهوم الفرضية المكذبة واستند إليها وضع الوسيط بين النظرية والقضايا الفردية المناقضة لها في عملية التكذيب.

وهكذا يُلخِص "بوبر" طرحه بقوله: "إن علينا أن نتخلى عن فكرة المصادر الأولية للمعرفة، وعلينا أن نقبل أن المعرفة جميعها إنسانية[1]، إنها محملة بأخطائنا وتخميناتنا وأحلامنا وآمالنا، وإن علينا في مواجهة ذلك أن نلتمس طريقنا نحو الصدق رغم أنه فوق استطاعتنا، لنسلم بأن هذا الطريق مصحوب بإلهام في غالب الأمر، لكن علينا أن نكون على حذر من أن ينطوي الهامنا على شبهة اعتقاد بأي سلطة سواء كانت سلطة دينية أو غيرها، وعلينا أن نحتفظ بفكرة فحواها أن الصدق فوق متناول السلطة الإنسانية، لأن الاعتقاد بغير ذلك سوف ينال من موضوعية البحث ولن تحتكم فيه تخميناتنا لمعيار نقدي في طريق تلمسنا للمجهول وبحثا عن المعرفة[2].

---

[1]- فكرة أنّ المعرفة إنسانية، هي الفكرة التي لم يقبلها الغرب أبدا، وهي الفكرة التي دافع عنها "فييرابند" وقبله "نيتشه" وقبلهما أفلاطون وسقراط بشدة، فالمعرفة نِتاج إنساني، شاركت فيه كل الإنسانية، ومعناه أنّها بدأت من الحضرات القديمة وإلى الحضارات الوسطى مثل الإسلامية وإلى الحضارة المعاصرة الغربية، فالغرب يرفض لسببين هما:

أولا: حتى يوهم الناس بأن المعرفة العلمية غربية وفقط، والفضل يعود للغرب وحده دون الشرق والعرب.

وثانيا: حتى ينشر أفكاره على أساس أنها علمية، حتى يقول مثلا بأن العلمي فقط هو الطب الغربي وليس الشرقي.

[2]- مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم: رؤى معاصرة في فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، 1990، ص 237.

4.1. الفحص النقدي للنظريات:

وهي عملية منهجية نقدية تبناها بوبر وهو منهج المحاولة واستعاد الخطأ على اقتراح نظريات على سبيل التمكن من حل مشكلة ما، ثم اخضاعها لاختبارات صارمة قصد تكذيبها واستبعاد النظريات الكاذبة منها[1]، والقصد من المنهج النقدي يتضح من خلال نقطتين هامتين هما:

- التكذيب.
- والمعرفة العلمية.

فالإنسان في محاولته الحصول على المعرفة برفض التوقعات الكاذبة ويتمسك بالصداقة، وذلك لتشكل جانبا من معرفته وعلمه ومع إجراءاته هذه تبدأ المعرفة العلمية في النمو والتزايد الذي يتناسب طرديا مع هذه الإجراءات ولقد ساعد على هذا بدء تخلص العقل البشري من النظريات الميتافيزيقية واللا موضوعية والاتجاه نحو استبدالها بالنظريات البديلة باستخدام منهج المحاولة والخطأ، ذلك المنهج الذي يستبعد الخطأ بواحدة من طريقتين هما:

أ. طريقة الاستبعاد التام للفرض.

ب. طريقة تعديل الفرض موضع الظاهرة حيث يأخذ صيغة جديدة، وهذا هو الحل المؤقت والذي يعد بمثابته استبعاد للحل الأول، وهو أيضا نفسه قابل للرفض أو للتعديل وهكذا دواليك، وعلى ذلك فهذه هي إجراءات وخطوات المنهج:

---

[1]- نعيمة ولد يوسف: مجلة دراسات فلسفة، قسم الفلسفة، قسم الفلسفة، العدد 11، 2015، الجزائر، ص 148.

- المشكلة رقم 1.

- استبعاد الخطأ.

- حل مؤقت

- المشكلة رقم 2 وهكذا.

2. علاقة "فييرابند" بـ"توماس كون"[1]:

لا يختلف اثنان على أن "توماس كون" من أبرز فلاسفة العلم في عالم اليوم، لقد ألح "كون" إلى الدعوة على تأسيس مدرسة تنفض غبار التراكمية عن تاريخ العلم، وتكشف عن سبل جديدة لفهم بنية المعرفة العلمية ووظائفها، وساعده في ذلك اطلاعه على النظريات العلمية عبر العصور المختلفة، ما ساهم في إرساء تصوراته عن العلم وانتهت ملاحظاته إلى فرض مفاده أن تقدم العلم لا يتسنى له ذلك إلا عبر ثورة علمية تحطم التصورات السائدة[2]، وتفرض أسسا جديدة[3] لممارسة العلم تجعل العالم أمام الباحث

---

[1]- هناك دراسة علمية بعنوان: فلسفة العلم بين توماس كون وبول فييرابند: دراسة مقارنة، يمكن الرجوع إليها للتفصيل أكثر.

[2]- الثورة هنا لا تعني تحطيم العلوم الماضية تحطيما كليا، ثم نبدأ من الصفر، هذا كلام عَدَمي، لا يصلح في العلم والمنطق، فالعلم دائما ما كان يُبنى على بعضه، بتصحيح بعضه. وإنما يعني "كون" الثورة على التصورات السائدة من مثل التسليم بأن الجاذبية هي تلك التي عرّفها لنا "نيوتن" وليست غيرها، بل يجب الثورة على الثابت من المفاهيم وطرحه للمراجعة مرة أخرى. أو مثلا المعرفة هي تلك التي تُعرّف بأنها كذا وكذا، فمفهوم المعرفة يتغير عبر الزمكان.

[3]- الأسس الجيدديدة تفرض نفسها، لأن العلم يتطور، وقوانينه تتطور، ومفاهيمه تتطور، وبالتالي الأسس تحتاج إلى ماجعة مستمرة، فالعلم محتاج إلى مراجعة أسسه في كل مرة، يراجع الأسس ثم يبني المعرفة الجديدة، ولا يجوز له البناء على الأسس السابقة قبل إعادة فحصها من جديد. فربما مفهوم الجاذبية يتغير وبالتالي تتغير أسس الفيزياء، ومنه تتغير قواعد البحث والبناء، وتتغير الفيزياء برمتها، كما نرى اليوم في "نظرية الكوانتم".

العلمي في صورة مغايرة إدراكيا ومفاهيميا لصورة العالم قبل الثورة، إن هذا يعني أن الثورة تنال من العلم والعلماء والعالم وبيان ذلك أن تغير أسلوبنا في الرؤية والتفسير تجعلنا نضع أيدينا على عالم جديد ومن ثم ينشأ علم جديد لا صلة له بما كان سائدا قبل ذلك من نماذج أو أطر فكرية.

لقد صاغ كتابه "بنية تركيب الثورات العلمية" واصفا ما يحدث داخل العلم قائلا: "إن العلماء خلال الثورات العلمية يشاهدون أشياء جديدة ومختلفة حين ينظرون بالآلات المألوفة من نفس الأماكن التي نظروا منها من قبل، والسبب في ذلك أن تغير النموذج Paradigm، تجعل العلماء فعلا يشاهدون عالم أبحاثهم الخاصة بطريقة مختلفة تماما عن ذلك العالم الذي كانوا ينتمون اليه من قبل"[1]. أي تغيير زاوية النظر والبحث يغير من وجهة النظر، وتغيير وسائل النظر يغير من المفاهيم السائدة حول الموضوع الذي بحثناه من قبل، فالعلم محتاج إلى مراجعة طريقة نظره للعلم.

ومن هنا يرى "كون" أن النظريات العلمية تنشأ من خلال التفاعل الذي يحدث بين العناصر السيكولوجية والسوسيولوجية داخل المجتمع، فالتقدم العلمي مرتبط بالنسق الواقع والاجتماعي، ففعالية الممارسة العلمية لا تكون إلا من خلال التنقيب في تاريخ البحث العلمي لا عن اتباع المناهج الشكية، فلا يوجد منهج علمي كامل شامل يستطيع أن يفسر

[1]- Kuhn . *the structure of Scientific Revolutions* . Universitiy of Chicago press. Chicago 1962 –p-110 .

حركة تطور العلم، هذا الطرح أخذ به فييرابند وتبنيه الايستيمولوجيا الفوضوية، فكثير نت التحولات علمية حصلت دون اتباع منهج معين[1].

وكذلك يعيب "فييرابند" على كون فكره البراديغم التي قدمها لا تخلو من السلطوية، يعني سلطة المجتمع العلمي الذي يفرض نموذجا إرشاديا محددا يوصف بأنه موضوعي علمي، في حين أن ما يقدمه النموذج هو محاولة من بين المحاولات المتعددة، ولا يكتسب صفة التميز العلمي التي تمكنه من اقصاء المحاولات الأخرى أو ما يسمى بالنموذج القديم بحجة عدم قدرته على حل المعضلات[2].

إن المنهجية التي قدمها "كون" لا تخضع لحتمية تاريخية ضرورية تجعل مسيرة العلم داخل قوالب حديدية صلبة، تكون سببا في عرقلة الحركة التطورية للعلم، وتقف عائقا أمام الإبداع الفردي بحكم عدم انتمائه للمجتمع العلمي، حيث يضع النموذج الإرشادي في العلم السوي آليات ومعايير تفرضها الجماعة العلمية على كل النشاطات العلمية المقترحة[3]، لذلك يعيب ويرفض فييرابند تعددية "توماس كون" للنماذج الإرشادية التي سرعان ما تتوحد على الإجماع والاستقطاب باتجاه قبول نموذج إرشادي واحد، هو الأجدر لقيادة المشروع

---

[1]– بمعنى: أن المجتمع له دور كبير في النشأة العلمية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال فصل المجتمع عن العلم أو فصل العلم عن المجتمع، بل الكثير من المسائل العلمية خلفيتها نفسية واجتماعية وميتافيزيقية ودينية، ففصل العلم عن المجتمع كفصل السمكة عن الماء، ولا يمكن حينها دراسة حركة السمكة وهي في الهواء أو الأرض زليست في الماء، فكذلك العلم يُعرف تاريخه من خلال الدراسات الاجتماعية والنفسية والدينية للإنسان.

[2]– النموذج القديم نحافظ عليه كما هو، والنموذج الجديد أيضا نحافظ عليه كما هو، وحين نستعمل الجديد لا يلزم منه تحطيم وهدم القديم، بمعنى، الطب الغربي المعاصر لا يلزم منه تحطيم الطب الشرقي القديم القائم على الأعشاب ونحو ذلك، فبما أن الطب الشرقي لا يزال يحقق الشفاء فلا مشكلة معه، فكل طب يحقق الشفاء يمكن للإنسان إستعماله، لأن غاية الإنسان التشافي من الأمراض، وكذلك العلوم الأخرى.

[3]– هواري شاذلي: فلسفة اللامعقول عند فييرابند، دراسة تحليلية نقدية أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، علوم في الفلسفة – جامعة وهران 2– كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة 2017، ص 154.

العلمي والتحكم في مجريات البحث العلمي حالة القياسية المقبلة، بينما التعددية التي يشيدها فييرابند هي ذات فوضوية، لا تسلطية لا نؤمن بمنح سلطة مركزية ذات توجه فكري واحد أو نظرية واحد، وأن التسلط الذي يفرضه كون لنموذجه الارشادي لا يتماشى مع روح الحرية التعددية[1].

لقد قدم فييرابند نقدا لتوماس كون في دراسة له بعنوان: "عزاء للمتخصص" Consolations for Specialist، أولا يجب أن نلاحظ أن فييرابند وكون قد ناقشا آرائهما، بينما الاثنان في جامعة كاليفورنيا وبركلي، وقد قال فييرابند إنه يدرك المشكلات التي تهم كون، ولا سيما مسألة انتشار الشذوذ The Omnipresence of Anomalies، وأنه غير قادر على أن يتفق تماما مع نظرية كون في العلم، التي اقرحها بنفسه، وإنني أسميها (ايديولوجية)، تلك الايديولوجية، التي تبدو لنا يمكن أن تعطي الراحة فقط للكثير من أولئك ضيقي الأفق والأكثر غرورا من المتخصصين، وأنها تميل إلى عرقلة العلم، وتهدف إلى زيادة النزعات اللاإنسانية التي تثير القلق للكثير من العلوم الما بعد نيوتنية[2].

فنموذج كون للتقدم، به العديد من الصعوبات النظرية والتجريبية، فضلا عن الغموض والالتباس والتناقضات الذاتية في استخدام هذه الفكرة، كما أكد فييرابند على أن فكرة النموذج الارشادي القياسي تعد غير صالحة من الناحية التاريخية، فكل فترة بارزة في تاريخ العلم تتميز بتعايش العديد من النماذج الارشادية، لهذا انتقد فييرابند توماس كون في قوله بالمجتمع العلمي الذي يديره جماعة الباحثين التي تتمسك بقالب نظامي، ونماذج مثالية يتم في اطارها اكتساب المعرفة[3].

---

[1]-المرجع نفسه: ص 155 .

[2]- Kuhn . *the structure of Scientific Revolutions* . .p 132.

[3]- خالد قطب: العقلانية العلمية، دراسة نقدية، سلسلة كراسات علمية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط، 2005، ص 84-85.

ومن جهة اخرى، أخفق توماس كون في حل مشكلة العلاقة بين النموذج الارشادي القياسي والنظريات المساعدة، فهل النموذج الارشاد القياسي في حاجة إلى نظريات مساعدة أم لا؟ وهل هذه النظريات تعمل على تبرير النموذج وتقدمه أم العكس هو الصحيح؟ لا توجد اجابة شافية عن هذا السؤال في عقلانية "توماس كون" العلمية، ولهذا كانت العقلانية العلمية المؤسساتية ذات بنية جامدة، تلك البنية تعوق العلم عن التطور والتقدم، علاوة على ذلك فإن توماس كون استثنى النقد من لب الافتراضات التي وضعها لعقلانيته، فلم يستطع أن يبين لنا العلاقة الأساسية بين النماذج الارشادية القياسية الجامدة والوقائع التاريخية[1].

ويتفق كون مع فييرابند في أن فلسفته كانت بمثابة رد فعل لتيار أساسي في فلسفة العلم من النصف الأول من القرن العشرين، وهو الوضعية المنطقية، فلم يطرح هذا التيار قضية التقدم العلمي كإشكالية أساسية يمكن من خلالها فهم طبيعة المعرفة العلمية، كما أن تصوره لمفهوم التقدم كان مثار اعتراضات عديدة[2].

وكذلك فإن كون قد وضع شروطا معينة للمجتمع العلمي واعضائه على العكس من فييرابند الذي وسع مظلمة المجتمع العلمي لتشمل جميع فئات الناس، وشن حملة شعواء على منظومة التعليم الغربي والقائمين عليه، في الوقت الذي جعل كون لأعضاء المجتمع العلمي سلطة يحتكم لها، وأيد المحافظة على نظام التعليم السائد لكونه أهم مخزون معروفي للعلم السائد في فترة زمنية معينة[3].

---

[1]- المرجع نفسه، ص 85-86.

[2]- مصطفى عبد العاطي: مفهوم التقدم بين توماس كون وباول فييرابند، مرجع سابق ص 262.

[3]-مصطفى عبد العاطي: مفهوم التقدم بين توماس كون وباول فييرابند، مرجع سابق،ص 266.

ملخص القول أن فييرابند يجزم قطعيا على أن فكرة النموذج الارشادي عند كون مرفوضة لأنه يحصر النشاط العلمي في اطار نموذج واحد مما يحد من حرية الباحث ويعرقل الحركة التطورية للعلم، لذلك رفض فييرابند تعددية كون للنماذج الارشادية التي سرعان ما تتوحد على الانصياغ والاستقطاب باتجاه قبول نموذج ارشادي واحد[1]، وترك الحرية العقلية للبحث الذي يفرض منهجه من خلال البحث نفسه.

3. علاقة فييرابند بلاكاتوس:

إن الدارس لكتابات "لاكاتوس" يجدها تشير بوضوح إلى أن المشكلة المركزية في فلسفة العلوم هي مشكلة إقامة الشروط الكلية الشمولية، التي تحدد أن نظرية ما هي نظرية علمية، وهي مشكلة تتصل من قريب أو بعيد بمشكلة معقولية العلم، التي ينبغي أن يقودنا حلها، وتسير بنا في طريق يوصلنا إلى أن نقبل أو نرفض كون نظرية ما هي نظرية علمية، والسمة التي تميزه عن النزعة النسبية في معيار البحث العلمي، كونه يمثل موقفا قريبا من العقلانية، حيث يوجه نقده للنزعة النسبية التي تؤكد ان المعيار الأسمى هو معيار الجماعة العلمية المعنية بالبحث العلمي، وهو موقف يجردنا من سلاح النقد، الذي يمكن أن نوجهه لهذا المعيار المعيار الشمولي: الذي قال به لاكاتوس لتقويم النظرية الصادر عن مبدئه المتمثل في ميتولوجيا برامج البحث العلمي، وأنها الأنسب من أي ميتولوجيا أخرى[2]، فالعلم يتقدم بفضل السباق بين برامج البحث العلمي، ويكون برنامج علمي ما أفضل من آخر منافس، هذا فيما إذا كان يكتسي طابعا نقديا أكثر، وهذا يتوقف على تماسكه، وعلى عدد التنبؤات

---

[1]- هواري شاذلي: فلسفة اللامعقول عند فييرابند، مرجع سابق، ص 155 .

[2]- بول فييرانبد: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ترجمة: مركز دلائل، مراجعة وتعليقق: عبد الله الشهري، مركز دلائل، ط1، الرياض-السعودية، 1996، ص: 20.

التي يقود اليها، فالعلم غايته وهدفه هو الحقيقة، فلاكاتوس أقر أن ميتولوجيا البحث العلمي تمدنا بأفضل وسيلة للبلوغ إلى الحقائق والتقرب إليها، فهذا المعيار في نظره تخمينا، يمكن اخضاعه للتجربة الحسية.

لقد خاض فييرابند معركة ضد الميثودولوجيات، التي طرحها العديد من الفلاسفة الذين قبله، ووجه لهم نقدا على مستوى المنهج، حيث اعتبره مثل الأب له كونه ساهم في بناء نظريته الفوضوية.

"إن دعوى فييرابند ضد المنهج تدخل معركة ضد المثودلوجيات المفروض فيها أنها تقدم قواعد العمل أو السلوك للمنشغلين بالعلم، وعلى هذا يجد فييرابند في لاكاتوس أبا آخر، مشاركا له في الفوضوية، لأن ميثودولوجيا لاكاتوس لا تعطي قواعد للاختبار لصالح نظرية أو برنامج ما، لأنها ميتودولوجيا برامج ومعايير تساعد المشتغل بالعلم على تقييم الحالة التاريخية التي تحدد ضمنها قرارته، ولكنها لا تتضمن أي قواعد"[1].

إن أساس العلاقة بين فييرابند و"لاكاتوس" مختلفة عن العلاقة السابقة بـ"بوبر"، بل كانت اعجابا، و"أن قوة هذه العلاقة ليست منحصرة في المستوى الشخصي، بل تعدت ذلك في مستواها الفلسفي، وعلى الخصوص الجانب الايستيمولوجي أساسا، فقد انفرد لا كتوش بفييرابند في مناسبة احتفائية عام 1972 وتوجه إليه مخاطبا إياه " إنك، أي "بول "

[1]– عادل عوض: الايستيمولوجيا بين نسبية فييرابند وموضوعية سالمرز، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ص 172.

لديك أفكار مدهشة، لماذا لا تسجلها وأكتب أنا ردا عليها، وننشر هذا وذاك في عمل واحد، وأعدك بأنه سيكون مبعث سرور لكلينا"[1].

وهذا التقارب بين الفيلسوفين كان في صياغة فييرابند طريقة البحث والذي تشكل في جزئه الأول من كتابه حول العقلانية، حيث كان دور فييرابند هو مهاجمة الموقف العقلاني[2]، ونقده على مستوى المنهج، ودور لاكاتوس هو اعادة تشكيله، أو اعادة صياغته والدفاع عنه، هذه المناظرة بين الفيلسوفين هي عبارة عن نقد حاد، يفضي إلى اسهامات فلسفية جديدة، ويساعد على تقدم العلوم وازدهارها، وظهر ذلك في كتاب الفوضوية، ومدى تأثير لاكاتوس في فييرابند، والذي اتسم بالتأثر القوي والعظيم. وقد ظهرت هذه المناظرات بينهما عن طريق أسلوب المقال، ومحاضرات ومهاتفات، ورسائل حول موضوعات فلسفية.

إن فييرابند يعتبر لاكاتوس شريكا له في كتابه (الفوضوية) لكن فيه نوع من النقد له حيث يعتبر فوضوية لاكاتوس حسب قراءته متحفظة ومضمرة، في حين يعلن هو فوضويته بلا تعتيم، ولا تتسم بالتحفظ، بل فاقت كل الحدود بتحطيمها القيود، والحدود، والحواجز التي كانت مفروضة، وذلك بقوله عنها: "إن هذه الدراسة كتبت مع قناعة بأن الفوضوية قد

---

[1]- السيد نفادي: اتجاهات حديثة جديدة في فلسفة العلم في عالم الفكر، المجلس الخامس والعشرون، العدد 2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر-ديسمبر 1996، ص 109.

[2]- أي نقد العقلانية الغربية وليس العقلانية الإنسانية. ذلك أن العقلانية الغربية حاولت السيطرة على المفاهيم العلمية، بأنها فقط تلك التي هي غربية، اما غير ذلك من المعارف الشرقية فليست علمية وبالتالي ليست عقلية بل روحية ميتافيزيقية ساذجة تشكلت من فكر جماعي لا علاقة له بالعلم والتجربة، وهذا يكذبه التاريخ الذي ينقل لنا هندسة فرعونية وعلوم كون من بلاد الرافدين جد متطورة، فهل نرفض الحسي الذي أمام أعيننا ونصدق الغرب المتحيز لنفسه؟ هذا لا يقرّه العلم أبدا.

لا تمثل ربما الفلسفة السياسية الأكثر جاذبية، لكنها بالتأكيد هي علاج ممتاز للإبستيمولوجيا[1]، ولفلسفة العلوم"[2].

ومنه يمكن القول بأن العلاقة الفكرية بين فييرابند ولاكاتوس تكمن في النظرة الفلسفية في المنهج بحيث أن أسلوب فييرابند أشد وأعقد تجريدية من اسلوب لاكاتوس، حيث إذا نظرنا إلى المضمون الفكري والمعرفي لمنهج فييرابند المفرط، والمدافع عن اللاقياسية بحماس، واضعا اللامعقول والمعقول جنبا إلى جنب بالإضافة الى ذلك نجده المدافع عن اللاقياسية واللاعقلانية، وجاعلا منها القاعدة الاساسية في نشأة المعارف العلمية وتقدمها، وإعطائها دورا في تأسيسها، حيث يقول: "إننا نصل إلى الخلاصة التي تفيد بأن فصل العلم عن اللاعلم، ليست فقط عملية مصطنعة، لكنها كذلك مضرة بتقدم المعرفة إذا أردنا فهم الطبيعة، إذا أردنا التحكم في محيطنا الفيزيائي، فعلينا أن نفيد من كل الأفكار، من كل المناهج، وليس فقط بانتخاب بعضها أو إحداها"[3]، من الجانب الآخر يرى لاكاتوس الذي تبنى المنهج العقلاني السابق عنه، حيث لم يستطع أن يهدم هذا المنهج الكلاسيكي كما فعل زميله فييرابند وعدم التضحية به، الرافض للاقياسية، فهو من المدافعين –لاكاتوس– عن العقلانية، والمميز لها عن غيرها من صور والوان التلوث الفكري، وهذا ما ظهر في كتابه برامج البحث العلمي، بفضل المقاربة بين افكارها وآرائها والأخذ بها، بقولها الأكثر قوة ومنطقية، والذي يساعد على التقدم العلمي، ولو على وجه نسبي لا غير، كونها لا توجد مطلقية محضة خالصة، هذه العلاقة الفكرية التي يراها فييرابند في شريكه لا كتوش المتمثلة في إقراره بالتعددية وامتدادها

---

[1]– هو يشير هنا، إلى أنّ الفوضوية كمنهجية لا تثير الفلسفة الشعبية أو سياسة الفلسفة العامة التي يريدها معظم دارسي الفلسفة، من باب التقليد والشهرة، ولكنها فلسفة علمية تصحح مسار فلسفة العلم.

[2]– بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ترجمة السيد نفادي، مراجعة: سمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص 21.

[3]- Feyerbend, *Contre la méthode*, p -346.

لها، إلا أنه ظل حريصا على معايير معقولية، ومشددا على ضرورة توخيها، والتي كان يسمح بوجود وسائل لا عقلانية تساعد على برامج للبحث العلمي.

بالإضافة إلى ذلك نرى أن هناك اختلافا بين الفيلسوفين في أطراف المساهمة في النقد المعرفي، حيث نجد لاكاتوس يرى أن المعرفة مقصورة بصورة خالصة فقط على الصفوة من المجتمع المتمثلة في النخبة من العلماء، أما زميله فييرابند فيرى أن جميع الأطراف من طبقات المجتمع لهم دور في الانتاج المعرفي بأشكاله حيث يقول: "خبراء وجهال احترافيون وهواة، متعصبون للحقيقة وأفاكون، الكل مدعوون لكي يشاركوا في النقاش وتقديم اسهاماتهم قصد إثراء ثقافتنا"[1]. فالمعرفة إنتاج مجتمعي وليست إنتاجا للعماء وفقط، بل العلماء أنفسهم في صغرهم لديهم ثقافة مجتمعية كنسخة عن مجتمعاتهم، وهذه الثقافة التي حفظوها في صغرهم تصبح مقولات قبلية قبل أي تجربة، ولا شك أنها تؤثر على نفسية ذلك العلم، وبالتالي تؤثر في بحوثه العلمية من باب أن الإنسان لا يمكنه أن يكون موضوعيا في كل شيء، بل لابد من حضور الذاتية في كثير من مسائل العلم، وهذه الذاتية غالبها موروث إجتماعي.

– وهكذا نفهم بأنّ علاقة "فييرابند" بغيره ممن ذكرنا من العلماء والفلاسفة من امثال " كارل بوبر، توماس كون، وإيمري لاكاتوس"، كانت ذات أهمية بالغة في تكوين "فييرابند" العلمي، فقد اتفق مع "كون" في الحاجة إلى تجاوز التراكمية، ورفض مفهوم "النموذج"، وأكد على حرية البحث، وتعاون مع "لاكاتوس" في نقد المناهج العلمية التقليدية، واعتبر

[1]- Ibid, p -28.

في الوقت نفسه بأن "فوضوية" هذا الأخير متحفضة، بينما أعلن عن فوضوية جديدة بلا تحفظ، مع التركيز على أهمية التنوع المنهجي في الأفكار والبحث العلمي.

المبحث الرابع: نقد فييرابند لفلسفة العلم التقليدية:

بدأ "فييرابند" حديثه عن المعرفة العلمية من خلال كتاباته الأولى في أوراق فلسفية Philosophical Papers، وبالأخص المجلد الأول والمجلد الثاني بعرض أهم محاور فلسفته، حيث يرى أن هناك ثلاث أفكار أدت دورا مهما في تاريخ العلوم والفلسفة، ألا وهي:

المذهب النقدي Criticism[1]،

ومبدأ وفرة النظريات Proliferation[2]،

والواقعية Reality[3]،

الفكرة الأولى، أي المذهب النقدي وهي فكرة وجدت في أغلب الحضارات. قد تؤدي دورا مهما في الفلسفات مثل البوذية Buddhism، والتصوف Mysticism، فهي حجر

---

[1]- والذي يبدأ من سقراط الذي يوصف بأنه أول من أنزل الفلسفة من السماء الة الأرض، والذي نقد المذاهب الفلسفية السائدة وخاصة منها السفسطائية، وتطور هذا النقد وصولا إلى كانط في نقده للمذهب العقلاني في كتابه "نقد العقل النظري"، ونقده للمذهب التجريبي في كتابه "نقد العقل العملي"، ونقده للميتافيزيقا في كتابه "نقد ملكة الحكم" وفيه شطر الفلسفة إلى ما قبل وما بعد. ومن هنا كانت التسمية لفكره بالمذهب النقدي، ثم تطور النقد إلى نقد أدبي ونقد تاريخي ونقد فني وهكذا.

[2]- فكرة وفرة النظريات قائمة على قبول فكرة تعدد النظريات حتى ولو كانت النظريات المتاحة في نظر العلم صحيحة وتقوم بواجبها، إلا أنّ فلسفة وفرة النظريات وتعددها يسمح للعقل بالتفكير بشكل أوسع، وبناء للمعرفة بشكل أدق، ضد المنهج الغربي القائم على واحدية المنهج والثقافة والاقصاء للعلوم الشرقية ومناهجها.

[3]- القائم على المادية، والذي لا يؤمن إلا بما في الواقع المتاح، ويرفض الميتافيزيقا من أساسها، ويعتمد المنهج التجريبي أساس البحث والعلم والكشف. والذي ينطلق من حيث التأسيس من فكر أرسطو الذي رفض عالم المثل وانطلق من الوقائع لتبرير الأحداث والأفكار المنطقية ومن هنا جاء نظمه للمنطق.

الزاوية لآواخر القرن التاسع عشر للعلم وفلسفة العلم، وهي تنطبق على المسرح عند "ديدرو" Diderot، و"بريخت" Brecht. فالنقد يعني أننا لا نقبل ببساطة الظواهر Phenomena، والعمليات Processes، والمؤسسات Institutions التي تحيط بنا، لكن نحن نختبرها، ونحاول أن نغيرها[1]. وسوف نتناول هنا أوجه النقد التي وجهها فييرابند وسوكال لفلاسفة العلم المعاصرين حول طبيعة المعرفة العلمية، والطريقة التي يتطور بها العلم.

1. نقد بولفييرابند للعقلانية النقدية عند كارل بوير:

لقد أولت العقلانية النقدية أو ما عرف بمنطق الكشف العلمي اهتماما بالغا للنقد وذلك من خلال فكرة التفتح على كل الاقتراحات الممكنة لحل المشكلات العلمية، حيث قال بوير " نحن بحاجة للآخرين لوضع أفكارنا موضع اختبار ليكشف أيما من أفكارنا هي الصحيحة[2]، فقد كان لهذا الاهتمام تبعيات نقدية لاذعة وكان أكثرهم جرأة وشجاعة تلميذه فييرابند على الرغم من إعجابه وتأثره بفلسفته في المرحلة الأولى من تطوره الفكري، فتذمر فييرابند يكمن في أن أفكار العقل والعقلانية غامضة ولا يمكن شرحها[3].

ويقول "لاتمتلك العقلانية أي محتوى ولا يبرر أي أجندة يمكن التعرف عليها فوق مبادئ الحزب التي صدف ان اسمها قد تم الاستلاء عليه، وكل ماتفعله الآن هو إقناع الطبقة بالدافع العام نحو الرتابة لقد كان الوقت لفك ارتباط العقل بهذا الدافع كما تم اختراقه بشكل كامل من خلال التداعي بتوديعه بوداعا[4].

---

[1]- P.K Feyerabend : *Realism, Rationalism and Scientific Method*, Philosophical Papers, Volume (1), Cambridge, Cambridge University Press, 1981, p4.

[2]- لخضر مذبوح، فلسفة كارل بوبر، دار الالمعية للنشر والتوزيع الجزائر، 2011، ص 17.

[3]- بول فييرابند: وداعا للعقل، ص 10.

[4]- نفسه: ص 13.

ومن هنا ينتقد فييرابند عقلانية بوبر من خلال محورين أساسيين:

الأول: نقد نظرية المعرفة العلمية البوبرية، وخاصة المعرفة الموضوعية.

الثاني: نقد معيار القابلية للتكذيب بوصفه الركيزة الأساسية التي ترتكز عليها العقلانية العلمية البوبرية[1].

ومن هنا يذهب بول فييرابند الى أن العقلانية النقدية البوبرية عبارة عن تقليد استقاه بوبر من الفلاسفة السابقين على سقراط وخاصة إكسينوفان (560 –478 ق.م) حيث تبغي هذه العقلانية إدراك العالم من أجل السيطرة على الطبيعة والآخرين، وهي عقلانية (تعددية) بمعنى تعددية الحجج التي تقف ضد بعضها البعض، وتقارن بالمصدر الثابت للمعرفة، كما تفضل الديمقراطي كصورة للمجتمع المفتوح.

ومن ناحية أخرى، نجد أن بول فييرابند يعيب على بوبر قوله بالمعرفة الموضوعية التي هي أساس وجوهر العقلانية النقدية البوبرية، فقد ذهب بوبر الى القول بأن المعرفة، على الرغم من أنها نتاج الانسان، زرغم التغيرات التي يدخلها عليها الانسان، تظل كوضوعية ومستقلة عنه، ومن هنا يقع بوبر في تناقض، فالمعرفة إذا كانت من نتاج العقل الإنساني، فإنها لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن تستقل عن معتقداتنا وتوقعاتنا وفروضنا المسبقة، لأن هذه المعتقدات والتوقعات تؤثر بشكل عام، في خبراتنا وتصوراتنا عن الواقع[2].

ينتهي فييرابند كاشفا عيوب بوبر متهما فلسفته بالدوغماتية وأن منهجه تسوده السذاجة على اعتبار أن الكثير من النظريات لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها ويستند لتاريخ العلم

---

[1]– خالد قطب: العقلانية العلمية دراسة نقدية، سلسلة كراسات علمية، المكتبة الأكاديمية القاهرة، ط، 2005، ص 78.

[2]– نفسه: ص 78–79.

ليؤكد عدم جدوى التفنيد البوبري وذلك من خلال أن النظريات العلمية لا تتطور ولا تتقدم عن طريق التكذيب، فالتكذيب الصارم يقضي على العلم ولا يسمح له بالانطلاق.[1]

إن النظريات العلمية ليست هي الوحيدة التي تستنفذ كامل عمرها تلاطم أمواجا متناثرة في بحر يجمع التناقضات Sea of anomalies قال به لاكاتوس، حيث تنشأ في مواجهة النظرية عديد من حالات عدم الاتفاق بين التنبؤ النظري وما تكشف عنه التجربة بل يوجد أيضا مايسميه فييرابند حالات قبل نوعية qualitative failures، وفي كلتا الحالتين على العلماء التعلم من أخطائهم، وإدراك ان التقدم ينشأ نتيجة لتجاهل هذه الحالات الفاضحة من عدم الاتساق والتسليم بكل نظرية[2].

لقد تبين موقف فييرابند الناقد للعقلانية النقدية واصفا إياها بأنها مجرد تخمينات وشكوك وهمية، وأن ما قدمه بوبر من معايير تخلوا من أي قيمة أو فائدة تنفع العلم، فالتكذيبية البوبرية مظللة وخادعة ومتناقضة في ذاتها حتى مع تاريخ العلم ذاته ويقول في هذا الصدد "لا يمكن لمنهج التخمين والتفنيد أن يتغلب على الصعوبات التي تواجه المذهب الاستقرائي، فليست ثمة منهج واحد يصلح في جمع الاحوال"[3].

ونجد أن "هنري برستون"(Henri Bergson ، 1859–1941) قد أثار إيستمولوجيا الفكرة. على اعتبار أن فييرابند يرفض التمييز بين البديهي A Priori والتجريبي Empirical في مرحلة مبكرة. هو رأى أن دور الفلسفة ليس توضيح المفاهيم، لكن مساعدة العلم وتقدم الإنسانية. ومع ذلك، الفكرة المحورية حول فييرابند حتى أواخر 1960 هو أن بوبري

---

[1]- بول فييرابند: ضد المنهج، ترجمة ماهر عبد القادر مُحَمَّد، الإسكندرية، 2005، ص 264.

[2]- مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم: رؤى معاصرة في فلسفة العلوم، ص 253-254.

[3]- مُحَمَّد أحمد السيد، التمييز بين العلم واللاعلم، منشأة المعارف ، الإسكندرية، 1996، ص 123.

النزعة Popperian، وهو أحد الشكاك الاستقرائيين، وهو مدافع عن الإبستمولوجيا المعيارية. فييرابند يعتقد انه على الرغم من المشكلات العديدة للوضعية والاستقرائية، فنحن لا نتمسك بها. ولكن إذا فعلنا ذلك فإننا سوف نتمسك بالإبستمولوجيا التي تكون معادية للإبداع والنقاش الحر. مشكلة الاستقراء لا يمكن أن تحل أبدا بل إنه يجب أن تبقى بلا حل[1].

ولعل في الفكرة التي يعول عليها "فييرابند" هنا هي أن المعرفة العلمية تتخذ من الاعتقاد المسبق، أو الفروض المسبقة أساسا تنطلق من النظرية، وهذا يؤدي إلى نتيجتين:

الأولى: استحالة الوصول معرفة موضوعية عن العالم الطبيعي المادي، وذلك لأن معرفتنا باعالم الخارجي تأتي نتيجة تداخل الذات الإنسانية بقدرتها العقلية وفروضها المسبقة، وقياسها وآلاتها.

الثانية: أن معرفتنا عبارة عن تركيب عقلي تؤدي فيه الذات دورا أساسيا وفعالا، وليست معرفتنا، كما يدعي بوبر مطابقة موضوعية للواقع.[2]

يقرر "فييرابند" أن التأكيد على القابلية للتكذيب يعد رؤية واحدة من كثير من الرؤى في لعبة العلم. وينتقد فييرابند مقولة بوبر في أن معياره يمثل دورا رائدا في العلم فيقول: "إن معرفتنا بهذا الدور الرائد يتطلب معرفة نسبة تلك التغييرات النظرية الثورية التي مثل فيها التنفيذ دوره، إلى جملة التعبيرات النظرية الثورية التي يعمر بها تاريخ العلم. وإذا كانت الشواهد التي يذكرها بوبر كثيرة لصالح معياره فإن فييرابند يقول إن في ذلك تشويها للواقع ويركز نقده فيما يتعلق بشواهد بوبر على النقاط الثلاثة التالية:

---

[1]- George Couvalis : Conceptual Analysis : The significance of Feyerabend's philosophy of science, Oxford, USA, BlackWell Publisher, 1999, P 207

[2]- خالد قطب: العقلانية العلمية، ص 79.

أولا: ليست كل الشواهد التي يسودها بوبر بدليل على التنفيد [1].

ثانيا: إن قائمة بوبر التي يبرز فيها الحالات التي تبدو تتبع منهج التفنيد، هي غالبا حوادث معقدة، يكون دور التفنيد فيها ضئيلا [2].

ثالثا: إن الأمر غالبا مايستغرق وقتا طويلا لقبول التكذيب، ويحدث هدا القبول بوصفه نتيجة للتغيرات النظرية وثوراتها، والذي هو طبقا لبوبر نتيجة للتكذيب[3].

فموقف فييرابند لا يجزم بوجود نظريات محددة لسيرورة العلم، إنما يطرح فكرة أخرى مفادها تعدد النظريات ويطرح عليها اسم آخر مبدا الوفرة، وهذا المبدأ يسمح للباحث ان يختار من مجموع بدائل في ميدان العلم ومن ثم إكثار احتمال الوقوع في النظريات المناسبة، فالتكاثر يعني أن كل شخص له مطلق الحرية في أن يتبع ميوله الخاصة، وستفيد هذه الميول العلم إذا تصورناه كمشروع نقدي[4] ويعتمد في هذا الطرح على دعامة فكرة إمكانية تكذيب كثير من النظريات التي صيغت من قبل أنطلاقا من النقصان والعيوب التي تعتريها إذ ليس ثمة نظرية علمية جديدة وثورية يمكن ان تجر على الإطلاق [...] فكل نظرية هامة بصورة معتدلة يمكن تكذيبها فضلا عن أن للنظريات عيوبا صوريةن كما يحتوي العديد منها على تناقضات ولذلك فهي تحتاج إلى تعديلات

وعلى ذكر ذلك يقر فييرابند أن النظرية العلمية هي بل وينبغي أن تكون غير متسقة مع نظرية أخرى، و أن كل حد تيتخدمه النظرية يعتمد على السياق النظري المستخدم في

---

(1)- عادل عوض: الابستيمولوجيا بين نسبية فييرابند وموضوعية سالمرز، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ص 87

(2)- عادل عوض: الابستيمولوجيا بين نسبية فييرابند وموضوعية سالمرز، ص 88.

(3)- نفسه، ص 88.

(4)- عصام مُحَّد بيومي: إبستمولجيا التقدم العلمي عند توماس كون، دار النهضة العربية، القاهرة، 2006، ص 235.

هذا الحد[1]، ولا يشترط في النظرية الاتساق على خلاف العقلانيين الخرين، إن النظرية هي طريقة إلى العلم وإنها –حقيقة– وجهة نظر فلسفية، إنها ميتافيزيقية، رغم أنها ليست في حاجة إلى ان تكون محكمكة أو مصاغة صياغة جيدة فالخرافات أيضا تعد نظريات[2].

ويورد لنا فييرابند مجموعة من الأسباب التي جعلته يرفض مبدأ التكذيب عن بوبر:

السبب الأول: أن النظرية العلمية لا يتم استبدالها دائما عن طريق التكذيب، فهناك امثلة كثيرة في تاريخ العلم تدل على ذلك، فلم يكن ثمة واقعة مفندة، أو مجموعة من الوقائع تستطيع تفسير التحول من النظام البلطمى الأرسطي، كما انه لا يوجد واقعة مفندة، تستطيع التحول عن نظرية لورانتز في الالكترونات وتجربة ميكلسون التي غالبا ما يتم التنويه عن علاقتها بالحالة الأخيرة التي يتم تفسيرها عن طريق لورانتز، أي عن طريق زيادة المضمون.[3]

السبب الثاني: إن معنى الفروض يكون دائما واضحا بعد العمليات التي حذفها قد أصبح مكتملا. الغربان البيضائ تفند" كل الغربان سوداء" لكن الغراب الذي طلئ باللون الأبيض، أو وقع في كيس من الطحين، أو تم تبييضه بأبخرة صناعية، لا يحسب كغراب أبيض "على النقيض من ذلك الطيور التي إسودت من خلال عهمليات مماثلة لا تحسب مثل السوداء"[4].

السبب الثالث: يوجد العديد من الحالات التي تؤكد أن الانتقال من نظرية علمية ما إلى أخرى يتضمن تغيرا في المبادئ الكلية، وهذا يعمل على كسر الحدود المنطقية بين النظرية

---

[1]– دادلي بشير: المعنى والتغير العلمي، الثورات العلمية، ص 69.

[2]– دادلي بشير: المعنى والتغير العلمي، الثورات العلمية، ص 69.

[3]– نفسه، ص 79.

[4]- P .K Feyerabend: *Problems of Empiricism*, Philosophical Papers, Vol, 2; cambridge University , pp .22-23.

العلمية الجديدة، ومضمون سابقتهان وبالتالي لايوجد ما يبرر القول البوبري برجحان الصدق، وزيادة المضمون مالعرفي والتجريبي للنظرية العلمية عند بوبر.[1]

السبب الرابع: أن المضامين ليست دائما في ازدياد فهي تتضاءل بطريقة اتفاقية، أو يتم تكييفها بطريقة خاصة.[2]

السبب الخامس: ذلك أن التكيفات الخاصة غالبا ماتكون صحيحة ويخذ بها، فقد افترض بعض الباحثين في التاريخ المبكر للكهرباء بأن الشعر، والأوراق، والأغصان، والقش، تشتمل على كهيرب كعنصر مشترك كامن فيها، وهي الفكرة التي اعتقد بسذاجتها وليم جلبيرت في حين ان هذه الفكرة كانت خطوة في الاتجاه الصحيح، وهذا ما يشبه أيضا الملاحظات المطبقة على بعض حركات جاليلو[3].

السبب السادس: الطلب من أجل البحث عن تفنيدات وأخذها على محمل الجد، يؤدي إلى تطور منتظم فقط في العالم الذي يدحض الحالات التي تكون نادرة، وتحضر على غترات كبيرة مثل الزلازل الكبيرة. في مثل هذا العام يمكننا أن نبني ونطور ونعيش بسلام مع نظرياتنا من التفنيد الواحد االى التالي. لكن كل ذلك يكون مستحيلا إذا كانت النظريات محوطة "بمحيط من الشواذ".[4]

السبب السابع:الطلب من أجل الزيادة المستمرة أمر منطقي فقط في العالم الذي يكون كل منهما لامتناه، كما وكيفا. حيث إن العالم المتناهي يتضمن عددا متناهيا من الكميات

---

(1)-lbid, p22.
(2)- P .K Feyerabend: *Problems of Empiricism*, Philosophical Papers, Vol, 2; cambridge University, pp 22-23.
(3)- lbid, pp 22-23.
(4)- lbid, p24.

الأساسية أو " العناصر"، الهدف أولا هو إيجاد تلك العناصر، ومن ثم لكي نرى كيف أن الحقائق الجديدة، يمكن تقليصها بمساعدة الفروض الخاصة ؟[1]

السبب الثامن: زيادة المحتوى والتفسير الواقعي للأفكار التي تحضرها حولها، يمكن أن ترفض من أجل أسباب أخلاقية أو سياسية . على سبيل المثال، نحن يمكن أن نرغب في إظهار البشر بطريقة ذاتية باستخدام أو الإضافة إلى ذلك أننا ننسب العطف والقلق والشفقة وخصائص أعمق للذين ينتمون إلى هذه الروح. النظريات العامة في مجال معين إجراءتها للواقع غالبا ما تتعارض مع هذه الرغبة.[2]

2. نقد فييرابند لفكرة النموذج لدى توماس كون:

لا شك أن توماس كون ترك اثره اعميق على فكر فييرابند لا سيما في فكرة اللاقياسية، فهي اللا مقايسة تعني اللاعقلاني وقد جاء في كتابه بنية الثورات العلمية قوله "إن منشأ الاختلاف بين المدارس العلمية ليس فشل واحدا منها أو أخرى في المنهج المتبع فجميعها علمية بل منشؤه طرف اللامقايسة في رؤية العالم وفي ممارسة العلم فيه[3]. وهذا نتاج التطور العلم الثوري وهذا ما وضحه قائلا: "عندما تتغير النماذج الإرشادية يتغير العالم ذاته وانقيادا للنماذج الارشادية الجديدة، يتبنى العلماء أدواتا جديدة ويتطلعون بأبصارهم صوب إتجاهات جديدة"[4]، وحتى يتسنى لنا فهم ذلك لا بد من التعريج إلى القصد وشرح الثورات العلمية إذ تعتبر سلسلة من الاحداث التطورية غير تراكمية، وفيها يحل نموذج إرشاد جديد محل نموذج إرشادي قديم، لأن هذا الأخير عاجزا عن إيجاد حلول للمشكلات القائمة أو الحاضرة،

---

(1)- lbid, p24.

(2)-P .K Feyerabend: *Problems of Empiricism*, p24.

(3)- توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة حاج إسماعيل، مراجعة محمد ديس، دار النشر المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ص 33.

(4)- نفسه: ص 150.

فتاريخ العلم يؤكد أن الكثير من المعارف العلمية السابقة تتناقض مع المعارف العلمية الجديدة، سواء تعلق الأمر بالفلك أو الفيزياء أو الرياضيات،... الخ[1].

وبفضل هذه النظريات وغيرها تم تجاوز أو تهديم التصور التقليدي للعلوم المبني على الثبات المطلق للمعارف العلمية، ونصح كون العلماء أن ينفضوا بين حين وأخر رداء المثالية الذي يضفيه سيادة نموذج علمي في عصره، لأن هذا الخضوع غير مبرر بالمرة وبخاصة إذا طل مداه الزمني، رغم أنه الإطار الفكري الذي يسترشد به مجتمع العلماء[2].

وتتضح قيمة الثورة العلمية عندما تزداد تراكم معرفة المعرفة العلمية على نحو بعينه دون آخر هنا تنشأ أهمية التعبير حيث تحقق الثورة قفزة فكرية تحدد مناهج وأساليب وأدوات البحث كما تحقق عائدا معرفيا يسد ثغرات إبستمولوجيا ظهرت بوادرها واضحة مع الإحساس بأزمة ثقة في النموذج الذي كان سائدا[3].

جاء نقد فييرابند لتوماس كون في دراسة له بعنوان: "عزاء للمتخصص"، أولا يجب أن نلاحظ أن فييرابند وكون قد ناقشا آراءهما، بينما كان الاثنان في جامعة كاليفورينيا وبركلي، وقد قال فييرابند إنه يدرك المشكلات التي تهم كزن ولا يما مسألة انتشار الشذوذ، وأنه غير قادر على أن يتفق تماما مع نظرية كون في العلم، التي اقترحها بنفسه، وإنني أسميها (إيديولوجية). تلك الأيديولوجية التي تبدو لنا يمكن أن تعطي الراحة فقط للكثير من أولئك ضيقي الأفق والأكثر غرورا من المتخصصين. وأنها تميل إلى عرقلة العلم، وتهدف إلى زيادة النزعات اللاإنسانية التي تثير القلق للكثير من العلوم الما بعد نيوتنية[4].

---

[1]- مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم: رؤى معاصرة في فلسفة العلوم، ص 239.

[2]- مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم: رؤى معاصرة في فلسفة العلوم، ص 239.

[3]- نفسه، ص 240.

[4]- P .K Feyerabend : *Problems of Empiricism*, Philosophical Papers, p .132.

فنموذج كون للتقدم، به العديد من الصعوبات النظرية والتجريبية، فضلا عن الغموض والالتباس والتناقضات الذاتية في استخدام هذه الفكرة، كما أكد فييرابند على أن فكرة النموذج الإرشادي القياسي، تعد غير صالحة من الناحية التاريخية، فكل فترة بارزة في تاريخ العلم، تتميز بتعايش العديد من النماذج الإرشادية، لهذا انتقد فييرابند توماس كون في قوله بالمجتمع العلمي الذي يديره جماعة الباحثين التي تتمسك بقالب نظامي، ونماذج مثالية يتم في إطارها اكتساب المعرفة.[1]

يرى توماس كون أن النموذج المثالي هو بمثابة قالب لقواعد البحث الصارمة ويحوي هذا القالب مجموعة قواعد وعناصر للبحث يضمنها مبحث معرفي واحد، ويلتزم بها مجموعة الباحثين من أهل الاختصاص وتتمثل عناصر القالب في ما يلي[2]:

أ. **التعليمات الرمزية:** وهي مجموعة التغيرات التي تجمع عليها أعضاء فريق البحث نقطة إنطلاق لإمكاناتهم التقنية في إطار منطقي ورياضياتي بصدد حل الالغاز نعبر عنها برموز مثل (ق = ك ح)، (ت =ق /م) أو بكلمات مثل: "تتحدد العناصر وفقا لنسب ثابتة في الوزن أو الفعل مساو لرد الفعل".

ب. **الأبعاد الميتافيزيقية:** وتعبر عن التزام جماعة البحث بمعتقدات معينة تزودها بقياس تمثيلي أو تشبيه مجازي سائغ أو مفضل على سواه مثل: الحرارة في الطاقة المولدة للحركة "الكينيتية في الأجزاء المكونة للأجسام تسلك جزيئات الغاز مثل كرات البلياردو تتحرك بعشوائية".

---

[1]- خالد قطب: العقلانية العلمية، المرجع سابق، ص ص 84-85

[2]- مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم: رؤى معاصرة في فلسفة العلوم، ص 241-242.

ج. **القيم المشتركة:** وهي مجموعة أحكام التقويم التي يجمع أغلبها أعضاء جماعة البحث بصدد الحكم بكمال نظرية أو الاختيار بين منهجين متضاربين لممارسة منهجهم العلمي أو في الاختيار بين نظرتين متنافيتين ومن هذه القيم دقة التنبؤ في النظرية محل الحكم، والقياس الكلي، وحسن صياغة المشكلة ووضع الحل المقدم، بالإضافة إلى الاتساق بالداخلي والتجانس مع بقية النظريات وأن يقبها العقل.

3. نقد فييرابند لبرامج البحث لدى لاكاتوس:

يعد لاكاتوس (1922–1974)، من ابرز فلاسفة العلم في القرن العشرين وواحد من أكثر المدافعين عن عقلانية العلم ومنطقيته في مقابل التصورات والرؤى النسبانية والفوضية التي عرفتها فلسفة العلم داخل السياق العالم في تطور المعرفة العلمية، فقد تتلمذ على يد أستاذه كارل بوير ومن الذين تأثروا بأفكاره، ويقر بمديونيته المعرفية لأستاذه حيث يقول: "لقد غير بوير حياتي أنه أمدني بمجال خصب من المشاكل مع برنامج بحث صحيح، وبالطبع فإن العمل على برنامج بحث إن هو إلا عمل نقدي، ولا غرابة أن عملي بالمشاكل التي قدمها بوير قد انتهى بي إلى حلول معارضة لتلك الحلول الخاصة"[1].

وقد أخذ لاكاتوس عن توماس كون فكره النموذج والتي تقابل برامج البحث عنده على الرغم من أنه يعارض بشدة تفسير كون لتطور العلم في ضوء علم النفس الاجتماعي والذي يعده تفسيرا لا عقلانيا.

وعلى هذا يعتبر لاكاتوس حلقة وصل بين كارل بوير وتوماس كون فقد اقترح معيارا عقلانيا جديدا لتفسير تطور العلم ويكمن هذا المعيار في منهج برامج البحث، فبدلا من النظريات كما قال بوبر، أو النماذج القياسية كما نجده عند كون، يقدم ما أطلق عليه

---

[1]– سهام النويهي: تطور المعرفة العلمية، مقال في فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة، 1988، ص 119.

برامج البحث العلمي وعلى هذا الأساس تعتبر عقلانية لاكاتوس عقلانية ميتودولوجية باعتبار أن ميتودولوجية برامج البحث هي محور فلسفته.

هذا ما جعل فييرابند يولي أهمية بالغة لفلسفة إمري لاكاتوس فهو يقر بإيجابيتها ومدى تأثره بها فيقول: "ينتقد لاكاتوس المناهج الموجودة ويصل إلى نتيجة تتطابق تقريبا مع نتيجتي، وهو أحد المفكرين القليلين الذين لاحظوا الهوة الشاسعة الموجودة بين الصور المتعددة للعلم والشئ الحقيقي، وأدرك كذلك أن محاولة إصلاح العلوم عن طريق تقريبها إلى الصورة سوف تفسدها أو حتى تحطمها، وأنا أتفق تماما مع هذه النتيجة"[1].

لكن هذا الاتفاق سرعان ماواجهه فييرابند بالنقد والتمحيص، حيث يرفض كل محاولة إيستمولوجية وكل ميتودولوجيا تسعى إلى بناء نظرية تستهدف عقلنة الممارسة العلمية، فالعلم في نظر فييرابند لا يمكن أن ينتقد بالطرق العقلانية التي فرضتها الميتودولوجيات المعاصرة بما فيها برامج البحث العلمي بل هو نشاط ومغامرة ذهنية متحررة تتجاوز كل الحدود ولا تخضع لأي قواعد حتى ولو كانت قواعد منطق[2].

فالميتودولوجيا حسب لاكاتوس هي أساس فلسفة العلم وحجر الزاوية لعقلانية وسوغا لها تعريف يختلف عن التعغريف الكلاسيكي، فلم تعد الميتودولوجيا تشير إلى مجموعة الخطوات الإجرائية التي يسترشد بها العالم أو مجموعة القواعد التي يسير وفقها الكشف العلمي، كما كان عليه الأمر سابقا خاصة بعد بروز بعض التيارات المسترشدة بتاريخ العلم والتي بينت تأثير العوامل الاجتماعية والنفسية في صياغة النظريات العلمية المتسمة بالتعقيد،

---

[1]- بول فييرابند: ضد المنهج، ص 277.

[2]- نفسه، ص 275.

وما نجم عنه من استحالة اختزال المنهج العلمي في مجموعة الإجراءات الجامدة والقواعد الثابتة على نمط فرانسيس بيكون 1626-1561، جون ستوارت ميل 1806-1873.

وبهذا تمت مراجعة النظر في الميتودولجيات التقليدية، وما تضمنته من مفاهيم مثل: التجربة الحاسمة، الملاحظة، الفرضية، الاختيار وقد عبر لاكاتوس عن هذا التحول بقوله: "كنا نأمل من الميتودولوجيات أن تقدم للعالم دليلا عمليا من القواعد لحل المشكلات غير أن هذا الأمل قد ترك في الوقت الحاضر، فالمتودولوجيات الحديثة تحتوي ببساطة على مجموعة قواعد لتقييم النظريات الموجودة وغالبا ماتلعب هذه القواعد أو اتساق التقييم دور النظريات في العقلانية العلمية ومعايير لتمييز العلم وتعريفه"[1].

ينتقد فييرابند في البداية لاكاتوس:

حتى المحاولة الذكية من لاكاتوس لبناء منهجية (أ) لا تصدر أوامر،

و(ب) تضع قيودا على أنشطة زيادة معرفتنا،

وتظهر فلسفة لاكاتوس متحررة فقط لأنها فوضية في زي تنكري، كما أن مقاييسه المؤخوذة من العلم الحديث لا يمكن النظر إليها على أنها أدوات تحكيم حيادية في الموضوع أو القضية، بين العلم الحديث وعلم أرسطو، والأسطورة، والسحر، والدين[2]، وكذلك يتفق فييرابند مع اقتراحين يمثلان جزءا أساسين من نظرية لاكاتوس حول العلم:

الاقتراح الأول: هو أن المنهج يجب أن يضمن مكانا للتنفس للافكار التي نورد وضعها في الاعتبار، بالتسليم بالنظرية الجديدة لا ينبغي أن نستخدم على الفور المقاييس المعتادة

---

[1]- I . Lakos: *Histoire et méthodologies des sciences*. Tra cothivine Malamoud et Jean Spitz, Paris puf. 1994, p 186.

[2]- بول فييرابند: ضد المنهج، ص 273.

لتحديد إمكان استمرار هذه النظرية، ولا يمكن أن تمنعنا الاختلافات الداخلية المزعجة، أو النقص الواضح للمحتوى التجريبي، أو الصراع الكبير بين النتائج التجريبية من الاحتفاظ بوجهة نظر ترضينا لسبب أو لآخر، كما أن تطور النظريات لفترات طوبلة من الزمن، وليس شكلها في وقت معين هو المهم لافي اتجاهاتنا المنهجية[1].

الاقتراح الثاني: يقترح لاكاتوس ان المقاييس المنهجية ليست بعيدة عن النقد، بل يمكن اختبارها وتطويرها او استبدالها بمقاييس افضل، وليس الاختبار مجردا بل يستغل البيانات التاريخية، وهي تؤدي دورا حاسما في الجدال بين المناهج المتصارعة[2]، ويستطرد فييرابند بالقول، أما من ناحية أوجه الاختلاف بينهما فتكمن في الآتي:

المقاييس التي أوصى بها، وتقييمه للعلم الحديث وجدله بأنه تقدم بعقلانية، وبعض البيانات التاريخية التي يستخدمها في مناقشته للمناهج وهي على النحو الآتي:

عندما تدخل نظرية جديدة او فكرة جديدة للساحة تكون إلى حدة ما غير واضحة وتحتوي على تناقضات، وتكون العلاقة بالحقائق غير واضحة، وتظهر نقاط الغموض، وتكون النظرية مليئة بالأخطاء، مع ذلك يمكن تطويرها وقد تتحسن، إذا ليست الوحدة الطبيعية للتقديرات المنهجية هي النظرية الفردية، لكن تتابع النظريات أو برنامج البحث، ولا نحكم على الحالة التي يجد فيها برنامج البحث نفسه في لحظة محددة، بل نحكم على تاريخه، ومن الأفضل بالمقارنة مع تاريخ البرامج المنافسة[3]. ذلك أن "معرفة ماهية العلم،

---

[1]- بول فييرابند: ضد المنهج، ص 277.

[2]- نفسه، ص ص 277-278.

[3]- نفسه: ص 279.

وكيف يعمل، وكيف يؤثر على حياتنا أمر يهمنا جميعا، وقد كرّس الأستاذ فييرابند حياته لمعالجة هذه القضايا"[1].

ويناقش فييرابند نقطة مهمة في عقلانية لاكاتوس العلمية المنهجية وهي وضع لاكاتوس مجموعة من المعايير المحددة التي نقيس بها مدى تقدم برنامج بحث ما أو تأخره، أهم هذه المعايير فكرة النمو النظري ذلك أن تقدم برنامج بحث ما يتوقف على ان نموه النظري يسبق نموهخ التجريبي، وهذا يعني قدرة برنامج البحث على التنبؤ بها فهذا معناه أن برنامج البحث متقدم نظريا وتجريبيا، وهذا هو معيار علمية النظرية، فالأساس هو النمو النظري، فإما أن يحاول البرنامج تفسير ما يواجه من صعوبات فقط وهو في هذه الحالة برنامج متدهور، أو أن النمو التجريبي يسبق النمو النظري وبالتالي لا يكون ثمة نمو فعامل الاستباق من أهم العوامل المحددة للتقدم العلمي عند لاكاتوس.[2]

ولكننا نتساءل: هل تلك المعايير المنهجية الثابتة والمحددة التي نقيس من خلالها مدى تقدم أو تدهور برنامج بحث ما عقلانية؟ أم أنها تبريرية؟

يجيب عن هذا السؤال فييرابند الذي يذهب الى القول بان هذه المعايير لاهي عقلانية ولاهي لا عقلانية، وإنما تنتمي إلى الحس المشترك.[3]

أما لاكاتوس فيعد اكثر تظليلا من كون بما لايقاس، فبدلا من اهتمامه بالنظريات نراه يتحدث عن برامج البحث التي تعد نتائج لنظريات مرتبطة بمناهج تعديل أطلق عليها

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 17.

[2]- خالد قطب: العقلانية العلمية، مرجع سابق، ص 87.

[3]- نفسه، ص 88.

المساعد على الكشف، وفي النتيجة قد تكون كل نظرية مليئة بأخطاء كما تكون محفوفة بمحاليات وتناقضات والتباسات فما يأخذه بعين الاعتبار ليس هو الشكل الذي تكون عليه النظريات بمفردها، وانما هو الهدف الذي يبدو من قبل النتيجة، حيث إننا نحكم على التطورات والإنجازات التاريخية خلال فترة من الزمن، لا من خلال موقف في زمن خصوصي حيث أن التاريخ والميثودولوجية يتوحدان في مسعى واحد. فيقال عن برنامج إنه يتفسخ إذا اختزل إلى وقائع مستغرقة سبق اكتشافها دون مساعدة منه. والصورة النهائية للميثودولوجية لاكاتوس هي أن مثل هذه التقويمات لم تعد مقيدة بقواعد ميتودولوجية تنبئ العالم عما إذا كان يبقى على أو يستبعد برنامج بحث فربما يواضب العلماء على برنامج متفسخ، بل ربما يفلحون في جعل البرنامج يلحق بالبرامج المنافسة له، ولذلك فهم يتقدمون عقلانيا، مهما كانوا يفعلون (بشرط أن يستمروا في تسمية المتفسخة متفسخة والبرامج المتقدمة متقدمة). ومعنى هذا أن لاكاتوس يقترح علينا في الواقع، ألفاظا رنانة مثل عناصر الميثودولوجيا، ولا يطرح علينا أنه ميثودولوجيا فطبقا لأكثر مناهج البحث تقدما ورقيا في عالم اليوم، لا نجد عنده منهجا بهذا المعنى.[1]

ويرى فييرابند أن منهجية برامج البحوث، على الرغم من التقدم الهائل الذي أحرزته هي لا تزال مليئة بالأخطاء، ولم يتم تجاوز منافسيها في جميع النقاط. بالنسبة لأتباع "مل" هذا ليس مدهشا. ولا مثل التكذيبي الآن يتحول بدوره إلى كون أو إلى الشكاك السبب واضح، "كون" يعطي حسابا عاما جدا للتطورات العلمية وغيرها، بينما لاكاتوس يجبر

[1]- إيان هاكينج: الثورات العلمية، ترجمة وتقديم: السيد نافادا، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 196، ص 235 .

الباحث على البحث عن تفاصيل معينة: ما النواة الصلبة ؟ ما الحزام الواقي؟، ما الكشف؟ كيف أن هذه العناصر تستخدم في تفسير ظاهرة معينة؟ الخ.

كأداة لاجراء البحث في تاريخ الأفكار النظرية لاكاتوس هي أكثر اتساعا وتطورا من كون ولذلك سوف نحتاج الى مزيد من البحث المفصل والى المزيد من الاكتشافات التي يمكن النهاية تتحول ضد لاكاتوس، لكن هذا لاشوه صورته اليوم، عندما لا واحدا من النظريات الأخرى تقدم جردا مفصلا من الاقتراحات على قدم المساواة.[1]

يقر فييرابند بأن الميثودولوجيات القائمة لم يتوصل أيا منها إلى أن الأنباء بما هو العلم وتقدم حجته الرئيسية وليست الوحيدة في تبيان هذه الميثودولوجيات لا تتوافق مع تاريخ الفيزياء ونقده. ونقده للموثودولوجيات والتي أطل عليها مصطلحي النزعة الاستقرائية والنزعة التكذيبية، ثم أن طريقي في النظر إلى العلم تدين بالشيء الكثير لـ فييرابند، فهو ينتزع من الاقناع حيث يبين ميثودولوجيات العلم تفشل في تزويدنا بالخطوط الموجهة التي يمكن لها أن تقيد المشتغلين في قيادة وإرشاد نشاطاتهم أو فعالياتهم ويؤكد زيادة على ذلك أن من العبث أن نأمل في اختزال العلم إلى بعض القواعد الميتودولوجية البسيطة وذلك نظرا لتفقد تاريخه وقد كتب في هذا الصدد: "إن الفكرة القائلة بأن العلم يمكنه وينبغي له أن ينتظم وفقا لقواعد ثابتة وشمولية هي في آن واحد فكرة طوباوية وذات بريق خادع، هي طوباوية لأنها تتضمن تصورا مفرط البساطة حول استعدادات الانسان أو قدراته، وحول الظروف التي تشجعها على النمو، وهي براقة خادعة من حيث أن محاولة فرض مثل تلك القواعد، لا تخلوا من جعل الزيادة في كفاءاتها المهنية لا تكون إلا على حساب إنسانيتنا وعلاوة على ذلك فإن فكرة كذلك مضرة بالعلم لأنها تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية

---

[1]- Paul Feyerabend: Imre Lakatos, *The British Journal For the Philosophy of Science*, Vol, 26, No,1 , March, 1975, p 17.

المعقدة التي تؤثر تأثيرا حقيقيا في التغير العلمي، إنها تجعل علمنا أقل علما وأقل قابلية للتكيف وأكثر دوغمائية"[1].

يريد ان يقول "فييرابند"، بأنّ فكرة انتظام العلم فكرة مستحيلة، لأن العلم يخضع لشروط كثيرة لا تنتهي، ولا يمكن ضبطها، فقواعد المعرفة العلمية متنوعة بتنوع الثقافات ولا يمكن بحال ضبطها وفق عقلانية معينة مثل العقلانية الغربية، ذلك أن ما يعتبره الشرق علما يعتبره الغرب خرافة وأفكار روحية، ومفهوم العلم عند الشرق أوسع منه عند الغرب، وعليه فضبط شروط العلم مجرد فكرة طوباوية، مثالية، خيالية، وأكثر منه مثالية محاولة فرض تلك القواعد (العقلانية الغربية) على العلم الإنساني، ثم فكرة فرض قواعد على العلم هـ فكرة تضر بالعلم نفسه، إذ تهمل كل الشروط التارخية للمعرفة العلمية، فتهمل التفاصيل التي كانت سببا في نشأة العلم، وتهمل الأسس الميتافيزيقية والدينية والروحية لنشأة العلم.

– وهكذا ينتقد "فييرابند" فلسفة العلم التقليدية القائمة على تلك العلاقة الصارمة والقواعد الثابتة، كما يرفض العقلانية النقدية والمعرفة "البوبرية" ويقلل من أهمية معيار "قابلية التكذيب". كما ينتقد فكرة "النموذج" وتعدد المناهج عند "كون"، ويؤكد على الحرية العلمية للباحث، ويرفض "برامج البحث" عند "لاكاتوس" ويقلل من أهمية المعايير المحددة لتقييمها، ومن هنا يرى بأنّ العلم يتقدم من خلال التنوع في المناهج والأفكار، وليس من خلال قواعد محددة.

---

[1]– آلان شالمرز: نظريات العلم، ترجمة الحسين سحيان وفؤاد الصفا، دار توقبال للنشر، الدار البيضاء، ط، 1991، ص 134-135.

خلاصة الفصل:

تناول الفصل الأول التطور التاريخي الفكري للفيلسوف "فييرابند"، بدء من اهتمامه بالفن وصولا إلى الفوضوية في العلم، وهكذا يتأثر في طريقه بكل من "كون" في حاجة العلم الى تجاوز التراكمية، و"بوبر" الذي أعُجب بأفكاره في البداية ثم انقلب على منهج "التكذيب" في النهاية، وبسبب هذا انتقد الوضعية المنطقية وقال بالنسبية في الأفكار، وعليه رفض القواعد التي يعتبرها العلماء صارمة ولا تتغير، وأكد على أهمية الحرية المنهجية في العلم، فكانت حياته العلمية حافلة بالبحث والنشر والتأليف وعلى رأس كتبه "ضد المنهج" و"العلم في مجتمع حر"، فوضح من خلالهما كيف تطورت العلوم والأفكار عبر الزمن، وكيف تأثرت فلسفة العلوم بتطور العلوم.

وهكذا يقرر بأنّ فلسفة العلوم ثد تطورت بداية من ظهور كتابات الوضعية المنطقية، والردود التي تبلورت من خلال ذلك، هذا التطور يتيح له ابراز موقفه الخاص، بنقده فلسفة العلم التقليدية خاصة منها نموذج "توماس كون" و"لاكاتوس"، من أجل فهم مسألة العلم. بأن الأخير لا يمكن أن يقول كلمته الأخيرة، في ظل اعتماده على نظريات لا تقوم على قانون ثابت، فقوانين الفيزياء قبل نيوتن غير القوانين بعده، والفيزياء بعده إلى آنشتاين والنظرية النسبية مختلفة ومتنوعة، والفيزياء الكمومية غير الفيزياء الكلاسيكية، وهكذا فالفيزياء تتغير وتتطور، وأصبحت القوانين القديمة مجرد خرافة وغير صحيحة بالمرة، وعليه فالعلم لا يمكن أن يقول أنه يملك الحقيقة أبدا، ولا يجوز له أن يعترض على الدين والفلسفة باسم الحقيقة.

الفصل الثاني

العلم والثقافة العلمية عند فيرابند

محتوى الفصل الثاني

المبحث الأول: العلم لغة واصطلاحا

المبحث الثاني: التمييز بين العلم واللاعلم

المبحث الثالث: رؤية فييرابند للمنهج العلمي

المبحث الرابع: هجوم فييرابند على العلم

المبحث الخامس: الثقافة العلمية عند فييرابند

مدخل:

إن الحديث عن فلسفة العلوم كمفهوم عام مرتبط بالسياق التاريخي يسوقنا مباشرة إلى مدى تطورها العلمي المهم ابتداء من ظهور الوضعية المنطقية، وردود أفعال كارل "بوبر" خاصة فيما يتعلق بتحليلاته النقدية لمبدأ التحقق انطلاقا من تكريس مبدأ التكذيب، وصولا إلى فكرة النموذج عند "توماس كون" في مؤلفه "تركيب الثورات العلمية" الذي صاغ تصورا جديد لإستيمولوجيا العلم وما ترتب على هذا من بروز فكرة برامج البحث العلمي عند "لاكاتوس" الذي بدوره قدم تحليلات عقلانية نقدية ملازمة لنظرة تاريخية لتتسق مع ابسيتمولوجيا علمية جديدة يتطلع اليها الفكر العلمي، ووفق هذا نتساءل:

هل هذه التجاذبات الفكرية المنوطة بتحليلات عقلانية نقدية اكتسبت طابعا معرفيا ساهمت في بلورة المفاهيم العلمية؟ وهل دفعت بفلسفة العلم نحو التطور؟

لقد كان من ثمار الثورات العلمية بروز فلسفة "بول فييرابند" التي قامت على أنقاض هذا الطرح السائد لتضرب عرض الحائط صورة الشاذ والمستثنى وكل قيود سابقيه في حركة تقدم العلم:

فهل قدم فييرابند بديلا علميا فسلفيا منهجيا للعقل والثقافة العلمية؟ وهل من الممكن أن تكون الفوضى في المنهج علاجا للفلسفة عامة، ولفلسفة العلم خاصة؟

المبحث الأول: العلم لغة واصطلاحا:

العلم بالمفهوم الشامل للكلمة هو نوع من المعارف[1] والتطبيقات وهو مجموع مسائل وأصول كلية[2] تدور حول موضوع أو ظاهرة محددة وتعالج بمنهج معين وينتهي إلى النظريات والقوانين

– يطرح فييرابند في بداية الجزء الثاني من كتابه العلم في مجتمع حر تساؤلين مفادهما كالآتي:

ما العلم؟ وكيف يتقدم؟ وما نتائجه؟

– وكيف تختلف معاييره واجراءاته ونتائجه عن معايير ونتائج واجراءات العقول الأخرى؟[3]

– ما الشيء العظيم في العلم؟ وما الذي يجعله مفضلا عن الأساليب الأخرى هل لأنه يستخدم معايير مختلفة ويحصل على نتائج مختلفة؟

– ما الذي يجعل العلم الحديث مفضلا عن علم الأرسطيين أو عن كوزمولوجيا الـ"هوبي"؟[4]

---

[1]– وهذا بناء على أن العقل في نهايته مجموعة معارف، فالعقل ليس شيئا ماديا، فالمادي هو الدماغ، وأما العقل فشيء مختلف.

[2]– أصول كلية، مبنية على المبادئ العقلية(مبدأ عدم التناقض، الوسط المرفوع، عدم التناقض) التي ذكرها أرسطو إضافة إلى مبدأ السببية، مع المقولات، كلها قاعدة يعتمد عليها العقل في بناء المعرفة واستنباطها.

[3]– مصطفى حسيبة: المعجم الفلسفي، دار أسامة، ط 1، 2009، ص 237– 238.

[4]– بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ترجمة: السيد نفادي، مراجعة: سمير حنا صادق، لمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2000، ص: 87.

إن نظرة فييرابند حول العلم نظرة شمولية لطبيعة العلم وموقعه، وإعطاء قيمة للعلم والاعلاء من شأنه له ما يبرره من وجهة نظر المكرسين للنظرة العلمية هذه النظرة تقدم بعض المبررات للدفاع عن العلم منها.

أولا: العلم قد عثر أخيرا عن المنهج الصحيح الذي يمكننا من التوصل إلى نتائج.

و**ثانيا**: أن هناك العديد من النتائج التي تبرهن على براعة المنهج[1]،

ويرد فييرابند على المبرر الأول با يفيد أنّ علم المناهج الآن أصبح مزدحما بسفسطة فارغة لا علم فيها، بحيث أضحى من الصعوبة بمكان أن يدرك هذا العلم الاخطاء البسيطة التي تكمن في الأساس أو الأسس التي يقوم عليها.

أما المبرر الثاني المتمثل في تبرير قيمة العلم بالنتائج التي حققها[2]، فعلم المناهج كانت الغاية منه تحديد عملية البحث وتوجيه البحث إلى الغاية المطلوبة، لكن بحسب "فييرابند" هذا العلم أقرب إلى السفسطة منه إلى العلم، ذلك انه يحدد حرية البحث، ويمنعه من الوصول إلى الهدف والغاية المرجوة، ذلك أن العلم لا يقبل الخضوع إلى أي

---

[1]- بول فييرابند كيف ندافع عن المجتمع ضد العلم أيان ها كينغ الثورات، العلمية ترجمة وتقديم السيد نفادي دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1996 ص 232

[2]- بمعنى: أنك بالنظر في كلام العلماء تجدهم يقررون صحة المناهج من خلال نتائج العلم، وهذا غلط، ذلك أن العلم دائما ما يصحح لنفسه ويسمي العلم السابق بالخرافة، إذا المقياس ليس نتائج العلم بل المناهج التي نستخدمها.

منهج، ذلك أن المناهج نفسها بشرية خاضعة للنسبية، وبالتالي هي نفسها محتاجة دوما إلى التصحيح وإعادة النظر قبل استعمالها[1]، وأنّ تسلط العلم تهديد للدمقراطية[2].

إن "فييرابند" يجيب عن ذلك بقوله: "يستحق العلم أن يتبوأ مكانة خاصة لأنه قد غل ثمرات ويمكن أن نعتبر هذا الأمر حجة فقط إذا كان في الامكان التسليم بأن لا شيء آخر قد غل بالمثل ثمرات، فلقد اصبحنا مطلعين الآن على وسائل تشخيص وعلاج طبي فعالة بل وربما تكون اكثر فعالية من الأقسام المناظرة للطلب الغربي وهي تلك التي اعتمدت حتى الآن على الأيديولوجيا، بيد انها تختلف تماما عن الايديولوجيا الغربي، فلقد علمنا أن ثمة ظواهر مثل التخاطر"[3] "والتحارك الإيحائي"[4]، التي سبق لأطروحة علمية أن طمستها، بعد أن امكن استخدامها في إجراء بحث.

إن العلم حسب فييرابند أداة للتحرر والتنوير في القرن 18 حيث بشر على أنه إنسان الحرية وبعث فيه روح التحرر إلى أن انقلبت عليه وعاد على الحرية بعكس ما كان يرجى منه. فيقول "فييرابند" في هذه "وانتقادي الموجه إلى العلم الحديث هو أنه يخلق الفكر، بالإضافة كون العلم مجهود إنساني فإنه عرضة للأخطاء والحماقات أحيانا ويترتب على ذلك أنه لا شيء ملازم في العلم "عدا رغبة العلماء في أن يفعلوا ما يروق لهم على نفقة أناس

---

[1]- نعم يمكن أن يكون كلام "فييرابند" صحيح نسبيا، لكن لا يمكن بحال من الأحوال أن نجزم بصحته، ذلك أن البحث محتاج إلى منهجية أثناء سير عملية البحث، ولا يمكن إجراء البحث من دون منهجية، وإلا أصبح الأمر شيء من الفوضوية. وهي الفكرة التي سيأتي بحثها فيما أي فكرة اللامنهجية.

[2]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 88.

[3]- التخاطر هو تبادل الشعور او الخواطر مع الغير عن بعد أي دون اتصال معهم.

[4]- الحركة الايحائية تعني تساوي حركة الشيء بعامل الفكر او الارادة دون استعمال القدرة الجسدية او المادية.

آخرين)"[1]. فوظيفة العلم خلق أفكار من خلالها نبحث، وليس وظيفته تعبيد العقول، وتحجيرها، فالعلم في نهايته أفكار إنسانية نسبية قابلة للخطأ وليس شيئا معضوما من الخطأ، ويحرم نقده ويجب تقديسه.

فالعلم عند فييرابند لا يعد مسلمة وإنما مجرد فرضية من الفرضيات غرضه البرهنة ليس إلا، ومن هنا يقرر بأنّ العقل من حيث هو عقل كما تصوره الفلاسفة يختلف نوعا ما عن تصور العلم له، فالمذهب المثالي المفارق ومعه المذهب العقلاني يعتقد كل منهما بأن الإنسان يولد بأفكار فطرية، وهذه الأفكار قبلية عن التجربة، وتوجه المنهج والتجربة إلى جهة معينة، هذا التوجيه يؤثر على العلم، من هنا تجد تحريم الفقهاء والكنائس قيدما لبعض العلوم، من جهة أن التدخل في الطبيعة بالبحث لا يجوز من الناحية الدينية، ولكن العلم الحسي التجريبي لا يتوافق مع هذا الرأي، ومن هنا أنشأ المنهج التجريبي وحاول أن يدرس الطبيعة وعلومها دراسة خارجة عن الدين، حاول "فييرابند" أن يلخص هذه النظريات والأفكار وينتقدها كما فعل "كانط" من قبل، وهي فكرة جميلة، تبين نظرة منهجية نقدية جيدة من "فييرابند"، وأن العقل غير العلم، وأن وظيفة العقل ليست تتبع الأفكار القبلية وإنما البحث عن العلم من جهة، كما أن وظيفته أيضا ليست عبادة العلم، فالعلم مجرد نظرية يمكنها أن تتغير في أي لحظة يكتشف فيها العلم نفسه أنه أخطأ في تصور ما، وخير شاهد على ذلك تاريخ العلم.

إن قيمة العلم ومكانته في تاريخ البشرية يخضع لمعيار المنهج المطبق والنتيجة التي حصلت وهذا الاعتقاد السائد لكن هذا لا يعني تقيسه وجعله معيارا مطلقا للحكم على باقي

---

[1]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 88.

النشاطات ويبدوا ان العلم ليس مقدسا إلى أبعد حد فمجرد أنه موجود وأنه يصادف من يعجب به ككون له نتائج غير كافية لجعله مقياسا لامتياز إذ نشأ العلم الحديث من اعتراضات شاملة ضد ما كان عليه الحال من قبل وبل ضد العقلانية ذاتها[1].

هذا ما يقوي طرحه بأن العلم قد كان وسيلة تحرر يوما، لكنه تحول إلى وسيلة ضغط واكراه في ظل عقلانية القرن الـ 18، ضف على ذلك أن العلم ليس تقليدا واحدا بل هو متعدد وهكذا قد ينتج عنه معايير متعددة ومتعارضة بعض الشيء، فضلا أن الإجراء يجعل من المستحيل بالنسبة للفيلسوف أن يقدم تعليلات لتفضيله العلم عن الخرافة أو على أرسطو[2].

تختلف رؤية فييرابند على سابقيه للعلم فهو يرى أن العلم ليس نظاما معرفيا مقدسا فالعلم ينمو ويرتقي ويزدهر وسط مجمل المعارف البشرية الأخرى الدائرة حوله ويخضع لحركة الوعي التاريخي والحضاري للمجتمع عن مراحل من الزمن فالعلم ليست له السلطة العقلانية المطلقة لتوجيه الأنشطة المجتمعية لأن الكثير من النشاطات الإنسانية والاجتماعية تحكمها العاطفة وعلى هذا يجرد فييرابند العلم من سلطته المطلقة على المجتمع ويدعو إلى تحريره من سلطة العلم بنفس قدرة الدعوة الى تحرير المجتمع من سلطة الدين الأمر الذي دعا بعضهم إلى أن بعضهم إلى أن يعد فييرابند أول فيلسوف علم يوجه إنتقاده إلى الحضارة الغربية إنطلاقا من أعلى أيقونة طالما استخدمها الغربيون لإثبات تفوقهم الحضاري على باقي شعوب العالم ألا وهي أيقونة العلم في المجتمع[3].

---

[1]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 112.

[2]- نفسه، ص 115.

[3]- نفسه، ص 25.

وما لفت انتباه فييرابند أن الكثير من الفلاسفة جعلوا أنفسهم عبيدا للعلم في الوقت الذي كانوا فيه أحرارا في شتى نظريات العلم، لذلك فهو يقرر أنه من المدهش حقا أن نرى الفلاسفة الذين كانوا ذات يوم مبدعين لنظريات جديدة إلى العالم، فأصبحوا الآن أكثر الخدام طاعة للعلم ورفعوا شعار الفلسفة خادمة العلم في المجتمع[1].

وهذا ما وضحه يمنى طريف الخولي حينما قال هذه النظرة التقديسية ازدادت (جمودا) وتحجيرا على يد فلسفات العلم الوضعية الضد تاريخية التي ترفع العلم فوق التاريخ[2] ويضيف فييرابند قائلا " كان العلم بالتأكيد دائما في طليعة المحاربين ضد النزعة السلطوية والخرافة وهذا هو العلم الذي ندين له بالحرية العقلانية المتزايدة اتجاه الاعتقادات الدينية كما أن هذا هو العلم الذي ندين له بتحرر الجنس البشري من الأفكار البالية والأشكال العنيفة الجامدة من التفكير، واليوم قد أصبحت هذه الأشكال من التفكير ليست سوى أحلام مزعجة وكان ذلك بفضل العلم، إذ أن العلم والتنوير شيء واحد[3].

– وهكذا يرى "فييرابند" بأن العلم يتميز بنظرة شمولية، وليس مجموعة معارف وتطبيقات ومناهج، بل هو نظام معرفي متكامل يتفاعل مع المجتمع والثقافة والتاريخ، ومن هنا يطرح تساؤلات جوهرية حول العلم في معناه وكيفية تقدمه وما الذي يميزه عن طرق المعرفة الاخرى. وينتقد التبريرات الكلاسيكية مثل المنهج الواحد منهجا للعلم، بل هناك مناهج علمية متعددة، يجب على الباحث العلم لبها جميعا دون التعصب لواحد منها حتى يتحرر عقليا، مع استحضار نسبية المناهج والقواعد، وبما ان العلم ليس مقدسا بل هو وسيلة

---

[1]–بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 6.

[2]– نفسه، ص 46.

[3]– يمني طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول،الحصاد، الافاق المستقبيلية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت عدد 264، 2000، ص 439 .

للتحرر لا أكثر، تحول مع الوقت إلى وسيلة للضغط لا غير، وكان من المفروض أن نستحضر أنه جهد بشري نسبي قابل للتخطئة، ذلك أن نشأته تبين بأنه ليس تقليدا وحدا بل متعددا بين الشرق والغرب، وعليه فينتج عن هذا وجود معايير مختلفة متعارضة أحيانا فيما بينها، وهذا يجرنا إلى صعوبة المقارنة الموضوعية بين تلك التقاليد، ومن هنا ينتقد الفلاسفة الذين كانوا مبدعين للعلم ثم تحلوا إلى أداة خادمة للعلم، ومن هنا يقرر بأن الفلسفة ليست خادمة للعلم هي الأخرى، وبمجوع ما سبق يقدم نظرة نقدية للعلم والمناهج من خلالها يمكن للباحث أن يدرس العلم دراسة مستقلة تتقدم بالعلم.

المبحث الثاني: التمييز بين العلم واللاعلم:

1. إن التمييز بين العلم واللاعلم نشأ عنه صدام بين الأطروحات الفكرية تقاطب خلالها جدلا حادا بين النزعات العقلية والنفسية كون النقاش ينصب على المسائل المتعلقة بتطور النظرية وبالاختيار بين النظريات المتعددة هذا من جهة ومن جهة أخرى على الفصل بين العلم واللاعلم.

فأصحاب النزعة العقلية تضع معيارا بسيطا خالدا وكليا يسمح بمقارنة مزايا النظريتين المتنافستين وتقويمهما، فأصاحب النزعة الاستوائية مثلا أن يجعل من درجة اعتماد نظرية ما على قواعد استوائية مقبولة معيارا شموليا، أما صاحب النزعة التكذيبية فإنه يؤسس معياره على درجة قابلية النظريات غير المكذبة للتكذيب، أيا ما تكن الصيغة المفصلة التي يعطيها صاحب النزعة العقلية للمعيار الذي يعتمده، فإن إحدى خصائصه الكبرى سوف تكون هي طابعة الكلي الشمولي واللا تاريخي[1]

إن التمييز بين العلم واللاعلم واضح بالنسبة لصاحب النزعة العقلية فالنظريات التي تستحق هي وحدها أن تنعت بأنها علمية، هي تلك التي يمكن أن يتم تقويمهما اعتمادا على المعيار الكلي الشمولي، والتي نجحت في الاختبار وهكذا يمكن لصاحب نزعة عقلية استقرائية أن يحكم على التنجيم بأنه ليس علما، لكونه لا يقوم على استقراء وقائع الملاحظة. بينما يمكن لأحد أصحاب النزعة التكذيبية أن يحكم بأن الماركسية ليست علمية، لأنها غير قابلة للتكذيب[2].

---

[1]- ألان شالمرز: نظريات العلم، ترجمة الحسين سحيان، وفؤاد الصفا، دار تويقال للنشر،الدار البيضاء، المغرب، ط 1991، ص 105.

[2]- نفسه، ص 105.

فالنزعة النسبية تنكر وجود معيار المعقولية الشمولية اللاتاريخية كون الهدف من البحث عن المعرفة يتوقف أساسا على ما يقيده الفرد أو الجماعة العلمية المستغلة بالعلم ذوا القيمة. ونستخلص أن صاحب النزعة النسبية في مفارقته بين العلم واللاعلم يعد تميزا اعتياطيا وغير جوهري.

فالعلم عند العقلانيين ما يخضع للمنطق العقلي والمقولات العقلية، وهذا في نظر "فييرابند" لا يكفي لأن الجانب الحسي هو الآخر يعتبر معيارا للتمييز بين العلم واللاعلم من خلال التجربة المادية الخاضعة للملاحظة والفرضية والتجربة من خلال المنهج الاستقرائي. وهذا الجدل المحتدم قد تجاوزنه "كانط" من خلال نقده للعقل المحض والعقل العملي، ولا يصلح علميا الرجوع إلى نقطة تجاوزها العقل، بل يستعين بفكر "بوبر" قابلية التكذيب، ثم يقرر في النهاية أنه منهج "بوبر" مجرد منهج اعتباطي لا قيمة له علميا. والتمييز يكون بالاستعانة بكل المنهجيات مع استحضار أنّ "جميع المنهجيات حتى تلك الأكثر وضوحا لها حدودها"[1].

2. العلم ليس الكلمة الأخيرة عند فييرابند:

تتراوح المواقف المتخذة من العلم بدءا بالإعجاب غير النقدي في طرف، مرورا بالشك والازدراء، وانتهاء بتشويه السمعة والعداوة الصريحة في الطرف الاخر. إننا نعاني من حالة تشوش بخصوص ما يستطيع العلم القيام به، وما يعجز عن القيام به، وبخصوص كيفية قيامه بما يقوم به؛ حيث يختلف عن الأدب أو الفن؛ ما اذا كان يشكل حقيقة تهديدا للدين؛ وما الدور الذي يقوم به العلم في المجتمع، والدور الذي يقوم به المجتمع في العلم؟

---

[1]- Robert . p, Farrell, : Op. cit , p 7.

أيضا فإننا لم نحسم أمرنا بعد فيما يتعلق بقيمة العلم؛ فلما كنا نعجب بانجازاتهم النظرية، ونرحب بالتطورات التقنية التي تسهم في تحسين حياتنا، فإننا نصاب بخيبة أمل حين يتأخر حصولنا على ما أملنا من نتائج، ونفزع حين تهدد الاكتشافات العلمية معتقدات نوقرها تتعلق بحياتنا ومنزلتنا في الكون، ونرتاب فيما نعده صلفا أو نخبوية من جانب العلماء، أو تزعجنا تكاليف البحث العلمي الباهضة، ويخيب أملنا حين نقرأ عن التحايل العلمي، أو حين يسء العلماء التصرف، أو يقصرون عن أداء مهمتهم رغم تعقد حالات التشوش هذه، يمكن تنصيفها إلى نوعين واسعين، العلماوي وضد العلماوي.

العلماوية إمعان متطرف في تبجيل العلم واستعداد مغال لقبول أي زعم تصدره العلوم بوصفه شيئا سلطويا، وانكار لأية انتقادات توجه إلى العلم، أو ممارسيه، واحتسابها تحيزا ضد- علمي. في المقابل، ضد- العلمية نوع لا يخلو من شطط من الارتياب في العلم، واستعدادد مبالغ فيه لرؤية مصالح الأقوياء وراء كل زعم علمي واعتبار كل نقد يوجه إلى العلم وممارسيه تقويضا لدعواه لاخبارنا عن طبيعة العالم. وبطبيعة الحال فإن الإشكالية إنما تكمن في تحديد متى يكون فعل التبجيل، أو الريبة، "مغاليا"[1]

ونجد فييرابند يوجه نقده اللاذع للعلم، ذالك أن القول بأفضلية العلم وامتداحه بدعوى إنجازاته الظافرة، هو مجرد دعاية مغرضة، إن لم نقل بأنها أكذوبة مفضوحة... حيث أنه لو كان العلم يمتدح بسب إنجازاته إذا لكان يتعين أن نمتدح الأسطورة مائة مرة وبحماس

[1]- ألان شالمرز، نظريات العلم، ص 17.

أكبر[1]، لأن إنجازاتها كانت أعظم بما لا يقاس، إذ أن مبتدعي الأسطورة أنشأوا ثقافة في حين عمل العقلانيون على تغييرها تماما ولم يقدموا في أغلب الأحيان أفضل منها[2]. وربما نجد سببا آخر للتبرم من مقولة تفوق العلم الحديث، وارتقاء الأزمنة بما لا يقاس مع نظيرتها السالفة، المعاناة النفسية والبدنية، وبالجملة الصحية لفييرابند جراء تعرضه – خلال تجنيده الإجباري عن طريق عملية القرعة في صفوف الجيش الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية، لمدة ثلاث سنوات، منذ 1942– لإصابته في 1950 بثلاث رصاصات، اخترقت إحداها عموده الفقري لتحيله إلى إعاقة دائمة، وتجبره على استعمال العكازين، والاتكاء عليهما طيلة ماتبقى من حياته. أي حوالي 49 سنة وكأن فييرابند أراد أن يقول:" أين هذا التقدم الباهر والخطوات الجبارة والرائدة التي قطعها العلم والطب الحديثان الذان عجزا أمام هذه الإعاقة طوال هذه المدة ؟ وما أكثر عجزهما إزاء ظواهر وأمراض وأوبئة شتى ".[3] ولعل هذا يعد سببا رئيسا لهجوم فييرابند على العلم، وتبنى موقف الفوضوي وإطلاق اسم مهرج البلاط في فلسفة العلم.

ومن ناحية أخرى ينبغي أن يكون التصور عن العلم مفتوحا ووديا. في طغيان العلم (2011) قدم مناهج مثيرة جدا للاهتمام حول العلم من وجهة نظر السوق، السوق ليس

---

[1]- هذا التوجه الفكري يعتمد على فكرة أن العلم ما يحقق الجواب على التساؤلات البشرية، ويحقق الغرض من الحياة وحل مشكلاتها، ولا يهم أن تسميه أسطورة أو دين أو معرفة أو خرافة او علم أو معرفة، المهم أن تلك الأفكار قد حلت المشكلات التي اعترضت حياة الحضارات الشرقية، إذا الأسطورة والدين قدم الحلول التي لا تحصى للإنسان، فإن كان المدح من أجل ما قدمه العلم فالدين قدم أكثر من العلم التجريبي أضعاف مضاعفة آلاف المرات. من هنا يعترض "فييرابند" على فكرة امتداح العلم التجريبي فقط من اجل فوائده.

[2]- علي هرة: البرمجة عند لاكاتوس، ص 256.

[3]- نفسه، ص ص 256-266.

فقط يوفر السلع للمستهلكين، ولكن أيضا يشير إلى مدى الاحتياجات الحقيقية التي ليس على المستهلكين علم بها. لذلك العلم والدين والفن يمكن أن تكون أسواقا روحية، مع أقسام مختلفة مرتبطة الواحدة بالاخرى. فالسوق يوفر عناصر جديدة جدا ليس فقط لاختيار هذدا العنصر من خلال الخبرات السابقة، وبالتالي أن الافتراض بأن العلم لم يكن مبنيا بالضرورة على التجربة... طغيان الشوفنيية العلمية ترتكز من خلال العديد من القيود لوحدة العلم. وتستأنف في الجمل التالية:

1- التقدم العلمي(من وجهة نظر مناصريه) يعتمد على انفتاح الناس على المذاهب الجديدة، التي تلحق باستبداد الثاني للاخرين والمذاهب الجديدة .

2- الأفكار والمذاهب من الصعب أن تؤخذ كأمر مسلم به، الأمر الذي يتطلب فترة طويلة في بعض الأحيان حتى يعترف بشكل كامل.

3- المبادئ التي تقوم عليها المعرفة العلمية في المجتمع ليست عالية، معه المحافظة على الاحتمال (والحياة الطبيعية) لكل مجتمع التعرف من تلقاء نفسها معايير الحياة الطبيعية.

4- الافاق الجديدة للمذاهب يمكن أن تلحق مع التيار السائد، ولكنها سوف لا تكون تعترض على الاطلاق على منهجية العلم، القعلانية.[1]

ولعل من المدهش أن نجد فييرابند بعد هجومه على العلم، نجده يذكر مايدفعه ذلك حيث يقول: "أود أن أدافع عن المجتمع وقاطنيه ضد جميع الإيديولوجيات، ومن ضمنها العلم، إذ ينبغي رؤية جميع الإيديولوجيات من هذا المنظور، فلا ينبغي أن يتناولها المرء بجدية أكثر، وإنما ينبغي أن يقرأها المرء كما لو أنه يقرأ حكايات جن مليئة بالكثير من القصص

[1]- Grigore, Ioan Pirosca : *The influence of modern epistemological streams/ The case of epistemological anarchism*, Theoretical and Applied, Economies, Vol, xx, No, 7(584), 2013, P92.

المثيرة التي تحكى، مع أنها تحتوي على أكاذيب شريرة أو مثل إرشادات أخلاقية، ربما تكون قواعد مفيدة للتوجيه،ولكنها مميتة لمن يتبعها"[1]

ولعل من المدهش أيضا أن نجد فييرابند يرى أنه تنفق مبالغ طائلة على تحسين الأفكار العلمية على موضوعات زائفة، مثل فلسفة العلم التي تتقاسم اسمه فقط ولا شيء آخر بالكاد مستفيدة في ذالك من رواج العلوم، ولقد خضعت العلاقات الإنسانية للمعالجة العلمية، كما هو مبين في برامج التعليم واقتراحات لاصلاح السجن والتدريب العسكري، وهلم جرا. أما قوة المهنة الطبية فحدث ولا حرج؛ فقد سادت في كل مرحلة من مراحل حياتنا، بل تجاوزت بالفعل القوة التي كانت ذات يوم للكنيسة، كما أضحت جميع المواد العلمية تقريبا جبرية في مدارسنا. وبينما يكون في مقدور والذي طفل عمره ستة سنوات أن يقررا تلقيه تعليما في المبادئ الأولية للمذهب البروتستاني. أو المبادئ الأولية للعقيدة اليهودية، أو حتى إلغاء التعليم الديني برمته، نجد أنهما ليس لديهما حرية مماثلة في أن يفعلا ذلك في حالة العلوم فلا يمكنهما أن يحلا السحر، أو التنجيم، أو دراسة الأسطورة محل ما ينبغي تعلمه من فيزياء، أو فلك أو تاريخ![2].

وعلى النقيض من وقف فييرابند هذا، نجد هناك من يبجلون ويعلون من قيمة العلم، بل إن المفكرين الجسورين والثوريين أنفسهم ينحنون أما رأي العلم، إذ يود كروبوتكن أن يحطم كل المؤسسات القائمة، لكنه لايمس العلم ومضى إيبسون[*] بعيدا في انتقاده

---

[1]- ايان هاكينج: الثورات العلمية، ترجمة وتقديم: السيد نافادا، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، ص 229.

[2]- بول فييرابند : العلم في مجتمع حر، ص 92.

[*]- هنريك إيبسون(1828-1906) شاعر وكاتب مسرحي نرويجي، يعد منشئ الدراما الواقعية الحديثة، وأحد أعظم الكتاب المسرحيين في جميع العصور، ومن أشهر مسرحياته : أعمدة المجتمع عام 1877، وبيت الدمية عام 1879، وأشباح عام 1881، وعدو الشعب عام 1882، انظر في ذلك منير البعلبكي : موسوعة تراجم لاشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين، بيروت، دار العلم للملايين، 1992، ص 15.

للمجتمع البرجوازي، لكنه يبقى على العلم بوصفه معيارا للصدق، ولقد جعلنا الفيلسوف الفرنسي "ليفى شترواس" نفطا الى ان الفكر الغربي لا يعد ذورة الإنجاز الإنساني الوحيد، كما كان يعتقد من قبل، بيد أنه وأتباعه يستثنون العلم من صلته بالايديولوجيات، وكان ماركس (1818- 1883م) وأنجيلز (1820-1895م) على قناعة بأن العلم سيعين العمال في سعيهم للحرية العقلية والاجتماعية والدرس المستخلص من هذه العينات التاريخية المختصرة هو أن أية إعاقة ظرفية تلحق بأي أيديولوجيا (التي هي عبارة عن حزمة من النظريات المتوحدة في منهج ورؤية فلسفية أكثر عمومية)، لا ينبغي أن تؤخذ كباعث على استبعادها، وهكذا حدث أيضا، بعد الثورة العلمية لصور العلم الاقدم، والرؤى غير العلمية، فقد تم استبعادها تحت مبررات واهية وهشة، بدعوى أن عصر العلم قد حل وهيمن، وأن زمن الخرافة والدجل قد ولى وانقضى، وهي سيادة مصطنعة لا تستند الى الواقعية والموضوعية في شيء بل هي تكريس لرؤية أيديولوجية تكرس هيمنة العلم واحتكاره للساحة، ليس بفضل إنجازاته ومناهجه التي تبين تهافتها، وسيتبين لنا أكثر المزيد من هذا التهافت،بل أيضا عن طريق الدساتير والقوانين، ومختلف المواثيق، والتشريعات التي تسن لصالح تبني العلم والترويج له، وتصب جميعها في خدمته وقمع ماعاداه من الأنشطة المنافسة، والعمل الحثيث على دحرها، وممارسة الأبواب الموصدة في وجهها[1]. وهو ما يعني مرة أخرى وليست أخيرة أن تفوق العلم المزعوم، ليس محصلة، أو نتيجة بحث أو حجة قاطعة، وإنما هو نتيجة ضغوط سياسية ومؤسساتية، بل حتى عسكرية.

وليس أدل على ذلك من عدم اتفاق هذه الضغوط أو توظيفها ضد العلم من شأنه أن يفضي إلى نتائج عكسية، فواحدة من أبرز الشواهد التي يستعين بها فييرابند لتفعيل

[1]- علي هرة: البرمجة عند لاكاتوس، ص 258.

رؤيته وبسطها بشكل أوضح ومبرهن، مستندا دائما إلى الوضع إلى غاية 1954، عند ذلك أدر الحزب الحاجة إلى اشراف سياسي على العلماء، أمرا بضرورة عودة الطب التقليدي إلى المستشفيات والجامعات، فعاد الأمر المزاحمة الحرة بين العلم والطب التقليدي، وكم كانت النتائج مذهلة إذ اكتشف المرء الآن أن للطب التقليدي وسائل للتشخيص والمداواة تفوق تلك التي لدى الطب العلمي الغربي وتمت اكتشافات مناظرة منم طرف أولئك الذين كانوا قد عقدوا مقارانات بين الطب التقليدي والطب العلمي والدرس المحصل والمستفاد من كل هذا هو أنه من الممكن جدا أن تغدوا الأيديولوجيات المفترض أنها غير العلمية منافسات شديدة البأس كما بمقدوريها أن تكشف عن العواهم الرئيسة في العلم فقط إذا توافر مناخ الفرص المتكافئة وأتيحت لها فرصة عادلة في ان تكتمل وتثبت مهارتها وقدراتها، وهي مهمة المؤسسات في مجتمع حر[1].

ومن المعلوم أن القرنين السادس عشر والسابع عشر هما قرنا الطب العلمي ومن ذلك كان التضخم النظري كاسدا وعاجزا تماما عن مواجهة المرض، وظل الوضع على حاله إلى مابعد الثورة الكوبرنيكية، ليعود المبدعون أمثال برقليس إلى الأفكار السابقة وتحسن الطب. ومن ثم فإن العلم يزداد ثراء في كل مكان باستخدام أساليب غير علمية وببلوغ نتائج لا علمية في حين أن الإجراءات التي كانت تعد في الغالب أقساما ضرورية من العلم فقد أرجئت أو طوقت بالكامل ولقد رأينا في زماننا الراهن كيف يمكن لتدخل الدولة أن يسهم في إقلاع العلم ؟ فعندما أبى الشيوعيون الصينييون الركون لتهديد الأخصائيين الخبراء وأمروا بالرجوع إلى اتباع الطب التقليدي سادت في كافة الأنحاء موجة من السخط والصراخ والتباكي على أن العلم في الصين يحيق يه الدمار وضد واحد من أشد العرابين البوبريين مثل إكسيلز

[1]- علي هرة: البرمجة عند لاكاتوس، ص ص 258-259.

مفزوعا يتملكه الرعب، ليتنبأ بانهيار الطب الصيني. لكن الذي وقع هو العكس تماما، إذ تقدم العلم الصيني بل وأفاد منه العلم الغربي. وأينما يممنا وجوهنا فسنجد ان الخطوات العلمية الهائلة والعظيمة نحو الأمام، إنما تكون ناشئة عن تدخل خارجي، وتسود في مجابهة اكثر القواعد المنهجية أساسية وأكثرها عقلانية وبرأي فييرابند فالدرس الذي نستخلصه واضح كل الوضوح: إذ لا وجود لحجة فردية يمكن إستعمالها لدعم الدور الإستثنائي الذي يؤديه العلم اليوم داخل المجتمع.

ذلك أن إحدى المجالات التي تهم فييرابند هي العلاقة بين العلم والأشكال الأخرى للفكر البشرى والنشاط في المحاضرات المعنونة المعرفة دون أسس، هو يزعم أن العلم والأساطير والمذاهب الدينية تشترك في العديد من المميزات وهذا يدحض بذلك حسابات التجريبي الساذج التي هي طبقا له العلم يبدأ عندما الناس يتوقفون عن التكهن ويبدأون الملاحظة أو التجربة عموما والنظريات التفسيرية هو يزعم أن تكون لا شيء مثل التعميمات التجريبية الجديرة بالاحترام التي تقدر من قبل التجريبيين. ليس فقط لأنها تلخيص الملاحظة، وأفضل النظريات العلمية حتى وإن ذهبت ضد الخبرة غير المحللة[1].

إنه لشئ ممتاز أن تكون عقلانيا معترفا بك من قبل الكثير من الناس، لكن من الصعب على أي شخص أن يكون قادرا على أن يخبرنا ما معنى أن يكون عقلانيا ؟ ولماذا يبدو عقلانيا؟ وهذا مهم جدا، السابقون على سقراط كانوا يطلقون على أنفسهم عقلانيون، لأنهم حذفوا الآلهة من تفسيراتهم وآباء الكنيسة كانوا يسمون عقلانيين، لأنهم قضوا على الغنوصية، إينشتين كان يسمى عقلانيا، لأنه أبطل أو بدأ إلغاء الأثير. في كل تلك الحالات

(1)- Paul feyerabend: Knowledge, *Science and Relativism: Philosphical Papers*, Vol, edited by JPreston, (Cambridge: Cambridge University Press,1999), P1.

هناك افتراض أن بعض المذاهب تكون صحيحة، والأخرى كاذبة وتبدو وسائل عقلانية مقبولة ما يعتقد انه صحيح.[1]

ولعل من الأفكار الغربية التي يطرحها فييرابند تجاه النظريات العلمية، وإن كنا نتفق معه في جانب منها، وهو إخضاعها للتصويت نجده يطرح طريقة جديدة لقبول النظريات العلمية، وهي إخضاعها للتصويت الديمقراطي، وفي ذلك يقول: "تختلف الطريقة التي نقبل أو نرفض بها الأفكار العلمية اختلافا جذريا عن تلك التي تنبع في اتخاذ قرار ديمقراطي، فنحن نقبل القوانين والحقائق بالعلمية نتعلمها في مدارسنا، ونجعلها الأساس في اتخاذ قرارات سياسية مهمة، ولكن دون ان نفحصها، ودون أن نجعلها خاضعة للتصويت وتناقش أحيانا إقتراحات محددة، ويقترح ان تجرى عليها تصويت (إنشاءات مفاعل نووي مثلا)، بيد أن الإجراء لا ينسحب على نظريات عامة او حقائق علمية، إن المجتمع الحديث كوبرنيقي ليس لأن كوبرنيق كان خاضعا لعملية تصويت، ونووقش بطريقة ديمقراطية، وحصل على أغلبية بسيطة من الأصوات، وإنما هو كوبرنيقي لأن العلماء الكوبرنيقيون ولأن على المرء أن يقبل علمهم الكوني بلا نقد، تماما كما قبل العلم الكوني الذي فرضه من قبل الأساقفة والكاردينات"[2].

وينتهي فييرابند من نقده للعلم، وجعله مجرد أيديولوجية، إلى الحديث عن من يحق له التحدث باسم العلمن أو يتولى الإشراف عليه ؟ او كيف نسيطر على العلم؟ أو بمعنى اخر كيف نحد من أيديولجيته ؟ يجيب فييرابند عن ذلك، حيث إن السبيل الوحيد للسيطرة على طغيان العلم في القرن العشرين هو ان تخضع مؤسساته للرقابة الشعبية للمؤسسات الديمقراطية، ويتولى الرجل العادي الإشراف على العلم، فيضخى العلم والعلماء خادمين للمجتمع، وليس أسيادا عليه .[3]

---

[1]-Paul feyerabend: Knowledge, *Science and Relativism: Philosphical Papers*, p200.

[2]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 93.

[3]-بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص ص 12-13.

وقد قدم فييرابند عملا آخر مثير للجدل بعنوان "طغيان العلم" The Tyranny of Science فهو احدث محاولة لاستخراج الجوانب الفكرية لبول فييرابند، سوف تكون مخيبة للأمال وهو يتألف من نسخة طبق الأصل إلى حد كبير من أربع محاضرات قدمها فييرابند في ترنيت Trent في إيطاليا عام 1992 قبل وفاته بعامين في عام 1994 (المحاضرات نشرت في إيطاليا عام 1996، لكن من المفترض أن تنشر بالإنجليزية). العنوان العام لتلك المحاضرات كان الصراع والوئام، لكن محرري دار نشر بوليتي غيروا العنوان الحالي وعرضوا للقراء صفحة غلاف مع صورة الدم الحمراء من القنابل –إنني أفترض أنها نووية– تسقط على مدينة ربما لجعل الكتاب أكثر إغراء[1].

وهناك بالفعل إثنان من الإدعاءات هنا:

إحداها وصفية والأخرى توجيهية، الأولى ترى ان العلماء الجيدين لديهم في الحقيقة جراة وغير مقيدين في تفكيرهم.

والثانية تقول إنهم ينبغي عليهم ان يكونوا.

فييرابند لم يكن كما كان يصر في بعض الأحيان على أنه –عدو العلم–، هو كان عدوا لبعض أنواع من العلم في القرن السابع عشر، طبقا له، العلم كان صديقا للحرية والإبداع وكان معارضا بطوليا لقبضة المحبطة للكنيسة الكاثوليكية، فييرابند أعجب بالمغامرين العلميين في تلك الفترة وبوجه خاص جاليليو، لكن علم جاليليو لم يكن كعلم اليوم، فقد ذهب العلم من كونه حليفا للحرية إلى كونه عدوا، فييرابند رأى توماس كون على أنه يشجع أسوأ الاتجاهات السائدة في علوم القرن العشرين نحو الاحتراف، وضيق الأفق واستبعاد الأفكار غير التقليدية في الصفحات الختامية لـ: ضد المنهج هو يعلن أن المجتمع

---

[1]- Robert Delete : Paul Feyerbend, *The Trannt of science*, *Philosophy in Review* , XXXI, 2011; P1.

الآن لديه لكي يكون حرا من التخلص من سيطرة المؤسسة العلمية المستبدة، تماما كما فعل مرة واحدة لكي يكون حرا من سيطرة الدين الصحيح.[1]

النتيجة الأكثر أهمية هي أنه ينبغي أن يكون ثمة إنفصال شكلي بين الدولة والعلم، تماما كما يوجد الآن انفصال شكلي بين الدولة والكنيسة، إذ ينبغي أن يكون للعلم تاثير على المجتمع ولكن فقط بالقدر الذي يسمح لأي سياسي أو زمرة ضغط أخرى أن يكون لها مثل ذلك التأثير، فقط يستشار العلماء في المشروعات المهمة، ولكن القرار النهائي ينبغي أن يترك لمؤسسات استشارية منتخبة بصورة ديمقراطية، وأ ن تكون تلك المؤسسات مؤلفة في معظمها من أناس عاديين.[2]

ولكن هل يستطيع الرجل العادي التوصل إلى قرار صحيح ؟ بكل تأكيد لأن مقدرة وتعقيدات ونجاحات العلم مبالغ فيها إلى حد كبير. فمن أكثر الخبرات التي يمكن أن تبعث فينا البهجة والسرور هي أن نرى أحد المحامين، وهو رجل عادي يكشف عن ثغرات في شهادة لفقها أكبر المتخصصين دراية في ذلك، فيهيئ بهذا الكشف هيئة المحلفين باستصدار قرارها الصحيح، إن العلم ليس كتابا مغلقا، لا يمكن فهمه إلا بعد سنوات من التدريب، وإنما هو نظام عقلي، يمكن أن يختبره وينتقده أي شخص معني بالأمر أما أن العلم بحر يصعب سبر أغواره، فذلك راجع الى الحملة المنظمة التي يشنها العديد من العلماؤء (ومن دواعي سروري انهم ليسوا جميعا) للتشويش علينا وإدخال ذلك في روعنا، ولا ينبغي أبدا أن يتردد رجال الدولة في معارضة قرار العلماء، إذا ما توافر لديهم

---

[1]- Robert Delete : Paul Feyerbend, *The Trannt of science*, PP 1-2.

[2]- إيان هاكينغ: الثورات العلمية، ص 238.

دليل على فعل ذلك، فمثل هذه المعارضة سيكون لها تأثير عظيم في تهذيب القاعدة العريضة من الشعب، ولسوف تجعل الشعب أكثر ثقة بنفسه، وقد تؤدي أيضا إلى الإصلاح[1].

ونحن نتفق مع ما يراه فييرابند في أن يخضع أولئك الذين يسمون بالخبراء إلى الاستجواب أمام محكمة منوطة بكشف ملابسات ما أتخذوه من أراء وفي ذلك يقول: ذلك أنه يمكن إكتشاف أخطاء المتخصصين عن طريق أناس عاديين بشرط محاولة أن يكونوا مستعدين لـ "القيام بعمل شاق ما"، وهو شرط أساسي لأي محاولة مرتجلة إذ يقتضي القانون أن يخضع الخبراء للاستجواب وأن تكون شهاداتهم موضوعا لحكم هيئة المحلفين، وبتحقيق هذا المطلب يفترض أن يكون الخبراء إنسانيين أولا وقبل كل شيء، ذلك أنهم عرضة للواقع في أخطاء حتى في مجال تخصصهم الدقيق، ذلك أنهم يحاولون أن يغطوا على أي مصدر لعدم اليقين الذي يمكن أن يقل من تصديق أفكارهم حيث أن خبرتهم كما يحاولون دائما أن يوهمونا بعيدة المنال كما أنه يفترض أيضا أن يكون في مقدور الإنسان العادي، أن يتحصل على المعرفة الضرورية لفهم إجراءاتهم واكتشاف أخطائهم.[2]

ويتأكد هذا الفرض بمحاولة بعد الأخرى، حيث إن العلماء المغرورين والمفزوعين والمدججين بأسلحة الدرجات الفخرية، والكراسي الجامعية، ومناصب الجمعيات العلمية لابد من عرقلتهم عن طريق محامي، لديه موهبة قذرة في القدرة على تفقد الجزء الأكثر تأثيرا من اللغة الاصطلاحية، وأن يكشف عن الجهل المطبق اللامحدود، الذي يقبع خلف التظاهر المبهر بكل شيء: فليس العلم ببعيد المنال عن الذكاء الطبيعي للجنس البشري وأقترح أن يطبق هذا الذكاء على كل المسائل الاجتماعية التي هي في أيدي الخبراء[3].

---

[1]- إيان هاكينغ: الثورات العلمية، ص 238.

[2]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص ص 115-116.

[3]-بول فييرابند: العلم في مجتمع حر ، ص 116.

ومن الأمور الأخرى التي يُعترض فيها على فييرابند، هو تأكيده على أهمية الأساطير في مقابل النظريات العلمية، وزعمه أن الأساطير أكثر صدقا من أكثر النظريات العلمية تقدما، فنحن لا ننكر أهمية الأسطورة كأحد المنابع الأساسية للايدولوجيات كافة بما فيها العلم، غير أن فييرابند لا يساوي فقط بين أهمية الأسطورة والعلم، وإنما يذهب إلى أن: "إنجازات واضعي الأسطورة في العصور السابقة أفضل من إنجازات العلماء في العصور كافة وأن مخترعي الأسطورة الأوائل بدأوا الحضارة، بينما اكتفى العلماء بتغييرها وليس على الأفضل دائما"[1]

– وهكذا يرفض "فييرابند" معايير التمييز التقليدية بين العلم واللاعلم، سواء وصفناها بالعقلية أو الحسية أو التكذيبية أو غير ذلك، ويتعبرها غير كافية وقابلة للتطوير، ذلك أنه نسبية فلا يمكن أن نصفها بالصرامة والقطعية، وعليه فلا معايير شمولية ومطلقة وثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وعليه فيجب نقد فكرة تقديس العلم، فهو مجرد جهد بشري قابل للتصحيح والنقض، ولا أحد معصوم لا العلم ولا العالم، وأن العلم يتغير مفهومه بين الشرق والغرب، فعن أي تقديس وتكذيب وعقلانية نتكلم. وانما هو طغيان العلم الغربي الباحث عن السيطرة على المفهوم العلمي للمعرفة وأنه غربي محض، وهذا يكذبه تاريخ العلم نفسه، فبعض الثاقة هي علم يستعمله الانسان في حل مشاكله وهو غير قابل لكل المناهج التي يزعمها الغرب، وعليه فنجد "فييرابند" يقدم نظرة جديدة في التمييز بين العلم واللاعلم تتجاوز المعايير التقليدية، وأن التمييز يعتمد على السياق وليس على المناهج الغربية المعرفوة مثل العقلانية الغربية والتكذيب ونحوهما.

---

[1]– بول فييرابند: ثلاث محاورات في المعرفة، ص ص 30-31.

المبحث الثالث: رؤية فييرابند للمنهج العلمي

يرى أن المدافعين عن العلم يستندون إلى أساسيتين: منهج العلم، نتائج العلم.

1. **منهج العلم**: هو ما يرتب العملية العلمية ويضع لها قواعد وحدود.

2. **نتائج العلم**: ما يضع العلم في منطقة النفي المعرفي بشكل منفصل عن أية معارف أخرى أو فاعليات غير علمية، لكن هذان الأساسيتين يتحطمان في حالات كثيرة بتاريخ العلم من ضمنها غاليلو تنتقصك فيها المنهجية وتكون النتيجة عملية ناجحة تساعد في تطور العلم.

- لا توجد نظرية علمية واحدة لا تدين ولو بالقليل لإجراءات غير علمية ويحدث كثيرا أن سينفي عالم ما بدون نظرية من الاسطورة.

- يختلف فييرابند عن كل نقد سابق للعلم.

- بوي انتقد الوضعية المنطقية وقدم القابلية للتكذيب.

- كون انتقد ما سبق وقدم نموذج الارشاد.

- لاكاتوس قدم برامج البحث.

- لاودن قدم تقاليد البحث.

- قدم "فييرابند" النقد فقط من دون أي نظرية عن المنهجية العلمية في خلفية عقله وهذا هو ما أعطى نقده ذلك المس السخيف الذي طال المجتمع.

– العلم إنما هو أيديولوجيا ضمن إيديولوجيات متعددة وينبغي فصله تماما عن الدولة مثلما يعتبر الدين الآن منفصلا عن الدولة.

– فتعددية المنهجية حطم به كل ما هو مقدس في المشروع العلمي.

– يعتبر فييرابند أن الحقائق العلمية اصبحت تدرس للطلبة كما كانت حقائق الدين تدرس لهم قبل قرن، هي ممنوعة من النقد وبعيدة عن الشك والتأمل.

– يرى فييرابند أن الحقائق العلمية له وجهة نظر أخرى بجانب الحياة كالحرية فحياة البشر توجهها العديد من الأفكار.

– ممكن أن نحصر الحقائق في سبيل الحرية.

من المعلوم أن نهج فييرابند نقده للعقل والعقلانية والعلم والمنهج والنظريات وكذا المعايير، وكل ما له علاقة بقواعد الأنساق والمنطق هذا ما ظهر جليا في كتابه ضد المنهج، أراد أن يؤسس ايستمولوجيا جديدة تناقض الأحادية الفكرية لا تعترف بالصرامة المنهجية ولا بالسير والتقيد بالطريق الواحد، إنه يدعو إلى الانفتاح على العالم، دعوة لإعادة الاعتبار للنشاط الانساني بكل ابعاده الروحية، المادية، الاجتماعية، الثقافية، انها دعوة للتشييد والتركيب.

علينا أن نفرق بين الخبرة المباشرة Experience والمذهب التجريبي Empiricism، فالخبرة هي ما نشاهده ونلاحظه عندما ندخل مناطق لم تكن معروفة بعد، أما المذهب التجريبي فهو فلسفة أو رؤية كونية تقول أنه عندما تستعمل الخبرة بشكل مناسب ستخبرنا بالضبط عن ما يتكون من العالم[1].

[1]– بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص 83.

كما أن الذين يقولون أن العلم يحدد طبيعة الحقيقة يفترضون أن العلم يتحدث بصوت واحد، يعتقدون أن هذا الوحش (أي العلم) حين يتحدث ينطق ويكرر ويعيد مرة أخرى رسالة واحدة متماسكة، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، فالعلوم المختلفة تملك ايديولوجيات مختلفة جدا، هنالك البيولوجيا الجزيئية وقد أخبرتكم ما يعتقده أحد ممارسيها ولكن هناك أيضا المرونة Elasticity، فما الرؤية الكونية ؟

الإجابة عن معنى فكرة "الرؤية الكونية" أمر يصعب الإجابة عنه، فبعض الناس يعتبرون المرونة موضوعا هامشيا، والذي هو في الأحوال الطبيعية، خاصة من فيزياء الجسيمات الأولية، ولكن لم يبد أحد اهتماما حقيقيا، لا أحد (من بين الناس الذين أتحدث عنهم).

يقول آخرون أن نظرية المرونة موضوع مستقل، وأن درجة ضعفه في صلته بفيزياء الجسيمات الأولية مثل ضعف صلة الكتاب المقدس بها هنالك علماء أصدروا تخمينات واعتبروها جزءا مما وراء الطبيعة وكثير من العلماء الذين لديهم هذه العقيدة تجنبوا النظرية النسبية العامة، ثم هناك المخمنون الذين لا يهتمون مطلقا بتفاصيل الدليل، فيوجد في علم البيولوجيا تجريبيون متشددون ولكن لا يوجد أمثالهم أيضا في علم الكونيات، وهامبرزوميان Ambarzumyan هو أحدهم، وكذلك هالتون أوب Halton Ar.b، علماء البيولوجيا الجزئية موضوعيون بالمعنى البسيط للكلمة لهم المكونات الاساسية موجودة في العالم سواء أرأيتها أم لم تراها لكن هذه الفكرة تختلف عما توصل إليه علم ميكانيك الكم، إذا يقرر أن نتائجك تعتمد على الاجراءات التي نتبعها، وهكذا، فكما ترون العلوم في نزاع مطلق، وهذا الوحش (العلم) الذي يتحدث بصوت واحد، هو محصلة تجميع شيده أصحاب معتقدات وأختزاليون ومعلمون[1].

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم:ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص 83.

أنا مقتنع بأن فيلسوف العلم الذي يعتقد بقوانين العلم ومجابهة تاريخ العلم بكل روعته سيصدم إلى درجة أن يقول أن العلم هو لا سلطوية تامة.[1]

سعى العلم إلى تحسين مصير الانسان فوق الأرض وهو هدف يمكن بلوغه بجمع عدد من الوقائع عن طريق ملاحظة منهجية تتولد عنها نظريات.

فمن المفيد أيما فائدة مثلا أن يقوم بأبحاث لتفسير صعود الوضعية المنطقية التي نشأت فينا في السنوات العشر الأولى من هذا القرن وأصبحت شعبية جدا ولا زالت تتمتع اليوم بتأثير كبير، وقد كانت الوضعية المنطقية تمثل شكلا أقصى لاختبارية التي ترى أن تبرير النظريات لا يرتبط بالتحقق منها انطلاقا من وقائع تمدنا بها الملاحظة فحسب بل يرتبط بكونها لا تحمل من معنى إلا إذا وجدت مصدرها وأصلها في تلك الوقائع ويحمل نجاح النزعة الوضعية في رأيي سمتين ملغزتين.

أما السمة الأولى فترتبط بظهور الفيزياء الكوانطية ونظرية النسبية، وأما السمة الثانية فهي أن كتابين ظهر في سنة 1934، مناهضتين للنزعة الوضعية بكيفية مقنعة كل الاقناع، أخرج الأول كارل بوبر بفينا والثني ياشلار بفرنسا ولم يد ظهورهما من حد النزعة الوضعية والواقع أما كتابي ياشلار لم يكادا يثيران انتباه احد ولم يحظيا بالاهتمام الذي يستحقانه إلا في فترة متأخرة.[2]

– فنفهم مما سبق بأن "فييرابند" قدم نظرة جديدة للمنهج العلمي، ورفض فكرة المنهج العلمي الواحد، وقدم بديلا من ذلك تمثل في رؤية أكثر فوضوية وتنوعا، فانتقد الأسس التي

---

[1]– بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص 83.

[2]– ألان شالمرز، نظريات العلم، ص 13 .

يستند اليها المدافعون عن العلم، ومثل لفكرته بحالة "غاليلو" كدليل على العلم يتقدم في غياب المنهجية، وأن النتائج العلمية تكون صحيحة وربما أدق من تلك التي تعتمد على المناهج التقليدية، وهنا يشير الى "الأسطورة" وانها منبع النظريات العلمية، وأساس العلم الذي اليوم ينتقد الاسطورة ويضحك عليها باسم المعرفة، بل الأساطير لعبت دورا محوريا في نشأة العلم وتطوره عبر التاريخ، فانتقد "فييرابند" كل من "بوبر وكون ولاكاتوس" دون أن يقدم نظرية علمية بديلة وترك ذلك للسياق التاريخي. وهذا لأنه حاول التشبيه بين العلم والدين، وتناول نماذج الصراع بينهما، فقارن بين تدريس الدين والعلم للطلاب، وأن كلاهما يُقدم على أنه حقائق مطلقة لا يجوز نقدهما، ويزعم العلماء أن العلم هكذا يجب تدريسه، وهم في الحقيقة لاهوتيين مثل علماء الدين تماما، وكان يجب معرفة نسبية الحقيقة العلمية واخضاع العلم للنقد، فعاب على العلماء نقدهم للدين والاسطورة دون العلم.

المبحث الرابع: هجوم فييرابند على العلم

لاقت فلسفة العلم في عصورها المختلفة الكثير من وجهات النظر حيث تنوعت ما بين الاعجاب والتقديس، واحيانا أخرى إلى الازدراء والنقد والهجوم، إلا أنها تعرضت على يد فيلسوف العلم "بول كارل فييرابند" لهجوم عنيف على العلم وعلى منهجه، وقد ظهر ذلك جليا من خلال كتابه (ضد المنهج) Against Method، الذي هاجم فيه فييرابند العلم والمنهج العلمي، بل ادعى أنه ليس هناك منهج علمي أساسا، ولعل ذلك يجعلنا نمضي قدما إلى الكشف عن ماهية ذلك الكتاب، وطبيعة الآراء الواردة فيه، فما هي إذن طبيعة المنهج العلمي عند فييرابند في ضوء كتابه ضد المنهج؟

بدأت "يمني طريف الخولي" حديثها عن "فييرابند" بالقول: "ربما كان من أهم هؤلاء وأكثرهم بروزا واستحقاقا للذكر، فيلسوف العلم الثائر المشاغب بول كارل فييرابند الذي يمثل ظاهرة فريدة حقا في فلسفة العلم والفلسفة بأسرها، والحضارة الغربية ذاتها، يريد أن يحمي العلم من سمفونية الروح العلمية وطغيانها... فقد كتب فييرابند مجموعة من المقالات والكتب في فلسفة العلم، لعل من أهمها وأكثرها إثارة للنقد هو كتابه (ضد المنهج): مخطط تمهيدي لنظرية فوضوية[*] في المعرفة Against Method -Outline of an Anarchistic Theory of Knowledge، صدرت طبعته الأولى عام 1975، فما هي الدعوى الاساسية لهذا الكتاب؟

الدعوى الأساسية لهذا الكتاب هي تأكيد لتلك المحصلة، وهي أن السؤال عن المنهج سؤال زائف، وأن العلم لم يكن أبدا صاحب منهج واحد، بل هو "مشروع فوضوي" "Anarchie Enterpris"، أي لا يعترف بأي سلطة، وكل المناهج لا يمكن أن تجدى فيه[1].

ويرفض فييرابند الرأي القائل بتفوق العلم على باقي التقاليد الإنسانية الأخرى فهو لا يمثل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية، ولا يمكنه أن يشكل نموذجا للمعقولية، بل هو مجرد تقليد من بين تقاليد متعددة، باعتبار أن العلم هو نشاط إنساني مرتبط بالفعاليات ونشاطات غير علمية يتفاعل معها ويستفيد منها، كونه عرضة للنقد والتمحيص والخطأ أحيانا، ذلك أن المجتمع مساهم في بناء العلم، والمجتمع نسبي المعرفة والإدراك، فلا يمكن للعلم والحال هكذا أن يكون أرقى أشكال المعرفة. ومن هنا يقول فييرابند: "فالواقع أن للعلم نتائج تحسب لأفضاله فقط، لو أن العلم وحده هو الذي أحرز هذه النتائج بدون أي مساعدة خارجية، بيد أننا إذا ألقينا بنظرة فاحصة على تاريخ العلم تبين لنا أن نه من الصعوبة بمكان أن يتوصل العلم الى تلك النتائج[2].

يستقي فييرابند أمثلة تدعيمية لأفكاره من تاريخ العلم، واعيا في تبيان فكرة مهمة مفادها عدم الحكم المسبق على أي شكل من أشكال المعرفة دون معرفة قيمتها، فالحكم

(*)- الفوضوية: هي مذهب معاد لسلطة الدولة ورافض لوجودها، يرى اصحاب هذا المذهب وأشهرهم:
الروسيان: باكونين Bakounine ، و كروبتكين Kropotkine والفرنسيان : جان غراف Jean Grave واليزي ركلوس Elisee Reclus، أنّ:
الدولة هي الشر الأعظم، وأن الفرد هو القيمة المثلى والعليا التي ينبغي الاهتمام بها، فكل طاعة في رأهم خذلان وتحطيم للشخصية، كما أن الثورة ضد كل سلطة إثبات لشخصية الفرد ورفع من شأنها وقيمها.
أنظر في ذلك: جلال الدين سعيد: معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تونس، دار الجنوب للنشر، 2004، ص 347 .

(1)- يمني طريف خولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، (الأصول،الحصاد، الآفاق المستقبيلية، ص ص " 42 – 422.

(2)- بول فييرابند: العلم في المجتمع الحر، ص 92.

أو القول على أن معرفة ما ليست علمية هو قائم على التقليد السائد والفحص السطحي، وكتب فييرابند متحدثا عن لاكاتوس: بعد أن أنهي وأتم إعادة بناء علم بناء العلم الحديث أخذ يسخر نتائج هذا العلم ضد ميادين المعرفة الأخرى وكأنه أمر ثابت كونه العلم الحديث أرقى من السحر، أو من العلم الارسطي وأن نتائجه وهمية، إننا لا نجد فيه على الرغم مما في هذه الأمور من اشكالات أدنى أثر لمناقشة هذا الموضوع، إن ما اسماه إعادة البناء العقلي لتغيير الحكمة العلمية الأساسية، ومن قبل المكتسبات النهائية وذلك دون أن نبرهن على الحكمة أرقى من الحكمة الأساسية التي يمتلكها الساحرات والسحرة "[1].

وفي موضع آخر كان الهدف من كتاب "ضد المنهج" الذي لاحظه فييرابند مؤخرا، كان لتحرير الأفراد من الطغيان الفلسفي لمفاهيم مثل الحقيقة Truth، والموضوعية Objectivity[2].

أما عن فكرة كتاب (ضد المنهج) فنجد إمري لاكاتوس وهو صديق فييرابند الفكري وزميله في الفوضوية والتعددية، وظل رفيقه الأثير حتى آخر العمر، قد انتحى به جانبا في حفل العام 1972، وقال له:

"إنك (بول) لديك أفكار مدهشة، لماذا لا تسجلها واكتب أنا ردا عليها، وننشر هذا وذاك في عمل واحد، وأعدك بأنه سيكون مبعث سرور لكلينا"، ففعل فييرابند وأرسل المخطوطة إلى لاكاتوس في لندن، لكنها ضاعت لأسباب مجهولة، وقد أعادها الإنتربول وراجعها فييرابند وفور انتهائه من صياغة جديدة لها في عام 1974، اختطفت حادث السيارة إمري

---

[1]- آلان شالمرز: نظريات العلم، ص 135 .

[2]- Paul feyerabend: *Conquest of Abundanc* : A Tale of Abstraction versus the Richness of Being. Edited by Bert Terpstra . the Univerity of Chicago press . chicago and london. 1999 – P viii .

لا كاتوش وأجهض التشارك المزمع بينهما، فصدرت هذه الافكار في كتاب "ضد المنهج" بصورته المعروفة لفييرابند الذي ظل دائما يرجع آيات الثناء الجميل لذكرى رفيقه، وقد رأينا هذا الرفيق – امري لاكاتوس– تلميذ مخلصا لبوبر، قيل عنه إنه بعض الجوانب "أكثر بوبرية من بوبر نفسه"[1].

ولعل تمرد "فييرابند" على المنهج، قد أيقظه فيه أستاذه وصديقه (بوبر) الذي سيتحول لا حقا إلى غريمه وعدوه اللدود، عندما يصرح بعدم وجود منهج محدد، إذ يقول "بوبر":

"إذا حاول أحدكم أن يفكر في منهج علمي يقوده إلى النجاح فلا بد أن يصاب بخيبة أمل، ليس هناك طريق ملكي للنجاح، وأيضا إذا حاول أحد أن يفكر في منهج علمي كطريق لتبرير النظريات العلمية، فسيصاب أيضا بخيبة أمل، النظريات العلمية لا يمكن أن تبرر، انها فقط تنقد وتختبر "[2].

من خلال هذه العبارة نجد أن فييرابند قد أشار إلى تأثره بكارل بوبر في رفضه للمنهج العلمي، في حين أن كارل بوبر لم يرفض المنهج العلمي ابدا، وإنما رفض منهج الوضعية المنطقية كطريق لتبرير صحة النظريات العلمية، وقدم منهجه التكذيبي كشرط لقبول أو رفض النظريات العلمية.

يعارض فييرابند أي مبدأ أو منهج يتسح بالمنطق والعقل في إيجاد الطريق المناسب للوصول إلى الحقيقة، فلا يوجد منهج ثابت كلي ولا يمكن أن يلتزم الباحث بجملة القواعد والاجراءات التي تقيد فكره وتجعله يشتغل داخل نسق معين يحد من ابداعاته، لذلك دعى

---

[1]– يمني طريف الخولي: فلسفة العلوم في القرن العشرين، ص 422 .

[2]– علي هري: البرمجة عند لاكاتوس، ص 251.

فييرابند إلى التحرر من كل قيود المنهج حتى يتسنى للعلماء الاستفادة من تجاربهم المتنوعة ضاربا عرض الحائط كل ما يمكن حصر الحقائق داخل أسوار المنهج مستعرضا كل الانجازات التي تمت فالعلم لم تكن وليدة المعايير المحددة والمقاييس بل نتيجة لخيال الاتساق الحر المبدع وتصوراته القبلية.

فضرورة الالتزام بالمنهج عائقا يحد من قدرات العقل وتثبيط عزيمة الخيال في الابداع ويجعل العقل حبيس المعايير والقواعد المنهجية، فرفض بذلك المنهج الكلي وجميع العقلانيات التي تستند اليه إذ يقول: "إن فكرة منهج كلمي راسخ والتي تعد مقياسا ثابتا للوفاء بالمراد، بل وحي الفكرة التي تقول للعقلانية كلية راسخة، إنما هي فكرة غير واقعية، مثلها في ذلك مثل الفكرة التي تقول بأداة قياس راسخة يمكنها أن تقيس أي كتلة من دون أي اعتبار إلى الظروف المحيطة بها"[1].

وقد نشر Matteo Motterlini (1967-)، بعد وفاة (فييرابند) سلسلة المحاورات التي دارت بين (لاكاتوس) و(فييرابند) المعنونة بـ: (مع وضد المنهج) For and Against Method، ويبين هذا الكتاب العلاقة الفكرية بين" لاكاتوس" و(فييرابند)، من خلال مجموعة من الكتابات غير المنشورة حتى الآن من أرشيف أستاذ (امري لاكاتوس) من المكتبة البريطانية للعلوم السياسية والاقتصادية، أول هذه الكتابات هو نسخة من سلسلة محاضرات عن المنهج العلمي Lectures on Scientific Method، التي عقدها (لاكاتوس) في لندن كلية الاقتصاد في الفترة من يناير- مارس من عام 1973، مما يعطي في الواقع رأيه النهائي حول هذا الموضوع.

---

[1]- شارلر هواري: فلسفة اللامعقول عند فييرابند، ص 193.

تأتي رسائل فييرابند حول الفوضوية Feyerabend's Theses on Anarchism، (1973) والتالي تحتوي على رسم لهجوم فييرابند على الموقف العقلاني قال انه في وقت لا حق سيأتي شرحه في كتابه ضد المنهج ... وبعد ذلك تأتي مراسلات " فييرابند" ولاكاتوس المتبادلة بين ديسمبر 1967 وفبراير 1974، تبين بوضوح أن تصريحات فييرابند هي أبعد ما تكون عن الخطاب فقط، لكل آرائه هنا ومعارضتها باستمرار ومناقشتها من قبل لاكاتوس حتى يصل إلى أيامه الأخيرة جدا[1].

إن فييرابند لا يتحدث عن المنهج و إنما يستعمل شعاره المعروف كل شيء جائز، لمناهضة المنهج المستمد من قبل العقلانيين المعاصرين ورغم ذلك لا يعتبر هذا الشعار مبدأ حيث يقول: " كل شيء جائز ليس مبدأ تمسكت به، لا أعتقد أن المبادئ يمكن استعمالها ويمكن إثراء المناقشة حولها حالة البحث الثابتة المفترضة للتأثير ولكنه التفسير المرعب للعقلاني الذي يعطي نظرة مغلقة للتاريخ"[2]، بمعنى أن شعاره لم يأت بديلا للمبادئ الراسخة.

إن الممارسة الواقعية للعلم تفترض وجود مناهج متعددة تتماشى وطبيعة الموضوع دراسة والقول بالمنهج الواحد في العلم يؤدي حتما إلى تقليص مساحة العلم ذاته ويهدد كيانه ويجعله غير قادر على مواجهة واقتحام الافكار والتصورات والتقاليد اللامعقولة فيحرمنا من الكثير من النظريات التي قد يحالفها الصواب في توسيع معارفنا فليس هناك منهج شامل صالح لكل الممارسات العلمية التي تفرض على الباحث أن يكون قادرا على معرفة التفاصيل وجزئيات البحث حتى يتمكن من الوصول إلى نتيجة، وإلى حكم منظم للمعايير الموجودة والقدرة على ابداع معايير أخرى جديدة بقول فييرابند: " ليس هو هدفي

---

[1]- Paul Feyerabend . *For and Against Method*. University of Chicago press 1998 p 2.
[2]- Ibid, P 111.

هو اقناع القارئ أن كل المناهج وحتى أكثر وضوحا لها حدود، وأفضل طريقة لتوضيح ذلك هو تحديد الحدود وعدم عقلانية بعض القواعد التي ينظر إليها على أنها أساسية"[1].

ونجد أن (فييرابند) في كتابه Against Method، سنة 1975، قد انتقد كل تقاليد فلسفة العلوم منذ (بيكون)، وحث على الوضعية الأكثر قبولا في العلم تتمثل في الفوضى الابستمولوجية ... فقد لاحظ (فييرابند) أن تقاليد التربية العلمية تحت سيطرة المنهج التجريبي، فرضت على الباحثين مجموعة من القواعد الشاملة والدائمة، رأتها بمثابة السيرة الحسنة، وعملت على تكوين عادة علمية تمثلت في ممارسة العلم كوحدة، هذه الملاحظة دفعت " فييرابند " إلى الإقرار (بالنفي) فالعلم هو مشروع فوضوي، الفوضوية لها امتياز انشائي يشجع على التطور أكثر من المذاهب المؤسسة على القانون والنظام[2].

فقد رأى فييرابند أن العلم مشروع فوضوي، وليس هناك ما يميز العلم عن باقي الأشياء، حيث نجد فييرابند في كتابه الشهير (ضد المنهج) يقول: "العلم بشكل أساس مدخل فوضوي: الفوضوية النظرية أكثر إنسانية واكثر تعرضا على تشجيع التقدم عن البدائل ذات القوانين والنظم"[3].

يبدأ فييرابند حديثه بالهجوم على العلم، وتبني مبدأ الفوضوي في رؤيته للعلم ومحاولة السيطرة عليه، حيث يرفض العقلانية والقوانين، ولذلك نجده يتبنى مبدأه الشهير: (كل شيء مباح) أي القول بكل المناهج والأشياء التي تساعد في تطور العلم، حتى وإن كانت ذات

---

[1]- بول فييرابند: ضد المنهج، ص 48.

[2]- عثمان عي: بنية المعرفة العلمية عند غاستون باشلار، رسالة الماجستر غير منشورة، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، 2008 ص ص : 59-60.

[3]- Paul Feyerabend : *Against Method* . third edition . Rome.1992 P – 9.

طبيعة غير عقلانية وفوضوية. ويضيف "لقد كتبت المقال التالي على اقتناع بأن الفوضوية، في حين أنها ربما لا تكون أكثر الفلسفات السياسية جاذبية، فهي بالتأكيد علاج ممتاز للاستيمولوجيا وفلسفة العلم، ولمعرفة سبب ذلك أن التاريخ بوجه عام والثورات بوجه خاص أغنى دائما وأكثر تنوعا وتعددا للجوانب واكثر حيوية، عما قد يتخيله أفضل المؤرخين والمنهجيين"[1].

إذا تأملنا في هذه الفقرة بعناية سوف نجد أنها قد تضمنت في داخلها فلسفة فييرابند Feyerabend's Positive Philosophy، وأيضا ما يجده فييرابند قابلا للاعتراض حول الفلسفة و النظريات العقلانية Theories of Rationality، ويح كذلك أن الفوضوية علاج ممتاز للإبستيمولوجيا وفلسفة العلم: الإبستيمولوجيا وفلسفة العلم مريضة والفوضوية سوف تعالج هذا الوضع، هذه الطريقة للتعبير عن آراءه مهمة للغاية، ونحن نكون أفضل عندما لا نستمر في أخذ الدواء، نحن يمكننا أن نرى أن الإبستيمولوجيا الصحية Healthy Epistemology، سوف تكون وحدة مركبة بدلا من بسيطة، متعددة بدلا من موحدة، سياقية بدلا من كونها مستقلة عن السياق والعالم ومستجابة للحالات الخاصة في التاريخ التي من المفترض ألا تكون قابلة للتغير ومؤقتة[2].

وهنا يجدر بنا التساؤل، هل من الممكن أن تكون الفوضى في المنهج علاجا للفلسفة عامة، ولفلسفة العلم خاصة ؟ فما هي إذن أسانيد فييرابند على ذلك ؟ لقد كانت أسانيد فييرابند الاساسية على ذلك تكمن في فحص تسلسل الأحداث الكبرى التي شغلت تاريخ العلم، ليوضح أنها لم تأتي عن طريق منهج واحد محدد، بل مناهج متعددة وانكب فييرابند

---

[1]- Ibid .Op.cit. same page .

[2]- Robert. P . Farell :*Feyerabend and Scientific Values* . tightrope- walking Rationality .vol . 235 . Kluwer Academic Publishers . Australia . 2003 p – p – 5 -6 .

على تأكيد التعددية المنهجية، كل منهج مقبول على الرحب والسعة مادام يلائم طبيعة المشكلة المطروحة للبحث فيؤدي غلى حلها والإضافة الى رصيد العلمي، أما تكبير البحث العلمي بمنهج واحد محدد فهو ضد الإبداع يخنق روحه الضرورية للإنجاز في العلم[1].

على اعتبار أن الفوضوية إشارة ضد المعايير الثابتة وكذا النظرية غير التاريخية للعلم وصدارته هي وسيلة للتقدم، ويقول في هذا الصدد: "إن اطروحتي هي أن الفوضوية تساعد على تحقيق التقدم، مهما كان المعنى الذي يحرص على إعطائنا إياه، حتى أن أي قانون أو نظام للعلم لن ينجح إلا إذا سمح للحركات الفوضوية أحيانا أن تأخذها مكانها"[2].

بهذا تكون فوضوية منهجية إن صح المعنى وبها يكون تقدم العلم وازدهاره على عكس القواعد الصارمة، ويلوح فييرابند باللامنهج حسب الفوضوي، اللامنهج عند الفوضوي له حظ النجاح من أنه مجموعة من المعايير والقواعد أو التعليمات المحددة بدقة[3]، إن الشيء الوحيد الذي لا يعيق التقدم هو كل شيء جائز[4].

والطريقة المثلى لتقييد المعايير هي الاجراءات البحثية من أجل خرقها. ويوضح لنا فييرابند ما حفزه على تبني الفوضوية كمنهج لفلسفة العلم، حيث يقول فييرابند:

"إنني قد أجريت مناقشة مع الأستاذ (فون فايتسكر) Von Weizsacker عام 1965، عن أسس نظرية الكم فأوضح فون فايتسكر كيف أن ميكانيكا الكم قد نشأت من بحث متعين؟ في حين تذمرت أنا، على أسس منهجية من أن البدائل كانت قد

---

[1]– يمني طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، ص 425.

[2]- Paul Feyerabend, *Against Method* , p-18.

[3]- Feyerabend, *Contre la Méthode. esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance*, éditions du Seuil, Paris, 1979.

[4]- Paul Feyerabend : Against Method , p-04.

استبعدت وكانت الحجج مدعمة لتذمري مفحمة تماما، بيد أنه قد اتضح لي فجأة أن فرضها دون اعتبار للظروف قد جعلها عائقا أكثر من كونها معينة: إذ أن الشخص الذي يحاول أن يحل مشكلة سواء أكان ذلك في العلم أم في أي مجال آخر ينبغي أن يمنح كامل الحرية، ولا يمكن تقييده بأي مطالب، أو معايير مهما بدت معقولة بالنسبة إلى المنطقي، أو الفيلسوف الذي اعتقد فيها من خارج خصوصية دراسته، كما ينبغي أن تفحص المعايير والمطالب بواسطة البحث، وليس بواسطة الالتجاء إلى نظريات العقلانية ... وهكذا فقد تحمل الأستاذ (فون فايتسكر) المسؤولية الاولى لتغيري نحو "النزعة الفوضوية" على الرغم من أنه لم يكن مسرورا على الإطلاق عندما أخبرته بذلك عام 1977.[1]

ويمكن أن نرى أيضا أن فييرابند لا يعترف أن هناك شيئا اسمه العقلانية Rationality أو العقل، بدلا من ذلك، يرى فييرابند أن الطريقة المعينة للعقلانية التي يتم تصورها لنظرية خاصة للعقلانية، لم تؤد الوظيفة التي صممت من أجلها: حيث نجد التعقيدات والتقلبات وعدم القدرة على التنبؤ بالنشاط البشري، التي يتجنب شرحها في حدود النظرية العقلانية التي ينتقدها فييرابند.

يقول فييرابند في ذلك: "نيتي ليست استبدال مجموعة واحدة من القواعد العامة محل مجموعة أخرى ولكن نيتي بدلا من ذلك، هي اقناع القارئ بأن جميع المنهجيات حتى تلك الأكثر وضوحا لها حدودها، وأفضل وسيلة لمعرفة ذلك هي اظهار حدودها وفي حين نجد لا عقلانية بعض القواعد التي كانت أو أنها من المحتمل أن تكون أساسية"[2].

---

[1]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص ص 136 -137.

[2]- Robert . p, Farrell, : Op. cit , p 7.

ومن خلال هذا السياق نجد أن فييرابند يرى أنه على الرغم من مناهج العلم المتعددة فإنها محدودة، وهذا يؤكد أن فييرابند لا يرفض المنهج العلمي ولا يدع إلى إلغائه كما يشاع عنه، ذلك أن كل منهج من المناهج السابقة قد اثبت قصوره في معالجة مشكلات معينة في تفسير النظريات العلمية ومع ذلك فييرابند لم يرفضها وإنما رأى أن لكل منها حدودها التي لا ينبغي أن نتخطاها.

وينتهي فييرابند من حديثه عن المنهج بقوله: "إن فكرة المنهج الثابت أو النظرية العقلانية الثابتة، تقوم على رؤية ساذجة جدا للإنسان وما يحيط به في المجتمع، ولهؤلاء الذين ينظرون للمادة الغنية التي يقدمها التاريخ، والذين لا ينوون إصابتها بالفقر، للإرضاء غرائزهم الأقل، وبحثهم عن الأمان الثقافي الذهني في شكل الوضوح والدقة و الموضوعية والحقيقة سوف يتضح أن هناك مبدأ واحد، يمكن الدفاع عنه، تحت كل الظروف وفي كل مراحل التطور البشري، وهو مبدأ: أي شيء يصلح أو "كله عادي" Any Thing goes،[1] فما معنى (كله عادي) الذي يروج له فييرابند بهذا القدر من الحماس؟

وتنقسم إجابة فييرابند إلى شقين:

الشق الاول: يتمثل في امتحان كل القواعد المنهجية التي تقدم بها الاستقرائيون والتكذيبيون وغيرهم أمام محكمة تاريخ العلم.

[1]- بول فييرابند: ضد المنهج، ص 39.

الشق الثاني: يتمثل في الجانب الايجابي المعياري من اطروحة فييرابند الجريئة، وهو أن مبدأ الفوضوي هو ما يجب أن يكون، وهو الذي سيكون في صالح المثل الأعلى الليبرالي الذي ننشده، وواحدية السلطة في العلم ليست في صالح العلم نفسه.[1]

ويستند فييرابند إلى تاريخ العلم ليبين لنا صعوبة الاحتكام إلى منهج علمي واحد، حيث يقول فييرابند: "إن فكرة المنهج التي تحتوي على مبادئ صارمة لإدارة العملية العلمية تلاقي صعوبة كبيرة عندما تواجه نتائج الابحاث التاريخية، ونجد انه لا توجد قاعدة واحدة معقولة قابلة للتفنيد، مهما كانت مؤسسة ابستمولوجيا، لا يتم اختراقها في وقت ما"[2]

ومن خلال هذه العبارة نجد فييرابند يلجأ كغيره من فلاسفة العلم مثل "كون" و"بوبر" إلى تاريخ العلم، حيث يقدم لنا امثلة على صحة دعواه في رفضه للمنهج العلمي وإظهار مدى قصوره، حيث ليس هناك منهج علمي كلي يحكم النظريات العلمية، فكل القواعد المنهجية، وإن حازت قدرا كبيرا من التبرير أو التحقق أو أيدتها قوانين الطبيعة سياتي عليها يوم وتنتهك.

وفي الواقع من الملامح المذهلة للمناقشات الحديثة في تاريخ العلم وفلسفته، إدراك أن الأحداث والتطورات، مثل ابتداع المذهب الذري قديما، والثورة الكوبرنيكية وظهور المذهب الذرى الحديث (النظرية الحركية، ونظرية التشتت، والكيمياء، والنظرية الكمية)، والظهور التدريجي للنظرية الموجية للضوء والتي حدثت فقط لأن بعض المفكرين إما قرروا عدم الالتزام

---

[1]- أحمد أنور أبو النور: ضد منهج إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة، ضمن كتاب قضايا العلوم الإنسانية إشكالية المنهج، الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، 1996، ص ص 194 -195.

[2]- بول فييرابند: ضد المنهج، ص 32.

بقواعد منهجية واضحة، أو لأنهم اخترقوا هذه القواعد[1]. ومن هنا يقرر فييرابند: "أن هذه الممارسة المتحررة، ليست فقط مجرد حقيقة في تاريخ العلم، وهي مطلقة للنمو المعرفي، وأن قاعدة سواء كانت ضرورية أم أساسية للعلم، هناك دائما ظروف لا ينصح فيها فقط بتجاهل القاعدة، بل بتطبيق مضادها" [2].

– وهكذا ينتقد "فييرابند" العلم، ويكتب "ضد المنهج" ويسعى إلى تقويض الأسس التي يقوم عليها العلم، ويشكك في واحدية المنهج العلمي، وقدم في هذا الكتاب أفكارا أكثر نقدية للعلم، ويدعوا فيه إلى الفوضوية المنهجية، ويرى بأن السؤال الزائف هو ذلك الذي يسأل عن منهج العلم، ويؤكد بأن العلم لا يتبع أبدا منهجا واحدا إذا أراد الحقيقة، وعبر التاريخ لم نرى منهجا موحدا، ومن هنا يرفض فكرة تفوق العلم على التقاليد الانسانية الأخرى، بمعنى أن العلم هو الآخر مجرد تقليد ثقافي يرتبط بالمجتمع، في فوضوية لا تعترف بأي سلطة، ودليل ذلك تاريخ العلم نفسه، فينتقد "لاكاتوس" الذي يسخر من نتائج ومناهج الحضارات الأخرى في العلم، وأنه بسببه ألف كتابه "ضد المنهج"، كما تأثر أيضا بـ"بوبر" في فكرة التكذيب، التي تعتبر أساسية في نقد المناهج التي تجعل نفسها مصدرا وحيدا من خلاله يتم البحث العلمي، فالالتزام بمنهج محدد يعيق العلم، وعليه ففكرة واحدية المنهج فكرة مثالية غير واقعية.

ومن خلال سلسلة المحاورات التي قامت بينه وبين لاكاتوس، تبين كيف تطور فييرابند معرفيا ومنهجيا وعلميا، تلك المحاورات التي نشرت بعد وفاته، وفيها قرر بصراحة مراده

---

[1]– بول فييرابند: ضد المنهج، ص 32..

[2]– نفسه، ص 32.

من العلم والمناهج ومفهومه لها وللثاقفة وللمعايير العلمية ونحو هذا، والتي أقر فيها بضرورة التنوع والتعدد المنهجي، وانتقاد التقاليد الابستمولوجية، وان العلم نفسه يشكل أساس مدخل فوضوي، ودليله هو تتبع لتاريخ العلم وفحصه له، فظهر بأن الاحداث الكبرى في تاريخ العلم لم تتأسس على مناهج معروفة، ومن هنا يجب امتحان القواعد العلمية باستمرار.

المبحث الخامس: الثقافة العلمية عند فييرابند

1. مفهوم الثقافية العلمية:

- يقال ثقف الرجل ثقافة: أي صار حاذقا.

- ثقفت الشيء: أي حذقته.

- الرجل المثقف: الحاذق الفهم.

- غلام ثقف: أي ذو فطنة وذكاء.

والمراد أنه: ثابت المعرفة بما يحتاج اليه، والثقافة Culture بالمعنى الخاص هي تنمية بعض الملكات العقلية، أو تسوية بعض الوظائف البدنية ومنها تثقيف العقل وتثقيف البدن ومنها الثقافة الرياضية والثقافة الأدبية أو الفلسفية والثقافة بالمعنى العام هي ما يتصل به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق وحس انتقادي وحكم صحيح أو هي التربية التي أدت إلى اكسابه هذه الصفات[1]

ويفرق بينها وبين الحضارة Civilization على أساس أن الأولى ذات طابع فردي، وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية، في حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعي ومادي[2]، واللفظ العربي مأخوذ من تثقيف الرمح أو تسويته، يقال تقف الرمح ويراد: قومه ونفض عنه الاعوجاج، وجعله أداة صالحة من أدوات الحرب، ثم اتسع معناه شيئا فشيئا، فأصبح المهارة في صناعة بعينها.[3]

---

[1]- جميل صليبيا: المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص 378.

[2]- إبراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1983، ص 58 .

[3]- مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2008، ص 229.

ولعله من الممكن اعتبار القرن الثامن عشر فترة تكون معنى كلمة الحديث، فإن كلمة ثقافة كانت قد أصبحت في عام 1700 لفظا قديما في التعبير الفرنسي، فقد ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر منحدرة Cultura اللاتينية التي تعني العناية الموكولة للحقل والماشية، وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة وفي بداية القرن السادس عشر، اقتصرت الكلمة عن الدلالة على حالة الشيء المحروث لتدل على فعل هو فلاحة الأرض، ولم يتكون المعنى المجازي إلا في منتصف القرن السادس عشر، إذ بات ممكنا أن تشير كلمة ثقافة حينذاك إلى تطوير كفاءة، أي الاستعمال بإنمائها.[1]

وقد قدم عالم الأنثروبولوجيا البريطاني " إدوارد بارنات تايلور " Edward Burnett Tylor (1832– 1917م) بأول تعريف للمفهوم الأنثولوجي للثقافة: إن "ثقافة " أو "الحضارة " موضوعة في معناها الأنثولوجي الأكثر اتساعا، هي هذا الفعل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان، بوصفه عضوا في المجتمع.[2]، أما بالنسبة إلى كلمة علم Science فهي مشتقة من الكلمة اللاتينية Scire، ومعناها يعرف " To Know" وعلى ذلك، فالعلم إذا نظرنا إليه في معنى فضفاض يدل على ما نعرفه، وعلى مجموع المعرفة الانسانية بأسرها، لكنا نستدرك أن العلم، وإن كان مرادفا للمعرفة، إلا أنه يتميز عنها بكونه مجموعة معارف تتصف بالوحدة والتعميم، ولا يلزم عن كون كل علم معرفة أن تكون كل معرفة علما[3]، ولعل ما يهمنا في تناولنا للثقافة العلمية هو بيان أوجه الصراع بين العلم والثقافة، وما أل إليه هذا الصراع.

---

[1]– دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: منير السعيداني، مراجعة: الطاهر لبيب، ط 1، بيروت، المنظمة العربية، للترجمة، 2008، ص ص 16– 17.

[2]– نفسه، ص ص 30 –31.

[3]– مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم: المدخل إلى مناهج البحث العلمي، ط 1، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1999، ص ص 22-21.

وترجع بداية الصراع بين العلم Science، وبين الإنسانيات إلى ما قبل عصر النهضة في أوربا، وقد اتخذت مظاهر هذا الصراع صورة حادة في بعض الأحيان، فتمثلت في تقفي الكنيسة الكاثوليكية لأصحاب الفكر العلمي، وإعدامهم في كثير من الاحوال فجاء عصر سارت فيه الثقافتان العلمية والأدبية، وكان ذلك خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، أو ما يسمى في تاريخ الفكر بعصر العقل The Age of Reason.[1]

ويذكر فييرابند بعض الشواهد التاريخية التي تبين ما آلت اليه بعض التصورات الدوغماتية والتوجهات المعيارية الاقصائية من مآسي وشرور للإنسانية حيث يقول: "لقد بشرت المسيحية بحب الجنس البشري وأحرقت وقتلت، وبشرت الثورة الفرنسية بالعقل والفضيلة وانتهت بمحيط من الدماء، وتأسست الولايات المتحدة الأمريكية على مبادئ الحرية والسعي إلى اسعاد الجميع ومع ذلك مارست العبودية والتمتع والإكراه[2]. وهو هنا يضرب مثالا بأن العلم يبشر بأشساء ولكنه لم يفعلها، يبشر بأنه سيجد نظرية كل شيء، وأنه السلطلة العليا، وأن العقلانية الغربية هي العلاقنية الوحيدة المفيدة للإنسانية، ولكن الواقع خلاف ذلك، فالعلم الإنساني شيء والإداعاءات الغربية شيء آخر. ومن هنا يشير للشرق ويبين فضله على الغرب بل وعلى الإنسانية، ذلك أن للثقافات والحضارات يمكن أن تؤثر وتتأثر في إطار تبادل ثقافي حر، يقول فييرابند: "يمكن للكاثوليك الرومان أن يستفيدوا من دراسة البوذية، ويمكن للأطباء أن يستفيدوا من السحر الإفريقي، ويمكن لعلماء النفس أن يستفيدوا من دراسة الطرق والأساليب التي يعتمدها الروائيين والممثلين في بناء الشخصيات، ويمكن للعلماء أن يستفيدوا من دراسة الطرق ووجهات النظر غير العلمية، وبوجه عام يمكن

---

[1]- عادل سلامة: الثقافتان، علم الفكر، العدد الرابع، المجلد الثاني، يناير فبراير مارس، 1972، ص 155.

[2]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 97 .

للحضارة الغربية أن تتعلم أمورا وأشياء كثيرة من اعتقادات وعادات، ومؤسسات الشعوب البدائية وغير الغربية"[1].

وبهذا أصبح العلم إذن سلاحا تحت إمرة مطالب الدولة تتفق عليه في سعة، فارضة عليه ايجاد حلول لمشاكلها في الانتاج والحرب، وراحت الدول تفرخ علماءها في معاهدها ومعاملها، كما أطلق العلم طاقات هائلة استخدمت اهداف لم يكن ينشدها العلماء، فأصبح عليهم ترويضها[2]. فبدلا من ترك العلم يسير سيره الطبيعي، لينفع الإنسانية، تحكمت فيه الدول وجيعلته يسير وفق مصالحها الخاصة، جعلته خادما للحرب بدلا من خدمة الإنسانية، جعلته مدمرا للضعيف والمجتمعات المتخلفة بدلا من حمايتها، أصبحت الإنسانية وحقوق الإنسان تعني الإنسان الغربي فقط دون الإنسان الشرقي.

ثم جاء بعد ذلك التطور العظيم في التكنولوجيا، والنظريات الأساسية في الكيمياء والطبيعة، والجيولوجيا، ذلك التطور الذي صاحب الانقلاب الصناعي خلال القرن الثامن عشر، وكان ذلك التطور ثوريا وشاملا، فأصبحت الفجوة بعيدة المدى بين العلم والانسانيات، فعاد الصراع مرة أخرى على أشده بين هاتين الثقافتين، ووصل إلى الذروة في القرن التاسع عشر حين استقطب أصحاب العلوم في ناحية نظرية داروين في التطور، واستقطب الأدباء، وأصحاب الإنسانيات في جانب آخر، وعلى رأسهم كاردنيال نيومان Cardinal Newman (1801–1890) الذي تزعم في القرن التاسع عشر ما سمي (بحركة أكسفورد) Oxford movement، وهي حركة رجعية كاثوليكية[3]، وآثار ذلك لا تزال إلى الآن، حيث تجد

---

[1]- P . Feyerbend, *Adieu la raison*, op-cit, p 29.

[2]– ملاح قنصوه: فلسفة العلم، دار التنوير للطباعة والنشر، 2000، ص 131.

[3]– عادل سلامة: الثقافتان، ص 156.

أصحاب العلوم المادية يحتقرون العلوم الإنسانية، وأصحاب الإنسانيات يحتقرون غلواء أنصار الماديات الذين بسببهم كانت الحروب العالمية.

فكان العلم في علاقة مضطربة إلى حد ما بغيره من أوجه الثقافة، بدليل محاكمة جاليلو (Galileo) (1757– 1828) ضد نظرة اسحاق نيوتن Isaac Newton (1564–1827 م) الميكانيكية للعالم، علاوة على نظرة الأدباء إلى العلم خلال العصر الفيكتوري شهدت نوعا من الاحتقان، فعلى سبيل المثال، يقول: جوزيف كراتش: "لقد خاب أملنا في المختبر، لا لأننا فقدنا إيماننا بحقيقة ما يتوصل إليه نتائج، وانما لأننا فقدنا إيمانا بقدرة هذه النتائج على مساعدتنا بالشكل الكامل الذي كنا نرتجيه"[1]، ولعل هذا النقد هو أبرز ما وجه إلى العلوم الطبيعية، من حيث إنها سبب معاناة الإنسان على الأرض، لاختراعها الأسلحة الفتاكة التي تدمر الإنسان، وإجرائها التجارب المحرمة التي تساعد الآخرين على ظلم الإنسان وانتهاك حقوقه.

ولكن الصراع ظل على أشده خلال القرن التاسع عشر، وتمثل ذلك في محاضرة "ماثيو أرنولد" Matthew Aronld (1822–1888) التي ألقاها في كيمبريدج عام 1882 تحت عنوان "العلم والأدب" Science and Literatura، التي رد فيها على العالم التطوري (توماس هكسلي)[*] Thomas Huxlex (1825 –1895)، وكان هكسلي قد ألقى محاضرة بعنوان "الثقافة والتعليم " Culture and Education، طالب فيها بأن يحتل العلم مكانة الأولى في برنامج التعليم على حساب الثقافة الأدبية، ورفض أرنولد هذا القول على أساس

[1]– محمود محمّد علي: التفكير العلمي ومستجدات الواقع المعاصر، ص 268.

أن العلم النظري لا يمكن وحده أن يؤثر في سلوك الإنسان دون سند من الثقافة المسماة بالإنسانيات[1].

وقد استمر هذا الصراع على أشده بين العلم والإنسانيات خلال القرن العشرين، وزادت الهوة اتساعا حين سيطر العلم سيطرة شاملة على حياة الناس، خلال هذا القرن، لدرجة أصبحت الإنسانيات مهددة، وأصبح الإنسان في موقف يفتقد فيه المعاني الروحية التي كانت تتخلل حياته فيما سبق، وفي الوقت نفسه رفض أصحاب الثقافة التقليدية دفاعا عن النفس أن يقبلوا الاكتشافات العلمية كجزء أساس من التعليم الذي ينمي شخصية الإنسان ويمهد له طريق التقدم[2].

رأى فييرابند نفسه يقوض حجج موقف العلم المتميزة ضمن الثقافة والكثير من عمله الأخير كان نقدا لموقف العلم ضمن المجتمعات الغربية، نظرا لعدم وجود منهج علمي، ولا يمكننا تبرير العلم كأفضل طريقة لاكتساب المعرفة ولا تثبت نتائج العلم تميزها، حيث أن

(*)- توماس هنري هكسلي (Thomas Henry Huxley) (4 من مايو 1825 – 29 من يونيو 1895)، عالم أحياء بريطاني، هو ابن الملعم رياضيات، وهو جد جوليان هكسلي (1887 -1975) الأخصائي في علم الحيوان، والفيلسوف و المربي والكاتب، ولجوليان دور كبير في تأسيس اليونسكو، وهو ايضا جد الروائي والشاعر الانجليزي الدوس هكسلي.
. كان قد لقب بـ darwin.s Bulldog، (كلب داروين) لدفاعه القوي عن نظرية تشارلز داروين النشوء والتطور التي كانت مثيرة للجدل والرفض من علماء الدين، والعديد من علماء الأحياء آنذاك (كتاب داروين : أصل الأنواع تم نشره في 1859)، التقى تشالرز داروين في حوالي 1865، كان توماس هكسلي قد التحق بالبحرية الانجليزية كمساعد جراح، ولم يعد الى انجلترا الا سنة 1850، انتخب زميلا للجمعية الملكية 1851، ثم رئيسا للجمعية الملكية بين عامي 1883 و 1885 وعين في المجلس الملي الخاص The privy council عام 1892، نشر كتابه الخاص في التطور : ا" مرتبة الانسان في الطبيعة " عام 1863، Evidence as to Man .s place in Nature، وعلى عكس داروين، فقد ركز هكسلي في كتابه هذا على نسب الانسان .

(1)- عادل سلامة: عادل سلامة: الثقافتان، ص 156.

(2)- نفسه، ص 156.

هذه النتائج تعتمد في الكثير من الأحيان على وجود عناصر غير علمية، والعلم يسود فقط لأنه تم التلاعب بالمشهد لصالحه والتقاليد الأخرى على الرغم من انجازاتها، لم تتح لها فرصة، وتقترح أن الحقيقة هي أن العلم أقرب إلى الأسطورة من الفلسفة العلمية المعدة للاعتراف به، إن أحد أشكال التفكير الكثيرة التي طورها الإنسان وليس بالضرورة الأفضل، إنه واضح، صاخب، واقح، لكنه متفوق بطبيعته فقط بالنسبة لأولئك الذين قرروا بالفعل تأييد إيديولوجية معينة، أو الذين قبلوها دون أن يفحصوا مزاياها وحدودها.[1]

لذلك وجب لزوما استكمال الفصل بين الكنيسة والعلم بالفصل بين العلم والدولة[2]، لكي تحقق الانسانية المنشودة التي نحن قادرون على تحقيقها وبالتالي وضع المثل الأعلى لمجتمع حر هو مجتمع تتمتع فيه جميع التقاليد بحقوق متساوية وتتساوى في الوصول إلى مراكز السلطة[3].

وبالتالي ترسيخ ضمان الحرية الفردية وتعدد الآراء ورفض إرادة النموذج الواحد والرؤية الواحدة[4]، فالحرية التي ينشدها فييرابند "كغاية لتوجه النسباوي" هي أن تعطى الحقوق المتساوية لكل التقاليد ولكل الثقافات غير الغربية، ورفض النموذج الغربي المستند إلى العلم الغربي وحده والذي يقوم على اعتبار واعتقاد أنه النموذج الأمثل الذي يجب أن تقتدى به كل الشعوب والحضارات. ثم ظهر بعد ذلك كتاب (تشالرز بيرس سنو) Charles Percy Snow (1905–1980) الذي يتحدث فيه عن الهوة بين الثقافات الأدبية والعلمية، حيث لم يكن "سنو" يتصور أن محاضرته التي ألقاها بجامعة كيمبريدج في السابع

---

(1)-Paul. Feyerabend. *Science ina frre society*, London, . New left Books, 1978, p-102.

(2)– عادل سلامة: الثقافتان، علم الفكر، ص 295.

(3)– نفسه: ص 09.

(4)-Paul. feyerabend . *Adieu la raison* . tra Boudouin jurdant .ed.seuil.paris 1979.

من مايو 1959، ستثير كل هذه الزوابع وأن يكون لها كل هذا الصدى في العالم بأسره، حيث كان عنوان المحاضرة هو (الثقافتان والثورة العلمية)، وقد طبعت في كتاب صدرت منه إحدى وثلاثون طبعة حتى عام 1993، وترجم الى لغات عديدة، والثقافتان اللتان يعنيهما "سنو" هما ثقافة المفكرين من الادباء، وثقافة العلماء.

قال إنه وجد بين وهؤلاء شكوكا متبادلة، مما قد يكون له أثر مدمر على تطبيق التكنولوجيا وحل مشاكل العالم، ولم يكن (سنو) هو من أثار هذه القضية، ففي عام 1882 ألقى (ماثيو آرنولد) (محاضرة ريد)[*] في المكان نفسه الذي القيت فيه محاضرة سنو، كان الموضوع هو الأدب والعلم، فقد أكد ماثيو أن باب الأدب لا بد أن يشمل كل الكلاسيكيات القديمة[1].

ويذهب سنو في محاضرته الى وجود هوة سحيقة ضارة تفصل في الوقت الراهن بين العلوم الطبيعية في جانب والثقافة التقليدية التي يشكل الادب جزءا منها في جانب آخر، وكان الجدل الذي طرحه سنو يتمثل في تأكيده أن الثقافتين منفصلتان تقريبا بلا تواصل، ولا يدري أفراد كل فئة الكثير عن نشاط الفئة الاخرى، الكارثة أن افراد الثقافة العلمية قلما

---

[*]- محاضرة ريد Rede Lecture : موعد سنوي لتقديم محاضرة علمية عامة في جامعة كمبردج، سميت بهذا الاسم نسبة الى قاضي القضاة سير روبرت ريد في القرن السادس عشر، بدأت في صورة سلسلة محاضرات منذ عام 1668 إلى نحو عام 1858 وتشمل تقديم ثلاث حاضرات سنوية، إحداها عن المنطق، والثانية في الفلسفة، والثالثة في البلاغة، واصبحت منذ 1858 محاضرة واحدة سنويا يقدمها عالم يحدده نائب رئيس الجامعة، انظر في ذلك جيمس تريفل : لماذا العلم ؟ ترجمة شوقي جلال عالم المعرفة، عدد 372، فبراير 2010، هامش ص 79 .

[1]- أحمد مستجير: في بحور العلم، ج3، ط 2، القهرة، دار المعارف، 2010، ص ص : 07-08.

يقرأون الأدب أول التاريخ مثلا وأفراد الثقافة الأدبية لا يعرفون إلا أقل القليل عن القوانين العلمية حتى أبسطها كقوانين الكتلة أو عجلة التسارع[1].

لكن العلماء الآن لا يتصلون بالمفكرين الأدباء، إنهم يتصلون مباشرة بالجمهور (مفكرو الثقافة الثالثة)، العلماء يتجهون إلى تجنب الوسيط، ويحاولون أن يعبروا عن أعمق أفكارهم بأسلوب يسهل على القارئ الذكي أن يستوعبه، هكذا رأي بروكمان John Brockman، (1941–) في كتابه " الثقافة الثالثة " Third Culture عام 1995 ...، ومن بين أهم موضوعات العلم التي تأخذ مكان الصدارة الآن في الجرائد والمجلات، كما يقول (بروكمان): البيولوجيا الجزيئية Molecular Biology، والذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence، ونظرية الفوضى Chaos Theory ...الخ.

ولكن على الرغم من أوجه الصراع والنقد من كلا الثقافتين، كل منهما للآخر نجد بعض الأصوات تعلوا للمصالحة بين الطرفين، لكن كيف تحدث المصالحة إذن ؟

إنّ الكلام عن المصالحة بين العلماء وغير العلماء من المثقفين لا يكون إلا من خلال التفاهم والرغبة في التعلم، وعلى العلماء أن يتحروا من موقفهم القائل إن الفنون والأدب والانسانيات هي الاختيار العلقلي (اللين) إن التصوير الزيتي والتمثيل على آية حال يتطلبان دقة عالية، قد لا نجدها في بعض التقارير العلمية هذه المهارات وهذه الأنشطة الفنية تحمل قيما، الفنون تثري حياتنا والانسانيات تسهم كثيرا في تفهم مجتمعنا، وفي سعادتنا، على العلماء أن يفهموا ذلك ويقدروه[2].

---

[1]– محمود محمّد علي: التفكير العلمي ومستجدات الواقع المعاصر، مرجع سابق، ص 269 .

[2]– نفسه، ص 49.

وبالنسبة لخطوات العلاج، فالخطوة الأولى هي أن تفسح الجرائد والتلفزيون وساحات أكبر للأخبار العلمية، وأن تخصص الاذاعة والتلفزيون وقتا أطول لها... فلا بد أن تعطي الاثنتان قدرا متساويا من الاهتمام، فالهدف النهائي ليس هو أن تعلو أحدى الثقافتين فوق الأخرى، وإنما هو أن نوحدهما، بحيث يصبحان مألوفين للكافة، والخطوة التالية وهي الأكثر صعوبة، وتتطلب هذه الخطوة من الثقافة الموحدة أن تتنازل المشاكل التي ولدتها ما قد غدت الآن (ثقافة ثالثة) –نقصد هنا تلك التي ينشرها أعداء العقلانية والعلم، ثقافة التشاؤم والتخويف من المستقبل، والهروب إلى الخرافات– تنازلها لتفضح ما تذيعه من هراء، إذا حققنا هذا، فسنكون قد انجزنا نغيرا هائلا، ليس فقط لأن أعدادا منا أكبر ستعرف وتفهم ما يقوم به العلماء وإنما أيضا لأن المجتمع كله سيتأثر بالمنهج العلمي وموقفه النقدي[1].

فعلماء العلوم الطبيعية في الثقافة الثالثة لهم دور رئيس في تطوير الفكر الحديث عامة وهم يبدعون ببحوثهم وكتاباتهم الجماهيرية ثقافة أشمل من أن تسمى علمية فقط، أو ادبية فقط، ودورهم هذا يشمل أن يشركوا في هذه الثقافة الجمهور الغير متخصص عن طريق الكتب الجماهيرية، ووسائل الاعلام المختلفة ن حتى ينال الجمهور القدر الكافي من الثقافة العلمية التي تؤهله لان يفكر بمنهج علمي، ويستطيع تفهم المشاكل العامة لتطبيقات العلم وتكنولوجياته[2].

ولعلنا نجد ثمة سببا آخر يجعل العلماء يشعرون بأنه من اليسير نسبيا عليهم تجاوز الفاصل بين الثقافتين، وهذا السبب يتلخص في كلمة واحدة هي (اللغة)، حيث ان اللغة الطبيعية للعلماء هي الرياضيات، وهي لغة عالية التخصص تستلزم استخدام قدر كبير من

---

[1]– محمود محمّد علي: التفكير العلمي ومستجدات الواقع المعاصر: صفحة نفسها.

[2]– جون بروكمان: الانسانيون الجدد، العم عند الحافة، ترجمة مصطفى ابراهيم فهمي: القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 2009 ص8.

التدريب ومن ناحية أخرى نجد أن اللغة الانجليزية هي اللغة الطبيعية للإنسانيات في أمريكا وهي الشيء الذي نتعلمه جميعا في أمريكا وبريطانيا منذ الطفولة، ومعنى ذلك أنه إذا ما اراد عالم ما معرفة شيء عن مسرحية (لشكسبير)، فما عليه إلا أن يلتقط المخطوطة أو (وهو الأفضل) أن يشاهد المسرحية[1].

ومن ثم، فالمعركة منذ فترة كبيرة من كتاب (الثقافتان) لسنو، فلديها الكثير من القواسم المشتركة مع حروب العلم الحالية، الاختلافات مع ذلك ذات أهمية، ما يبدوا لهم مشتركا هو النزاع بين الانماط العلمية والأدبية، نجد أن موضوعية العلم بدلا من أهميتهما الثقافية، هي أساسا في القضية (على الرغم من أهميتها الثقافية هي بالتأكيد أحد العوامل)، في أيام سنو لم تكن تلك هي القضية، كما يرى (يودكين) Yudkin: أن العلم يتصل بالحقائق المجردة الآن التركيز مختلف، إن معلقي دراسات العلم الحاليين يكونون أكثر عرضة للقول بأن العلم ليس مثل الواقع مثل أي جزء آخر من الثقافة العامة، أنها تدعي أن الحقائق بنيات اجتماعية[2]. فـ"سنو" كان يحارب من أجل (العالم المستضعف) Underdog Science، بينما (علم اليوم) هو أي شيء و لكن الجانب الأدبي يشعر بأنه تحت الحصار من هيمنة الثقافة التكنو– علمية Techno - science culture.

– وهكذا يتناول "فييرابند" مفهوم الثقافة العلمية، والعلاقة بين العلم والثقافة، والصراع القائم بينهما، ومحاولة الصلح بين الثاقفة العلمية والثاقفة الاجتماعية، فقد مفهومه للثقافة وأشار بانها تشمل المعتقدات والاخلاق والقانون والعادات وكل القدرات البشرية، وأنها

---

[1]– جيمس تريفل: لماذا العلم ؟ ترجمة شوقي جلال: عالم المعرفة، عدد 372، فبراير 2010 ص ص 83–84.

[2]- James Robert Brown. *Who rules in science* : *An Opinionated guide to the wars* .USA.Harved University Press . 2001 – P 7

تختلف عن الحضارة من جهة أن الأخيرة ذات طابع جماعي والثقافة ذات طابع فردي، وعليه فتطور هذا المفهوم من خلال الدراسات الانثربولجية قد ساهم في تطور مفهوم العلم، ليصبح في النهاية العلم مجموعة معارف تتصف بالوحدة والتعميم. وقد مر صراع طويل بين العلم والثقافة خاصة فيما قبل عصر النهضة واتخذ اشكالا حادة، كان في النهاية العلم متعدد المفاهيم بين الشرق والغرب، ويكيفنا أن ننظر الى كتاب "بنية الثورات العلمية"، وما قدمه أيضا "جون بروكمان" حول الثقافة العلمية.

خلاصة الفصل:

حاول فييرابند أن يقدّم تعريفا للعلم في مجتمع حر تختلف معاييره ونتائجه عن معايير ونتائج وإجراءت العقول الأخرى التي تعودت على التقليد، وهذا بنظرة شمولية لطبيعة العلم، التي من خلالها توصل فييرابند إلى أن مناهج العلم اليوم أكثر سفسطة. وعليه تم التفريق بين العلم واللاعلم، فالعلم ذلك الذي هو أداة تنوير، لكنه في النهاية هو مجهود بشري، فهو عند فييرابند ليس مُسلمة بل فرضية غرضها البرهنة لا غير، وذلك أن العقل الذي تكلم عنه الفلاسفة والمطلق ليس هو العقل الحقيقي الذي نراه في واقعنا.

وأما قيمة العلم ومكانته في تاريخ البشرية فيخضع لمعيار المنهج المطبق، وليس لأن العلم من المقدّس الغير قابل للنقد، بل يتغير وينمو ويرتقي، وعليه فالعلم ليس هو الكلمة الأخيرة، وإنجازات العلم هي مجرد دعاية مغرضة، بل أكذوبة مفضوحة، لأن الأسطورة هي الأخرى حققت إنجازات كثيرة من تلبية الاستقرار الفكري للشعوب القديمة لمئات السنين. وعليه فالعلم تُحسب له النتائج إذا لم يكن فيها مستفيدا من أي أشياء خارجية من مثل الميتافيزيقا، وتاريخ العلم يقول بالأسس الميتافيزيقية لمئات النظريات العلمية.

وهكذا جاء تناول فييرابند لمفهوم الثقافة العلمية من خلال هجومه على العلم، والمنهج العلمي، ورفضه لسيطرة الحضارة الغربية على الثقافات الأخرى، وكذلك تناوله للنسبوية في العلم، حيث تناول فييرابند أوجه التقاليد التي يرغب كل فرد في المجتمع الحر الذي يفترضه أن يطبقها وتصير بمثابة القانون الذي يحكم علاقته مع الآخرين.

الفصل الثالث

من العقلانية إلى التعددية المنهجية

عند "فيرابند"

محتوى الفصل الثالث

مدخل

المبحث الأول: العقلانية وموقف فييرابند

1. مفهوم العقلانية
2. أسس العقلانية العلمية وثوابتها
3. نقد فييرابند للعقلانية النقدية البوبرية

المبحث الثاني: التّعددية المنهجية عند فييرابند

1. ظهور الحركة الفكرية في فلسفة العلم المعاصرة
2. التعددية المنهجية خاصية من خصائص فلسفة العلم
3. وحدة المنهج وعدم تعدده

المبحث الثالث: الفوضوية

1. الفوضوية لغة واصطلاحا
2. نظرية الفوضى
3. الفوضوية الايستيمولوجية عند فييرابند

المبحث الرابع: اللاقياسية بين النظريات

1. اللاقياسية لغة واصطلاحا
2. فكرة اللاقياسية

المبحث الخامس: النسبوية عند فييرابند

1. فكرة النسبية في العلم المعاصر
2. دعوة فييرابند للنسبية
3. مفهوم النسبوية في كتاب العلم في مجتمع حر

خلاصة

مدخل

في هذا الفصل سنحاول بحث العقلانية كدراسة تحليلية تفكيكية، العقلانية عبر تاريخها وصولا إلى العقل الغربي الذي تناوله "فييرابند" بالتفكيك والدراسة، وفيه سيتم بحث العقلانية مفهومها وتطبيقاتها، وأسس العقلانية الغربية التي تحاول أن تجعل من نفسها النموذج الأصوب لدراسة الكون، بدء من نيوتن وآنشتاين مع النظرية النسبية العامة، ونظريم الكموم، وصولا إلى نظرية الأوتار، فهل تصلح الأخيرة منهجا للعلم المعاصر؟ أم أنّ التعددية المنهجية شرط ضروري للتقدم المعرفي؟

وحين نتكلم عن التعددية المنهجية فإننا نعني أن كل منهج عبارة عن عقل قائم بنفسه، وبالتالي فالعقلانية هي التناسق المنطقي بين التفسير والواقع، وفق مبادئ عامة شاملة، تختلف من حضارة لأخرى، وعليه فالعقلانية هي المنهجية أو النظرية التي نعتبرها المعيار الحقيقي في الفكر، لكن هذه التعددية ستدفعنا للفوضى المنهجية، وعليه نسأل ما الفوضوية وما مفهومها في فلسفة العلم المعاصرة؟

فإذا كانت نظرية الفوضي هي الدراسة الوصفية للسلوك غير المنتظم للأنظمة الحتمية أو الديناميكية اللاخطية فهل يمكن أن نصل من خلالها إلى نتيجة علمية من خلال الدراسة الوضعية لمظاهر اللانظام والتعقد في الأنظمة المركبة؟

وإذا قلنا بأنّ علم الفوضى هو علم للعمليات التي تتناول تحليل ظواهر الاضطرابات أكثر منه علما للحالات، فهل يمكن استخدامها في كل العلوم كالبيولوجيا، والفيزياء، والفلك، والطب، وعلم النفس، وعلم الاجتماع؟

وهذا يدفعنا للبحث في نظرية اللاقياسية، والتي هي فقدان مقاييس موحدة بين جزئيين أو كيانين، الفكرة التي أثارت الجدل بين من جعلها عنصرا هاما في البناء المعرفي، واستنباط الأحكام ومن رفضها، فما موقف فييرابند منها؟

المبحث الأول: العقلانية وموقف فييرابند

إن الكلام عن العقلانية كدراسة تحليلية تفكيكية يسوقنا إلى مدى آخر زنة من عطاء فكري ساهم بشكل فعال في إثراء الحقل المعرفي الإنساني، كون السيرورة التاريخية تجذب الدارس لتاريخ الفلسفة على مد العصور وصولا إلى عصر الحداثة، بمدى اهميتها ومساهمتها بالرقي والتطور الإنساني، ولعب العلم الطبيعي دورا رئيسيا في تحول العقل العلمي الغربي من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، بعبارة أخرى كان نمو العلم وتقدمه هو الذي أدى إلى هذا التحول في العقل العلمي الغربي[1]، وتكرست عقيدة غاليلو في التعبير الصريح على قيمة العلم في هذا العصر سواء في موضوعيته وصلاحيته في السيطرة على الطبيعة، وقد وجد هذا الاعتقاد منظره الأول "رينيه ديكارت"[2] (René Descartes 1596–1650م) الذي قرر بأن العلم يجب أن يجعلنا سادة على الطبيعة ومالكيها[3].

غير أن الاعتقاد كان مقرونا بقيمة هذا العقل الذي يجد أعلى صور نشاطه في الرياضيات[4]، لهذا دأبت الفلسفة الديكارتية على أن تنسج تصورا عقليا للكون، فالمسار الذي اتخذته العقلانية الديكارتيه تجاوز فكرة العنصر التجريبي إلا في حالات معدودة، ويعتبر الإدراك الحسي عاجزا على أن يكون طريقا مأمونا للعلم لأنه لا يُرينا إلا كيفيات الأشياء وطبائعها، وإنه لأجل إقامة معرفة علمية يقينية لابد من البحث عن أساسها في

---

[1]– خالد قطب: العقلانية العلمية، دراسة نقدية، سلسلة كراسات علمية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط، 2005، ص 29.

[2]– فيما يعتقد الإنجليز بأن "فرانسيس بيكون" هو المنظر الأول للفكر الغربي، بل والمؤطر للعقل الفلسفي الحديث، من خلال المنهج التجريبي، ذلك أنه جاء قبل ديكارت، واستفاد منه الأخير، وأيضا ديكارت لم يؤسس منطقا من خلاله يسير العقل.
فيما يذهب الألمان إلى أن كانط هو المؤطر الأول، ذلك أنه صحح مسار التجريبيين والعقلانيين ونقدهم بمنهجه النقدي، وقطع الميتافزيقا القديمة أسس للميتافيزيقا العصرية، وبالتالي حدد للعقل حدودا من خلالها يمكنه السير والبحث.

[3]– خالد قطب: العقلانية العلمية، دراسة نقدية، 29.

[4]– الربيع ميمون: مشكلة الدور الديكارتي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط 1، 1982، ص 21.

يقينيات العقل ذاته، أي في تلك الأفكار التي بلغت حدا من الوضوح والبداهة، نعبر في الشك عن قيمتها وصحتها، لهذا كان لديكارت أعظم الأثر في تأسيس الاتجاه العقلي في الفلسفة، في النصف الأول من القرن 17، حينما أعطى للعقل الدور الأساس في كل معرفة[1].

ومع بروز كتاب المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية لمؤلفه نيوتن بلغت العقلانية العلمية الحديثة ذروتها حيث أرست أسس الفيزياء برمتها، فأصبحت الطبيعة مجرد آلة ترتبط أجزاؤها بعلاقات ضرورية وهذه الضرورة من عمل العقل مستمدة ذلك من ماهية المطلق فالفيزياء النيوتونية قامت على أساس تصور آلي للطبيعة.

وهكذا بلور نيوتن ميلاد عقلانية علمية حديثة تستند على مبدأ واحد وهو مبدأ السببية الحتمية[2]، وبهذا المبدأ تكرست قداسة العقل وتحريره من رقعة الميتافيزيقا وتصوراتها وتأويلات الكنيسة ولعب دوره في بناء النظريات العلمية على أساس عاملي المنطق والتجربة الحسية.

1. مفهوم العقلانية:

نفهم من كلمة العقلاني عموما الشخص الذي يؤكد قدرات الإنسان العقلية تأكيدا خاصا ولديه إيمان غير عادي بقيمة العقل والمحاجة العقلية وأهميتها[3].

---

[1]- جون غريبين: تاريخ العلم، ص 149 – 156. خالد قطب: العقلانية العلمية، ص29- 30.

[2]- ظهر هذا اللفظ في الفلسفة الألمانية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر وكان اختصارا للفظة Praedeterminismus، وفي عام 1985 استخدمها كلود برنارد في كتابة مدخل إلى الطب التدريبي ويعني المدلول المادي للحتمية :جملة الشروط التي تعني حدوث ظاهرة من الظواهر، أما المدلول المجرد فيعني جملة العلل والمعلولات المترابطة ضروريا، مراد وهبة وآخرون،المعجم الفلسفي، ص 78، ينظر عبد الرحمان بدري الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، 1984، ص 348، ص359.

[3]- جون كونتغهام: العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة :محمود منقذ الهاشمي، مركز الانتماء الحضاري، دمشق، ط1، 1997، ص 13.

أما إدغار موران (1921-) فيسمى عقلا كل منهج في المعرفة قائم على الحساب والمنطق يرى أن كلمة ratio تعني في الأصل حساب، أما العقلية عنده فهي إقامة معادلة بين نوع من التناسق المنطقي (الوصفي أو التفسيري) وواقع تجريبي[1].

العقلانية آمنت بوجود مبادئ عامة شاملة كلية، ينشأ عليها الوضع الإنساني حيث تفسره وتتحقق في سلوك وعقل كل فرد.

تعني العقلانية في أبسط معانيها إعمال العقل شكا وتمحيصا وتقويما وانتقاء فيما يدرس من موضوعات وفيما يصدر من أحكام[2].

أما "كارل بوبر" تعني العقلانية أن يتحرر الإنسان من القيود التي تحد من قدرات الابداع لديه وأن يستيقظ من سبات دوغماطيغي منهج حذرنا منه كانط، كما تعني العقلانية أن لا يمارس الفيلسوف دور النبي أو المصلح الديني القادر على كشف أعمق أسرار الكون والحياة، والعقلاني إذ يقدّر التنوير ويسعى إليه فإنه يقدّر بساطة اللغة ووضوحها، ولا يستخدم لغة الحث واللفظة الغامضة المغلقة ولا يعول إلا في الرياضيات على الأحكام النهائية القاطعة[3].

يفهم من هذا أن العقلانية يقصد بها المنهجية أو النظرية التي يكون معيار الحقيقة فيها فكريا واستنباطيا وليس حسيا، فالعقل وحدة يملك القدرة على اكتشاف الحقيقة دون

---

[1]- إدغار موران: تساؤلات الفكر المعاصر، العقل والعقلانية، ترجمة مُحَّد سابيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء ط 2، 2007، ص 07.

[2]- مُحَّد مُحَّد قاسم: رؤى معاصرات في فلسفات العلوم، ص 211.

[3]-كارل بوبر: بحثا عن عالم أفضل. ترجمة أحمد مستجير، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992 ص 248.

الحاجة إلى العاطفة أو الإبهام أو الدين، فالحقيقة الوحيدة الموجودة في الوجود هي الحقيقة المادية، فالعقل ليس شيئا مجردا ومفارقا عن المادة، وله القدرة على تأسيس الأخلاق ومعارف وفنون جديدة، كما أنه لا يؤمن بالخرافة والأساطير. فالحقائق الدينية لابد من اختبارها فالحكم للعقل لأن له صلاحية القبول أو الرفض.

تكونت العقلنة الثقافية وتبلورت بفعل اتساع النظرة السحرية للعالم désenchantement حيث تفككت الرؤي السحرية والاسطورية، والمفاهيم الدينية والميتافيزيقية وكل أشكال الحياة التقليدية، وتولدت عوضا عنها ثقافة دنيوية[1].

عبرت العقلانية تلك عن ذاتها في الانقلاب الفرنسي وفي الأيدولوجية التي كانت قاعدة لها عن طريق روسو، كان مبدأ روسو الأساسي مبدأ الفلاسفة الذي أنشأ تناقضا بين الطبيعة والتقليد فرأى أن الفرد الذي يسمح لمشاعره وعواطفه بأن تنقاد لدين أو مذهب إنساني ما يخسر طبيعته بطريقة تماثل سقوط الانسان في المسيحية، ما دعوته الشهيرة في الرجوع إلى الطبيعة، في الواقع سوى دعوة إلى تحرير ذات الفرد من جميع ألوان الضبط والضغط الاصطناعية، ولكن روسو الذي دعا إلى ذلك ورأى أن الإنسان أو على الإنسان الخلاق هو الذي لا يتطلع إلى أي مذهب يقوم خارج ذاته فيقلده، بل يرجع إلى ذاته فيبلغ درجة واضحة من التعبير، لا تتحقق لمن يخضع للتقليد، هو الذي خلق مبدأ الإرادة العامة التي تشكل في الواقع حقيقة تماثل جميع الحقائق الميتافيزيقية في طبيعتها، فالطبيعة

[1]– جميلة صنيفي، يورغن هابر ماس: من الحداثة إلى المعقولية التواصلية، اصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، ط، 2016، ص 17.

الميتافيزيقية تلك سببت في رأى رسل امتداد واستمرار استخدام المجردات الميتافيزيقية بين فلاسفة ومفكري الديمقراطية[1].

وتجدر الاشارة إلى التفريق بين معنين للعقلانية أولها العقلانية في ما وراء الطبيعة أي اهتمام بما هو مشاهد ونبذ كل ما هو غائب، وثانيتها العقلانية في مقابل التجريبية وهنا لا يلتقي العقلاني بالتجريبي، وفي هذا التصنيف ليس من الضرورة أن يكون العقلاني –بالمعنى الفلسفي– مناهضا للدين بل يمكن أن يكون المرء عقلانيا متدينا[2]، يُعمل العقل في النصوص الدينية مثلا، ولا يعني بالضرورة انكار الله (الألحاد)، بأن بعضا من أشهر الفلاسفة العقلانيين قد وضعوا الله في الصميم من انظمتهم الفكرية .

2. أسس العقلانية العلمية وثوابتها:

تتميز العقلانية العلمية الحديثة بسمات عدة أهمها:

. تُهمل تاريخ العلم وتستبعد كل العوامل الاجتماعية والسياسية وكل ماله هو بعد حضاري، أي بمعنى كل عمل عقلاني باختزال عدد الأخطاء في العمل العلمي عن طريق الاستبعاد أو التصويب[3].

. الوضوح الذاتي وهو شرط لازما للتبرير الذاتي، الذي يعني بالحث عن القضايا الواضحة بذاتها .

---

[1]– بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 93.

[2]– بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 23.

[3]- H. Harris , (1981) «*Rationlity in Sience* » in Sientifie explantion, Ed. by . AF . Heat h . Clarendon press ,Oxford, P 50 .

. الاعتقاد المطلق بثباتية العقل.

. مادية وميكانيكية العقلانية العلمية الحديثة المستندة من مطلقية الزمان والمكان النيوتني

أما الأسس العقلانية العلمية عند فييرابند: تكمن في معالجة فييرابند لمفهوم العقلانية من زاويتين اثنتين:

1. من الجانب الاسيتمولوجي: وتتمثل في العناصر التالية:

أ. **النظرية البراغماتية للملاحظة**: يقر فييرابند على فشل الاتجاهات التقليدية في معالجة النظريات العلمية والتعبير بصورة دقيقة وواضحة عما يحدث داخل العلم ومن أبرز النظريات التي يشير إليها:

. نظرية ارنست نيجل Nagel[*].

. نظرية اوبنهايم Oppenneim[**].

يرفض فييرابند هذا النوع من النظريات على أساس أن التفسير النظري حسب هؤلاء يكمن في الجديد في معاني الحدود المستخدمة داخل النظرية، لأن حسب فييرابند تقديم نظرية ما جديدة يتضمن تغييرات في الفطرة فيما يتعلق بما هو ملاحظ وبما لم يلاحظ بعد من ملامح العالم، وهذا استنادا إلى فكرتين أساسيتين، الأولى تمثل في التأثير الشامل للنظرية العلمية، يبدو أعمق بكثير مما يتصور أصحاب الاتجاهات الكلاسيكية.

ووفقا لهذا فإن النظريات العلمية تعد بمثابة طرقا في النظر إلى العالم وتبني هذه النظريات يؤثر على اعتقاداتنا العامة وتوقعاتنا، ويؤثر أيضا على خيراتنا قابلة وتصورنا للواقع الخارجي[1]، وأما الفكرة الثانية تتمثل في أن نظرياتنا قابلة للاختبار بحيث ترفض هذه النظريات كل ما يخالف الاختبار الذي تنجم عنه نتيجة لا تتضمن التنبؤ المقصود.

كما أن فهم طبيعة العلاقة بين الملاحظة والنظرية تلوح في الأفق العلاقة بين المدرك والمدرك لتفسير حقيقة ما هو مشاهد في الخبرة فهل يمكن جزم استقلالية الملاحظة عن النظرية أي يمكن التصديق على أن هناك ملاحظة ثانية محايدة مستقلة وللحديث على ذلك لابد من التعريج على النظرة الابستيمولوجية التقليدية وخاصة مع التجريبية المنطقية على مُسلمة مفادها أن عملية الملاحظة هي عملية ضرورية تتم بشكل محايد ومستقل عن النظرية.

وعلى هذا الأساس قامت العقلانية التجريبية ذات البعد التجريبي مستخلصة لنظريات العلمية الدقيقة على أساس وقائع مقدمة من التجربة والمشاهدة ولا مكان للصبغة الذاتية والأهواء والميول والآراء الشخصية، فمسير العلم يكون من الخارج إلى الداخل ومن التجربة والملاحظة إلى العقل، لكن هذا الإبعاد والاقصاء للعقل في المساهمة الأولية في كشف الحقيقة العلمية كان المدخل الأول الذي قامت عليه اتجاهات ما بعد الوضعية المنطقية المعارضة لهذا التصور.

(*)- يطرق عليها نظرية الرد Reduction.

(**)- يطرق عليها نظرية التفسير.

(1)- Feyera bend .P.K.*Problems op .Emp iricism.in Beyond The edge of centaint* . ed.by RCodny . Prentice Hall Englewood eliffs .1965 .PP.220.2021

فمهمة نقد المعرفة تتحدد في تقسيم إنجازات العقل[1]، هكذا كانت تصريحات أحد الباحثين مانويل دوديكيز عندما أشار إلى تقسيم العقل والعقلانية من منطلق الانجازات الكلية، وكذا الإخفاقات التي وقعت فيها، واذا كانت الحداثة العلمية قامت على اكتشاف العلم التجريبي فإن فلسفة العلم المعاصر تبلورت من تأثير والثورات العلمية خلال القرن العشرين 20، وغيرت من النموذج السياسي النيوتيني، حيث لم يعد موضوع العلم هو العقل وأصبح العقل هو الأداة التي تتم تشييد العلم من خلالها، بهذا ظهر تصور جديد للعقلانية العلمية من جراء القول الثوري في العلم خاصة هايزنبرغ وأينشتاين وبلانك.

3. نقد فييرابند للعقلانية النقدية البوبرية:

مما لا شك فيه أن عقلانية يوبر النقدية تعرضت للانتقادات لاذعة من قبل فلاسفة العلم المعاصرين، ومن أبرزهم تلميذه بول فييرابند، على الرغم من تأثره وأعجابه بفلسفته في بداية مشواره البحثي إلا أنه خرج من عباءة يوبرو ذهب يبحث عن بدائل تسد له ثغرات معرفية وتساؤلات خفية. فقد كان انتقاد فييرابند للعقلانية النقدية عند يوبر من خلال محورين أساسيين:

الأول: نقد نظرية المعرفة وخاصة المعرفة الموضوعية.

الثاني: نقد معيار القابلية للتكذيب بوصفة الركيزة الاساسية التي ترتكز عليها العقلانية العلمية البوبرية[2].

---

[1]- مانويل دوديكنر: العقل وأوثانه في العقل والعقلانية، مُحَمَّد سابيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط2، 2007،ص 22.

[2]- خالد قطب: العقلانية العلمية دراسة نقدية، ص 78.

ويلحُ بول فييرابند أن العقلانية النقدية اليوبرية عبارة عن تقليد أعمى استقاه من العقلانية السابقتين على شاكلة سقراط واكسيينوفان، حيث تفضُ هذه العقلانية على إدراك العالم من أجل السيطرة على الطبيعة والآخرين.

ومن جهة أخرى نجد أن فييرابند يهاجم ويعيب على كارل بوبر قوله بالمعرفة الموضوعية التي هي بث وجوهر العقلانية النقدية البوبرية، وعلى الرغم من اقرار بوبر أن المعرفة نتاج إنساني تشوبها تغيرات من صنع الإنسان ذاته، تبقى وتظل مستقلة عنه وموضوعية ومن هنا نجد بوبر يقع في تناقضات فالمعرفة مادام أنها نتاج العقل الإنساني فلا يمكنها بأي حال أن تستقل وتتمرد عن المعتقدات والتنبؤات والفروض المسبقة، لأن هذه المعتقدات والتوقعات تؤثر بشكل عام في خبراتنا وتصوراتنا عن الواقع[1].

فالمعرفة العلمية تتخذ من الاعتقاد المسبق والفرض المسبق أساسا تنطلق فيه النظرية العلمية، كما تتدخل الذات الانسانية بصفة اساسية في هذه النظرية، وهنا مكمن خصوبة الفكر الفييرابندي ومعيار تميزه، فالقيمة العلمية والمعرفية للأى بحث إنساني تكمن فيما هو معروف، ويشير فييرابند إلى فشل الاتجاهات الكلاسيكية في معالجة النظريات العلمية والتعبير بصورة واضحة عما يحدث داخل العلم.

يرفض فييرابند النظريات من هذا النوع على اعتبار أن التفسير النظري وفق آراء هؤلاء يتمثل في أن نظرية ما جديدة تصبح كذلك فقط ليست لأنها جاءت بجديد في عالم المعرفة العلمية، وإنما الجديد يرجع لمعاني الحدود المستخدمة داخل النظرية وهذا ما يعترض عليه فييرابند لأنه وفيا لرأيه فإن تقديم نظرية ما جديدة يتضمن تغييرات في النظرة فيما

---

[1]- خالد قطب: العقلانية العلمية دراسة نقدية، ص 78.

يتعلق بما هو ملاحظ، وأيضا بما لم يلاحظ بعد من ملامح العالم، ويستتبع هذا تغيرات مناظرة في معاني أكثر الحدود المستعملة في اللغة، وهنا فإن موقف فييرابند يتكون من فكرتين أساسيتين أما الفكرة الأولى: فتتمثل في أن التأثير الشامل للنظرية العلمية يبدو أعمق بكثير مما يتصور أصحاب الاتجاهات الكلاسيكية، ووفقا لهذا فإن النظريات العلمية تعد بمثابة طرقا في النظر الى العالم وتبني هذه النظريات يؤثر على اعتقاداتنا العامة وتوقعاتنا، ويؤثر أيضا على خبراتنا وتصورنا للواقع الخارجي، وأما الفكرة الثانية فتتمثل في أن نظرياتنا قابلة للاختبار، وأن هذه النظريات ترفض بمجرد ما يتضح أن الاختبار لا يتضمن النتيجة التي تتنبأ بها[1].

ينطلق فييرابند من تاريخ العلم على ضرورة العودة إلى النظريات القديمة والاحتفاظ بها، علها تكون إضافة معينة للعلم ويلوح إلى الثورة الكوبرنيكية وما قام به غاليلي إذ نعتبره نموذجا لتحصيل المعرفة بسبب زجه بذاته في العلم، وشبه غاليلي بآلفيس بريسلي ملك الروك آندرول.

يقول فييرابند: "لم تكن ثمة طريقة واحدة، وإنما تنوع الأسباب الذي تفاعل مع تنوع الاتجاهات هو الذي خلق الثورة الكوبرنيكية، تقاربت الأسباب والاتجاهات، بيد أن هذا التقارب كان عرضيا، ومن العبث محاولة تفسير العلمية الكلية عن طريق تأثيرات القواعد المنهجية البسيطة "[2].

---

[1]- ماهر عبد القادر: فلسفة العلوم " المشكلات المعرفية "، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ج2، 1984، ص 96.

[2]-بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 80.

– وهكذا نجد "فييرابند" يبحث في العقلانية وجذورها وأسسها التي قامت عليها، ثم يفككها مركزا على نقده لعقلانية "بوبر"، وليس معنى هذا أنه ضد العقل، أو المنهج العقلاني، بل ضد العقلانية الغربية المتسلطة، فالعقل اداة تكشف الحقيقة وليس غاية في ذاته، ومن هنا يبين بأنّ العقلانية الحديثة تتميز بسمات منها إهمال تاريخ العلم، والاعتقاد بثباتية العقل، ومنهاهنا يصل الى أنّ أسس العقلانية الحقة تتمثل في جانبين:

الجانب الابستمولوجي: ويركز على النظرية البراغماتية للملاحظة، ويرفض كل نظرية تعتبر الملاحظة محايدة وموضوعية وغير قابلة للتكذيب.

ونقد النقدية البوبرية: فينتقد نظرية المعرفة القائلة بمعيار القابلية للتكذيب.

وعليه يرفض وبشكل مطلق السيطرة على العقل باسم أي منهج في ظاهره عقلاني، بل العقلانية الحديثة مجرد تقليد كان الواجب علينا البحث عن التعدد المنهجي من أجل تطوير العقل والعقلانية والبحث العلمي.

المبحث الثاني: التّعددية المنهجية عند فييرابند

1. ظهور الحركة الفكرية في فلسفة العلم المعاصرة:

يعتبر العلم هو الركيزة الأساسية في المعرفة الإنسانية وهذا هو الاعتماد السائد وذلك لما يتميز به من خصائص الموضوعية، والدقة والوضوح، ويعتبر المنهج هو السّمة الأساسية في النشاط العلمي وتفسير الأحكام واكتشاف معارف جديدة مع تبريرها.

مع ظهور الحركة الفكرية في فلسفة العلم المعاصرة وتساؤلات حول طبيعة العلم والمناهج التي يستخدمها وطبيعتها والنتائج المتوصل إليها وطبيعة صحتها من خطئها صدقها من كذبها، مطلقيتها من نسبيتها، أظهر شكا في قيمة هذا المنهج بسبب الصعوبات المنطقية التي اعترضت سبيله، حيث تحولت هذه المشكلة إلى موضوع رئيسي للفلاسفة والعلماء في فلسفة العلم حول طبيعة المنهج الاستقرائي بوجه الخصوص وطرحت عدة تساؤلات:

- هل يمكن أن يكون المنهج الاستقرائي سبيلا للكشف العلمي؟
- إذا كان لا بد من استحالة ذلك فهل من منهج جديد؟
- هل هناك ضرورة إلى تعددية في المناهج للسبيل للكشف العلمي؟

حيث نجد أن في فلسفة العلم المعاصر اعتبر يوبر المنهج الاستنباطي والمتمثل على القابلية للتكذيب هو البديل للمنهج الاستقرائي لكن حتى منهج يوبر لم يسلم من النقد الموجه له من فلاسفة آخرين أمثال أصحاب النزعة النسباوية مثل: توماس كون،لا كاتوش، ووصولا إلى فييرابند والذي دعى إلى ضرورة التعددية للمناهج، حيث نجده وجه نقد لكل ما هو مطلق وعقلاني في المعرفة الإنسانية وعدم مطلقيتها وثباته.

تعتبر كل قاعدة مضبوطة وعقلانية تستند إلى المطلقية لا يمكن الاعتماد عليها في التقدم العلمي، فرفض المنهج المتبع رفضا تاما لطبيعة صرامته وثبات أحكامه واعتبره معيقّا للتقدم العلمي، حيث اعتبر الأساس لتقدم العلوم في كل شيء جائز، هذا المبدأ يبعد الطابع الاختزالي والضبطي للنزعة الوضعانية والتكذبية ويدافع عن تعدد وتنوع المناهج، وأدى نقده هذا إلى وضع النتائج المتوصل إليها في حالة شك مبرزا عدم مطلقيتها والتي تعطيها التصورات الأستمولوجية للعلم، فوقف ضد كل محاولة تسعى إلى بناء نظرية تستهدف عقلنة الممارسة العلمية، لكون هذه النظريات والتصورات والتي كان نتاجها مزيج من الأحكام العرفية الجمالية والتصورات الميتافيزيقية القبلية بالإضافة إلى النظرة الذاتية، كل هذه الأحكام والنتائج لابد من فحصها ونقدها وتتبع مسارها ومناقشتها للتوصل إلى قوانين ونتائج مقبولة.

إن الطابع الذي يميز منهج فييرابند هو النقد الذي يعتبر هو العامل الأساسي في فلسفته باعتبار أنه لا وجود لمنهج محدد ومعين قادر للوصول إلى الحقيقة والمعرفة سواء في فلسفة العلم أو الميتودولوجيا خاصة، فليس هناك منهج يتصف بالكلية والشمول وهو المعيار الحقيقي الذي نقيس به صحة وكذب التصورات والنظريات العلمية، وان القول بوجود منهج علمي يتضمن اليقين والمطلقية قول غير مؤكد ويجب مراجعته، فكل منهج سواء كان استقرائيا أو استنباطيا أو غيره فقد تعرض للنقد والشك في مصدقيته ومطلقيته والتعديل والتغيير طيلة مراحل التفكير العلمي، ومنه يمكن القول بأن "بول" يرفض فكرة المنهج الواحد بل انه يدعوا إلى التعددية في المنهجية وهذا ما ظهر في فكرة أساسية في فلسفة سميت بالنظرية الفوضوية، وكذلك تعرف باللاسلطوية المعرفية وتعرف كذلك عند البعض (باللاعقلانية الفوضوية)، فهي ضد العقلانية الصارمة للمنهج.

يريد "فييرابند" من خلالها فتح مجال البحث أمام أنماط وأساليب أخرى من التفكير تساهم في عملية بناء العلم، وبالقول بالمنهج الوحد الصارم الذي يدعى اليقين يعيق العمل، ويكون سببا في عرقلة التقدم العلمي "فكل القواعد التي يدافع عنها العلماء وفلاسفة العلم باعتبارها شكلا تنظيما للمنهج التعليمي إما عديمة النفع أو ضعيفة"[1] إن هذا التفسير وعدم النفعية لهذه الميثودولجيات التقليدية يرجع سبب ضعفها اعتمادها بشكل كبير و ادعائها بوجود منهج واحد وجب الاعتماد عليه والالتزام به، ويبرر "بول" قوله هذا بأن الاعتماد على منهج واحد وحصر المعرفة فيه يؤدي حتما إلى إلغاء جزء كبير من البحث العلمي بعينه، بل وجب ترك جميع المشاركة في صياغة النظريات العلمية و عدم اقصائهم، وهنا الغاية التي يطلبها فييرابند تكمن في : "ليست كما يثبتها الوصول إلى نظرية مثالية، إنما بالأخرى زيادة محيط البدائل واستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت من زمن بعيد، وأصبحت في طي النسيان، لأنهما ربما يكون بهما عنصر يوتوبي يفيد معارفنا"[2].

2. التعددية المنهجية خاصية من خصائص فلسفة العلم:

إن بول يعتبر التعددية المنهجية خاصية من خصائص فلسفة العلم المعاصر بل إنهما السبيل لتقدم هذا العلم إلى الأحسن، فلا بد من أخذ النظريات الأخرى وإشراكها في البحث العلمي وعدم ترك النظريات المرغوبة والقوية هي الوحيدة في ساحة العلم وتحدد نتائجه وتصوغ نظرياته، "وإنما لا بد من تدعيم البدائل المختلفة، فخير اختيار للنظرية أن تتنافس

[1]– بول فييرابند: العلم في المجتمع الحر، ص 113.

[2]– عادل عوض: الابستمولوجيا بين نسبية فييرابند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ص 99.

مع النظريات الأخرى القوية في إطار مناهج متعددة، فنظرية الخلق المستمدة من النصوص الدينية نافست نظرية التطور، وكان هذا التنافس في صالح تقدم العلم والإنسان"[1].

من هذا القول يعتبر الإنسان هو العنصر الأساسي في الفلسفة ونظرياتهم فلا بد من اعطاء له كامل الحرية لإبراز عبقريته وأخذ كل النظريات محل الدراسة، وهذا نتيجة غموض هذا العالم وعدم كشف كل حقائقه فلا بد من الانفتاح على جميع المناهج وعدم الانغلاق على منهج واحد، لذا يجب أن نبقى متفتحين على كل الخيارات التي يمكن التوصل إليها بدون تقيدها بمنهج واحد، ومنه لا ينبغي للعلماء أن يبقوا حبيسي ومحصورين داخل قواعد الميثودولوجيا. وكذلك وجب الأخذ بالتصورات الميتافيزيقية " الأسطورة " وجعلها نظريات تفيد العلم بشكل ما حيث يقول: "مهما بدت لنا قواعد المنهج التي يتشدق بها فلاسفة العلم ضرورية وأساسية فهناك دائما ظروف تستدعي ليس فقط تجاهل هذه القواعد، وإنما تبنى عكسها"[2]. بل يصرح قائلا: "العلم أساسا عمل فوضوي: والفوضوية النظرية أكثر إنسانية من العلم ومن المرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام"[3].

من خلال هذا ينظر "بول" إلى النظرية الفوضوية أو التعددية المنهجية سمة فعالة في فلسفة العلم، وحتى ربما أكثر باعتبارها نمط وطريقة تتخذها الإنسانية لحل مشاكلها، سواء كانت تربوية أو تعليمية، فإن ايجابية التعدد في المناهج يجعله لا ينظر إلى الحقائق بعين واحدة بل بعدة جوانب ومنه كلما كان التعدد في المناهج زاد في اسهام مخيلة الإنسان ومنه

---

[1]- أحمد نور: ضد منهج إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة، قضايا العلوم الإنسانية، اشكالية المنهج، العدد الأول، الهيئة لقصور الثقافية، القاهرة، 1996، ص 193.

[2]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة: ص: 12.

[3]- المصدر نفسه: ص: 11.

إلى نتائج ايجابية ذات فائدة عامة، حيث يؤكد أن التعددية ضرورة وحتمية لا بد منها في تاريخ العلوم، وإنما هي أمر ضروري ومعقول لتقدم المعرفة بصفة عامة أو المعرفة العلمية بصفة خاصة، حيث يقول: "إن تنوع الآراء ضروري لمعرفة موضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد المتناسب مع النظرة الإنسانية"[1].

إن هذه التعددية المنهجية أو فكرة الفوضوية هي فكرة مستوحاة من النزعة الليبرالية في فلسفته، فالتعددية ليست أمرا جديدا في فلسفة العلوم بل إنها حتمية ضرورية لتقدم العلوم، وهذا التقدم مرتبط بالتجارب للنظريات على مستوى واسع وغير محصور مع عدم ضبطها وتقيدها بمنهج واحد فكلما كثرت المناهج كثرت النظريات كثرت النتائج المتوصل إليها بطريقة ايجابية، حيث يفرض على العالم ادخال تصورات ونظريات مختلفة واتباع منهجية متعددة، مع ضرورة وجوب مقارنة أفكاره المتوصل اليها بأفكار تتنافى بأفكاره وأن لا يحصرها بالواقعة التي هو بصدد دراستها.

إن رفض "فييرابند" فكرة قيام منهج مطلق أساسه انشاء فرضيات لا تتناسب مع النظريات المؤسسة أي: أنه يمكن القيود بنظريات تتعارض مع التجارب، هذا إما تؤكده نظرية "يوهر" والتي لا تتناسب مع التجارب المثبتة آنذاك، كذلك النظريات النسبية الخاصة المتعارضة مع تجاري "كوف مان" فيتم تجاوز الصعوبات المطروحة بفروض تحليلية "[2].

من هذا الكلام يتجلى لنا أن "بول" ينفي وجود منهج واحد يفضي إلى نموذج بحث مطلق ومحدد، بل إن المعايير تأتي من عملية البحث وهذا ضمانا لأن يكون البحث متصفا بالعلمية لا مرتبط بشكل نهائي بوجهات نظر عقلانية مجردة فالممارسة للبحث العلمي بعدة

---

[1]- بول فييرابند: ضد المنهج، ص 80.

[2]-بول فييرابند: ثلاث محاورات في المعرفة، ص 88.

مناهج هي التي تفرض هذه المعايير وتحددها ولا يمكن لها أن توضع على شكل معايير ونظريات عقلانية جاهزة مسبقا.

وهنا "فييرابند" يقر بأن تكون هذه التعددية المنهجية وفق قواعد مستمدة من الممارسة الدافعية وليست قواعد جامدة، بل وجب أن تكون أكثر قربا للواقع الإنساني لتتسم بالإبداع لأنها مرتبطة بمواقف انسانية ومهما كانت صفتها، فالأفكار والتصورات مرتبطة بالفكر الانساني فهو مصدر العلم الوحيد وليست المناهج المحددة هي التي تحدد طبيعة المعارف يقول: " إن العلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث، وليس لاتباع قواعد معينة، ومن هنا لا تستطيع الحكم على العلم باستخدام قواعد ايستمولوجية مجردة إلا إذا كانت القواعد نتاجا لممارسات ايستمولوجية دائمة التغيير"[1].

إن "فييرابند" لم يرفض المناهج الموجودة رفضا تاما بل طالب بتوفيرها واستخدامها في مجال البحث العلمي، وإنما رفضه ونقده كان يرفض المنهج الواحد الذي تفرضه بعض الفلسفات أو الايديولوجيات الخاصة التي تدعى الكلية ، ومنه يمكن اعتبار أن "بول" لم يقدم منهجا جديدا بل فتح المجال أمام المناهج الأخرى وحتى الميتافيزيقا باعتبارها سبيل من السبل للمعرفة الانسانية للتعبير عن نفسها حيث يقول في هذا: "ليس لدي النية في ابدال لعبة قواعد بأخرى، لكن اقصد اقناع القارئ أن كل الميتودلوجيات حتى الأكثر بداهة لديها حدود، وأن أحسن طريقة لإثبات ذلك هي بيان حدود، ولا عقلانية بعض القواعد، والتي ينظر إليها من قيل بعض أنها أساسية"[2].

---

[1]- بول فييرابند: العلم في المجتمع الحر، ص 114.

[2]- نفسه، ص 125.

3. وحدة المنهج وعدم تعدده:

إن الادعاء بوجود منهج واحد له القدرة على حل كل القضايا العلمية أمر لا يمكن قبوله عند "فييرابند"، ومن هنا يؤكد على ضرورة التعددية وعدم الأخذ بالاسيتمولوجيات وتصوراتها والتي تدعوا إلى محدودية العناصر المكونة للمعايير المنهجية، ففضل التعددية يكمن في تفتحها على جميع النظريات العلمية، عن طريق الحوار المتبادل بين التجارب العلمية مما يفيد التقدم العلمي، فالمنهج الواحد بطبيعته يتنافى مع روح الإبداع لدى الإنسان الناتج عن التخيل والعبقرية، أكثر مما هو مرتبط بالصرامة الموضوعية، لذا كانت التعددية صالحة للعمل العلمي، فالمعرفة العلمية تسير في سياق عام ممتزج فيه العلمي بالثقافي والاجتماعي والتاريخي والفلسفي ، فلا يمكنه حصر هذا التنوع والقضاء عليه واقصائه بحجة المنهج الواحد.

إن هذا الفكر الفوضوي والذي يتصف بالنسبية في فلسفة "فييرابند" يجعل من الحقيقة متعددة وليست محصورة في حقيقة واحدة، بل إن سمة التعددية المناقشة وانتقاد الأفكار سلفا عكس ما يقول أصحاب المنهج الواحد بأن المعايير السابقة أنها مستقلة وسابقة عن الاعتبارات النقدية، لهذا تبنى ودعا إلى ضرورة تطبيق التعددية المنهجية في مناهج التدريس ووضع طالب العلم أمام مجموعة من المعارف المتنوعة، فاعتمادنا على الابيسيولوجيا والتطور الكوني للتقدم العلمي وفيزياء الكم والنسبية وجب علينا كذلك اعتمادنا على السحر والتنجيم والاسطورة، فينبغي أن تكون هنالك حرية كاملة في اختيار نظام المعرفة وعدم إهمال أي جانب من الجوانب حتى وإن كان ميتافيزيقيا.

من هنا يتبني "فييرابند" شعار "كل شيء جائز" والذي يرى فيه المبدأ الوحيد الذي لا يكبح تقدم العلم. ومنه يمكن اعتبار أن مجال المعرفة أوسع من أن ينحصر ويغلق في قالب ضيق يحد من فعالية الذات والإبداع، فلا يوجد تصور خالد كوني يدعى اليقين، ويقضي

المعارف الأخرى بحكم أنها لا تتماشى مع المنظومة العلمية، فليس هناك صنف واحد من المعرفة يسمى علما، وإنما هناك معارف متعددة ونشاطات متنوعة.

إن التعددية المنهجية الفوضوية يعتبرها " فييرابند" هي الأداة التي يتسنى عن طريقها احراز التقدم العلمي وذلك بإتاحة الحرية حتى داخل أسرار العلم، فالبحث الناجح في رأيه لا يسير على شريط قطاع ولا يتبع معايير محددة، فالأشخاص الذين يبدأون من خلفيات اجتماعية سيتناولون العالم بطرق شتى ويتعلمون أشياء مختلفة عنه وترتبط هذه النتيجة بفكرة التعددية، معناه أن هذا التقدم مرتبط بفكرة الفوضي والتعددية المنهجية أي تعدد المناهج العلمية.

فالفوضوية هي العلاج المناسب لجميع النظريات العلمية التي تواجه مشاكل خاصة وفلسفة العلوم عامة. "إن الفوضوية المعرفية ليست سوى علاجا ممتازا لنظرية المعرفة العليلة ولفلسفة العلم على وجه العموم، فنظرية المعرفة في رأيه مريض يحتاج إلى العلاج وهذا العلاج يتمثل في الفوضوية المعرفية، ويعد أن يستجيب المريض للدواء ويبرأ من اسقاهم، فقد ينتهي عندها المرض وتنتهي الحاجة الى العلاج، من هنا فهو لا يعني أن تصبح الفلسفة العلم فوضوية بلا قيد أو شرط إذ بعد مرحلة العلاج والشفاء يمكن أن تكون فلسفة العلم إلى لون من ألوان العقلانية لأكثر تنورا وتحررا"[1]. ففلسفة العلم هي لا تنطوي ضمن أي نوع من أنواع العقلانية لأنها أكثر تحرر وتنوع، يعني أنها فوضوية بشكل مريب وإنما تكون منتظمة، وهي مجرد علاج لكل القضايا التي تعاني من مشاكل.

– وهكذا يصل "فييرابند" الى القول بمفهوم التعددية المنهجية، فيتكلم عن الحركة الفكرية في فلسفة العلم المعاصرة، مرورا بتفسير فكرة التعددية المنهجية، وصولا إلى نقد

---

[1]– بول فييرابند: ثلاث محاورات في المعرفة، ص 24 –25.

وحدة المنهج عقليا. فيتعتبر العلم الركيزة الأساسية في المعرفة الإنسانية – مع استحضار الموضوعية في البحث العلمي – وأن المنهج هو السمة الأساسية في نشاط العلم.

ومن هنا يتعبر كل قاعدة تزعم المطلقية والعقلانية غير مقبولة ولا يمكن الاعتماد عليها، بل يرفض المنهج الواحد الذي يدعي اليقين، فهو معيق للبحث العلمي صراحة، وعليه فالتعددية المنهجية هي الحل الأمثل والصواب من الناحية العلمية، بل ضرورة منهجية، وعلى الانسان أن يأخذ كامل حريته في اختيار المناهج والطرق العلمية في البحث من اجل الكشف العلمي. والنتيجة أن التعددية المنهجية خاصية ضرورية لتقدم العلم، وركيزة أساسية من ركائز فلسفة العلم، وعدم الاخذ بالابسيتمولوجيات التي تدعوا إلى محدودية المنهج والبحث والابداع،

المبحث الثالث: الفوضوية:

1. الفوضوية لغة واصطلاحا:

1.1. لفظة اشتقت من اليونانية Anarchos وتعني بدون سلطة Without autority ، ويعود تسمية الفوضوية إلى الفوضي وتعني الخلل الذي ينشأ عن فقدان السلطة الموجهة أو عن تقصيرها في القيام بوظائفها، أو عن تعارض الميول والرغبات، أو نقص التنظيم، وهي ضد النظام والترتيب، ويقال قوم فوضى أي ليس لهم رئيس يسوسهم[1].

وهذا المصطلح يستعمل في أدبيات الفلسفة السياسية وهو تيار يدعو إلى فك القيود ورفض رقابة الدولة وإلى بناء العلاقات الانسانية على أساس الحرية الفردية.

وعرفت الفوضوية كمذهب سياسي اجتماعي وكنزعة سياسية من طرف فلاسفة كُثر نذكر منهم ميخائيل ألكسندروفيتش باكونين (1814-1976م)، بيوتر كروبوتكين (1842-1921م)، بيير-جوزيف برودن (1809-1864م).

وكان الهدف من ابحاثهم على اختلاف توجهاتهم هو تحرير الإنسان من جميع القيود التي تحذ من حرية الإنسان على رأسها سلطة الدولة وفي هذا الصدد يقول باكونين: "أن القاهر الرئيسي للإنسان هو الدولة التي ترتكز إلى الفكرة الخيالية عن الله، وعن الدين، فالدين هو الجنون الجماعي والنتاج القبيح لوعي الجماهير المقهورة، ومن الضروري أولا لقيادة الجنس البشري إلى مملكة الحرية أن تنسق الدولة وأن تستبعد مبدأ السلطة من حياة الناس، فالدولة أكبر سالب لحقوق إذ تعمل على إذلاله وإخضاعه والحد من سلوكياته وخضوعه لما هو عام وما يخدم مصلحتها، من هذا يمكن القول أن الفوضوية نزعة تدعو إلى

---

[1]- جميل صلبيا: المعجم الفلسفي، ج2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص 169.

نبذ كل أشكال الحكومات والدول في سبيل سيادة الفرد وتقف ضد كل الفلسفات التي تهدف الى نماذج اجتماعية سياسية اخلاقية جامدة للمجتمع.

2.1. مفهوم الفوضوية في فلسفة العلم المعاصر:

إن التطورات التي حصلت في مجال العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، تثير الدهشة والغرابة لما حققته من انجازات عظيمة وبذلك هدمت مفاهيم ومسلمات كانت لمدة طويلة معتقدات لا يمكن نفيها أو تغييرها خاصة في مجال الفيزياء النظرية مثلا ظواهر العالم لا تحكمها المعادلات الخطية والمنطق الخطي ولا تخضع دوما لنظام ثابت وقوانين محكمة بل تنتابها العشوائية في الكثير من الحالات، فكل شيء في الطبيعة ينزع إلى الفوضى، فتوزيع الجزئيات وحركتها في الغازات تتم بصورة فوضوية، فكل جزء من جزئيات الغاز يكون في حالة حركة مستمرة على الدوام والذي يجعل الحركة الفوضوية للجزئيات الغازية يبدو بوضوح وأن نفس العدد المتساوي من الجزئيات يتحرك في كافة الاتجاهات، وبسرعات هائلة وغير منتظمة، مما لا يسمح بالتنبؤ بتفاصيل حركتها ومعرفة مواضيعها وسرعتها معرفة دقيقة، ولا يمكن حساب طاقة كل جزئي على حدى لما تمارسه الجزئيات من مصادمات وتغيير في الاتجاه لا ينقطع وبصورة غير منتظمة[1].

وتعد الحركة البراونية مثلا آخر عن الفوضي واللانظام التي تتميز به الظواهر الفردية فقط، لاحظ بروان (1858-1773م) من خلال تجاربه أن جزئيات الماء تبقى في حركة دائمة ومستمرة وبصورة عشوائية وغير منتظمة وأن هذه الحركة ليست نتيجة لمؤثر ما، ولا

---

[1]- أكيتايجور دوسكي: النظام والفوضى في عالم الذرات، ترجمة داود سليمان المنير، دار مير، للطباعة والنشر موسكو 1983، ص20.

تخضع لأي عامل خارجي، بل هي طبيعة باطنية في التركيب الجزئي، كما أن هذه الحركة ليست مقصورة على الماء بل جميع السوائل[1].

تشكل الحركة البراونية منعرجا حاسما في حركية العلم، فهي بمثابة البداية الأولى لتحول المسار في فلسفة العلم من العقلانية العلمية الكلاسيكية التي قامت على مسلمة النظام، وبساطة العلم، ووحدة المنهج وثباته، إلى العقلانية العلمية المعاصرة التي تؤمن بتعقد ظواهر العالم وتؤمن بالفوضى واللانظام، والبدائل النظرية في مقابل وحدة المنهج، وثبات قواعد والمعايير، وقد أعتبر فييرابند الحركة البراونية حالة تاريخية واضحة على ضرورة البدائل النظرية، فالحركة الغير منتظمة الفوضوية للجزئيات البراونية ليس لها تفسير في ضوء الديناميكا الحرارية الكلاسيكية، ذلك لأن حركتها تظل في حال فوضى دون علاقة واضحة بأي شيء، وقد عدت على أنها حالة شاذة أو غريبة و لم تحض بمكانة في النظريات العلمية المعاصرة بسبب بنية العالم الذي نعيش فيه وبسبب القوانين التي تعتبر صالحة في هذا العالم [2].

إن الفوضوية ليست بالضرورة الفلسفة السياسية المثلى الصالحة للمجتمع الإنساني كما يعترف بذلك فييرابند ولكن المنهجية الفوضوية Anarchistic Metodology، وما يتبعها من علم فوضوي Anarchistic Sience، يمثلان معا نظرية المعرفة المثلى من جهة مفكرنا، ولا نشك لحظة في أن هذه العبارة هي من أشد صياغات حركة نقد العلم تطرفا، وفيها يظهر مدى معاداة تيار من المفكرين الغربيين المعاصرين للنزعة العلمية التي شادت الفكر الغربي زمنا طويلا. وهكذا يبن "فييرابند" فساد كل قواعد المنهجية المتعارف عليها مما

---

[1]– يمني طريف الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، داو حباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط، 2001، ص ص 328 – 329.

[2]- Paul . Feyrabend ,*contre la méthode*. Op.uit. pp 37-38.

يعني أنه توجد دائما ظروف ينصح فيها لا بمجرد تجاهل تطبيق هذه القواعد بل بتطبيق عكسها تماما[1].

2. نظرية الفوضى:

تعني نظرية الفوضي أو علم الفوضى الدراسة الوصفية للسلوك غير المنتظم للأنظمة الحتمية أو الديناميكية اللاخطية أو هي الدراسة الوضعية لمظاهر اللانظام والتعقد في الأنظمة المركبة فعلم الفوضي هو علم للعمليات يتناول تحليل ظواهر الاضطرابات أكثر منه علما للحالات، يبحث في كيفية التكون لا في طبيعة الوجود[2].

وتعتبر نظرية الفوضي من أهم النظريات المكتشفة في القرن العشرين حيث امتدت استخداماتها في كل العلوم كالبيولوجيا الفيزياء، الفلك، الطب، علم النفس، علم الاجتماع، وحتى اعتبرها البعض ثالث ثورة علمية بعد النظرية النسبية ونظرية الكم، لقد غيرت نظرية الفوضي نظرة العقل العلمي المعاصر للطبيعة والمنهج العلمي، فإذا كان العلم الكلاسيكي قائم على مسلمة أن العالم بسيط وتحديدي يخضع لنظام ثابت لا يتغير وأن ظواهره خطية في علاقاتها، إذ يمكن من خلال تحديد مجموعة الشروط والبيانات الأولية، أن نتتبع تاريخ جسم إلى نهايته وهذا يعني أننا في النهاية سوف نعلم كل شيء عن العالم من لحظة ميلاده إلى نهايته، فإن ميلاد علم الفوضي قد بيّن زيف هذا الاعتماد، فأغلب ظواهر الطبيعة إن لم تكن كلها لا خطية العلاقات ويترتب عن اللا خطية استحالة التنبؤ، ولا تعني هنا العشوائية بل تعني فوضى يحكمها نظام، فنظرية الفوضي أزالت وهم التنبؤ القاطع كما

---

[1]- أحمد أنور أبو النور: ضد منهج إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة، سلسلة الفلسفة والعلم علي عبد المعطي وآخرون، قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، العدد الأول، 1996،

[2]- جيمس غليك: الهيلولية تصنع علما جديدا، ترجمة علي يوسف علي، المجلس الأعلى للثقافة القومي للترجمة، ط المشروع 2000، ص 12.

قال "جيمس غليك" (Gleick James، 1954-)، كما تغير مفهوم المنهج العلمي فبدلا من تطبيق النظام على الظاهرة، على العالم أن يبدأ من الظاهرة لفهم بنيتها الحقيقية، فليس قواعد مضبوطة ومحددة سلفا ننطلق منها للوصول لفهم هذه الظواهر التي تتميز بطابع النقد.

3. الفوضوية الايستيمولوجية عند فييرابند:

يعتبر فريند أول من صاغ هذا مصطلح الفوضوية ووظفه في فلسفة العلم المعاصر بعدما كان حكرا على أدبيات الفلسفة السياسية فقد جعل لها عنوانا فرعيا لهم وأول كتاب له ضد المنهج –نخطط النظرية فوضوية في المعرفة – حيث وظفه ليتوافق مع موقفه المناهض للعقلانية العلمية الكلاسيكية القائمة على القواعد والمعايير، فالعلم عند فييرابند في جوهره مشروع فوضوي لا يعترف بأية سلطة تحد من نشاطه فكل النظريات والمناهج فيه مقبولة تبعا لشعاره المشهور "كل شيء حسن" "Jous est bon". ويعد مفهوم الفوضوية الايستيمولوجية عند فييرابند مفهوما انسانيا قائما على اساس احترام حرية الفرد في التفكير والتدبير ونبذ كل العراقيل والعوائق التي تقف في وجهه لتحقيق السعادة والحرية الانسانية، فيقول فييرابند: "عند اختيار مصطلح الفوضوية لمشروعي قد اتبعت استخدام عام وبسيط، ومع ذلك فإنني لا أعتزم افتراض الفوضوية كما تم ممارستها في الماضي، ذلك لأنها قليلة الاهتمام بالحياة الانسانية لهذه الأسباب، فإنني أفضل استخدام مصطلح الدادية padaisme، ذلك لأن الدادي يترك الكائن البشري لشأنه ولا يتأثر بأي مشروع جامد"[1].

يعتقد "فييرابند" أن العلم أساسا مشروع فوضوي لم يكتمل بعد فهو دوما بحاجة إلى البحث والتقصي، فخياره ناجم عن قناعة، يأتي بقناعة أن الفوضوية طالما أنها ربما ليست

---

[1]- P . Peyerabend . *Contre la méthode*. O Pcit . p 18.

الفلسفة السياسية الأكثر جاذبية، إلا أنها بالتأكيد الدواء الناجع للايستيمولوجيا وفلسفة العلم[1]، وطالما أن هذا الطرح السائد المتبلور أساس في استناد الايستيمولوجيا وفلسفة العلم إلى فكرة المنهج بالمعنى العقلاني إلا أن هذا لم يصمد أمام فييرابند فهو يدرج العلم في خانة الفوضوية، إلى التأسيس لاسيتيمولوجيا جديدة لا تستند غلى المناهج والقواعد والضوابط، وإنما يعتمد مناهج متعددة، آخذة بعين الاعتبار مناهج أخرى وجوانب أخرى للإنسانية خارج المنهج وخارج العقل، إن كتاب فييرابند "ضد المنهج" يعد بحق مرافعة من أجل التحرر من كل غل منهجي[2].

فالطرح الفوضوي الغير ثابت والمضاد للنظريات الغير تاريخية للعلم ومساراته، هي كذلك وسيلة لتحقيق التقدم والتطور يقول فييرابند "إن أطروحتي هي أن الفوضوية تساعد على تحقيق التقدم، مهما كان المعنى الذي نحرص على اعطائنا اياه، حتى أن أي قانون أو نظام للعلم لن ينجح إلا إذا سمح للحركات الفوضوية أحيانا أن نأخذ مكانها[3]"، فهي إذن منهجية فوضوية تؤدي بالعلم إلى التقدم والتطور والازدهار على خلاف قواعد وضوابط المنهج. فالفوضوي الذي قرر ألا يلتزم بأي طريقة علمية كانت موجودة وقتها، واتبع حدسه وقدراته على الابداع ثم نجح حسب فييرابند هو العلم في أفضل حالاته وأحواله فهو دعوة صارمة لتحدي المنهج.

ويعتبر "فييرابند" أن اللا منهج Non method، عند الفوضوي له حظ النجاح من أية مجموعة من المعايير والقواعد والتعليمات المحددة بدقة[4]، وهذا تحت شعار المعروف

---

(1)- Feyerabend . *Against Method* . op.cit . p 09.

(2)– لخضر مذبوح: فكرة التقنح في فلسفة كارل بوبر، رسالة دكتوراة غير منشورة، قسم الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2022، ص 445.

(3)- Feyerabend . *Against Method* . p 18.

(4)- Feyerabend . *contre la Méthode* . p 215.

أو المبدأ على الرغم من رفضه لكل المبادئ – إن صح التعبير – إن المبدأ الوحيد الذي لا يعيق التقدم هو كل شيء جائز[1] وهذا يتم وفق بحوث من أجل خرق ونقد كل المعايير بشتى الطرق لأجل ذلك، إذ كل شيء جائز، فدعوة فييرابند للعلماء للتأمل في غاليلو والتعلم منه يقول إن العلم هو مشروع أفاركي في الاساس، الأفاركية النظرية إنسانية بدرجة أكبر وأكثر قدرة على تشجيع التقدم من البدائل المنظمة والمقننة.

فالفوضوية الابسيتمولوجية عند "فييرابند" ترفض المنهج الواحد وتفتح المجال أمام كل المشاريع في ميدان العلم تحت شعار (كل شيء جائز) فإذا كنت لا تستطيع أن تعيش بدون مبادئ تحكم العالم عندئذ يمكن أن أعطيك هذا المبدأ فقد يكون فارغا وغير مفيد، بل وسخيف لكنه على كل حال مبدأ[2] "فهو حسبه المبدأ الوحيد الذي يقبله والذي لا يعيق تقدم العلم". وبناءا على هذا يمكن القول أن "فييرابند" قدم نظرة جديدة لتاريخ العلم من منطلق فوضوي، إذ يقول: "إن الفوضوية ليست فقط ممكنة، لكنها ضرورية لتطور العلم، ولتقدم الثقافة على حد سواء"[3].

– وهكذا يستخلص "فييرابند" فكرة الفوضوية المنهجية، ويقوم بتوضيحها لغة واصطلاحا والغاية منها، مبينا ما شهدته الحضارة المعاصرة من تطورات علمية غيرت نظرتنا للواقع العلمي، مثل نظرية الفوضوى وتعدد الاوتار والنظرية النسبية، فيقرر بأن الطبيعة لا تخضع لقولنين ثابتة ومحددة، بل تتسم بالعشوائية وعدم الانتظام، فنظرية الفوضى من هنا تبرز قيمتها في دراسة الأشياء الغير منتظمة للأنظمة الحتمية، وتسعى الى فهم مظاهر اللانتظام والتعقد في الانظمة المركبة.

---

[1]- Feyerabend . *contre la Méthode* . p 14.

[2]– بول فييرابند، العلم في المجتمع الحر، ص 55.

[3]– فييرابند، ضد المنهج، ص 39 .

فيستخدم "فييرابند" مصطلح الفوضوية في فلسفة العلم بشكل جديد ومغاير، حيث أنها ليست مجرد فوضى، بل ضرورة من ضروريات التقدم العلمي، الذي لا يكون الا بتعددية المناهج، فالفوضوية الابستمولوجية هي الاداة التي يتسنى عن طريقها احراز التقدم العلمي.

المبحث الرابع: اللاقياسية بين النظريات

1. اللاقياسية لغة واصطلاحا:

إن مفهوم فكرة اللاقياسية أصبحت فكرة شائعة في فلسفة العلم المعاصر حيث أصبح هذا المفهوم يأخذ حيزا هاما في النظريات والتصورات المعاصرة لفلسفة العلوم حيث ارتبط بالنتائج النسبية لتاريخ العلم ليتخذ تصورا آخر بعد ان تبين اختلاف مدلولات الحدود ولمصطلحات التي تستخدمها النظريات العلمية المعاصر حيث نجد أن فييرابند له فضل كبير في التنظير لهذا المفهوم وتأسيسه حيث نجد أطروحة فييرابند لفكرة اللاقياسية تقترب من أطروحة كوهن والتي تنص "على أن الثقافات المتعددة تنتج في لحظات محددة من التاريخ نماذج مختلفة للعقلانيات وان هذا الاختلاف يتضاعف مما يجعل هذه النماذج الانضباطية غير قياسية وهذا ما يجعل العلماء بعد تورية العلم الجديد عاجزين في التعبير عن معايير العلم السابق فمراحل العلم المتعاقبة تطرح مشاكل متباينة ولا يمكن النظر اليها بنفس المقياس وبما أن النظرية هي التي تحدد المفاهيم فمن الصعب تحديد مفاهيم العلم المتعاقبة"[1].

1.1. تعريف اللاقياسية:

هي فكرة تدل على ما يمكن قياسه، حسابه أو تقديره[2].

2.1. أما اصطلاحا: يمكن حصرها في التعريف الذي قدمه "لالاند": "أن اللا متقايس هو ما ليس له مقاييس مشتركة مع طرف آخر، إن قطع المربع غير متقايس مع الضلع،

---

[1]- Manule maria carrilho, *la philosophie des sciences*, p 223

[2]- نقدا لعقلانية لدى فييرابند، نحو استيمولوجيا جديدة للعلوم الإنسانية، د. لخضر شيكر، دار الإمام للنشر والتوزيع، عمان، ط1، ص 215.

المنافع المادية غير متقايسة مع الواجبات الأخلاقية، إن عبارة قيم لا متقايسة مستعملة بكفاية في المؤلفات المعاصرة للأخلاق وعلم الإجتماع... إن فكرتين عاطفيتين تصرفين يكونان غير متقايسين إذا كان يستبعدان بعضهما بعضا تبادليا"[1].

يُفهم من هذا التعريف أن اللامقياسية هي فقدان مقاييس موحدة بين جزئيين أو كيانين. وأصل الفكرة من فقدان القياس بين الحساب والهندسة والمتصفح للجذور التاريخية يدرك تمام المعرفة أن طلاق الهندسة والحساب يعود إلى قانون هندسي ظهر عند الاغريق، باعتبار أن القانون الهندسي هو مربع الضلع المقابل للزاوية القائمة في المثلث يساوي مجموع مربعي الضلعين الأخرين، فالهندسة والحساب لا يرتبان براهينهما حسب المقاييس نفسها.

إن فكرة المقاسية أثارت جدلا كبيرا، بين من جعلها عنصرا هاما في البناء المعرفي، واستنباط الأحكام، ولقد شكلت هذه الفكرة في تصور كوهن وفييرابند أنموذجا. أما في السياق الفلسفي قام فييرابند سنة 1962 بإدخال مصطلح اللامقياسية قائلا: "مثلما أن اللامقياسية تستند على تصنيفات غامضة، وتشمل تغييرات مفهومية كبيرة، ومن الصعب – ان لم يكن مستحيلا – إعطاء تعريف واضح لها"[2].

ومن هنا يقول: "أنا لست ضد النظريات، وإنما ضد التأويلات الأفلاطونية للنظرية، تلك التأويلات التي تعتبرها أوصافاف لخصائص أبدية للكون"[3]. ومن هذا القول نجده يرفض محاولات تقييم النظريات موضوعيا على أساس المحتوى، أو على أساس احتمال

---

[1]- Andé lalande . *Vocabulaire technique et critique de la philosophie quadrige* , P.U.F.France , 1991, p 485 .

[2]- Feyerabend.*Against Method* .P166 ** As incommensurability depends on court classifications and involves major conceptual changes it is hardly ever possible to give an explicit definition of it.

[3]– بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 214.

الصدق، ويرجع هذا إلى اعتقاده في لا قياسية النظريات، فاللاقياسية حسبه عدم إمكان المقارنة بين المعارف المتتابعة التي تنتهي إلى نماذج مختلفة.

أما اللامقياسية في مفهومها في فلسفة العلم المعاصر، هي أن إبدالين أو نموذجين أو نظامين مختلفين لا يزنان أشياء بميزان واحد، حيث أن كل واحد منهما ذو مكونات مفهومية مميزة، ويتبنى سبلا وطرقا خاصة للاختبار والتقدير والفصل في الأحكام، وصولا إلى نتائج مختلفة عن تلك التي يصل إليها الأبدال الأخرى، مع العلم أن النموذجين لا يقدمان على استخدام نفس الأدوات نفسها حتى تكون الطرق مختلفة، فما هو أساس في اعتبار أحدهما، ربما كان ثانويا في الاعتبار الآخر وربما كان العلماء الذين يشتغلون في إطار نظام لفكر معين لا يفهمون كل تفاصيل تحليلات العلماء الذين يعملون في إطار نظام آخر، وهذه دعوة اللامقياسية أو عدم القابلية للقياس[1]، ودلالة اللامقياسية تفهم بمعنى حدساني، ولكن بشكل واسع، إن نظريتين علميتين تخصان الموضوع نفسه (العالم الفيزيائي مثلا) توصفان باللامقياسيتين عندما تختلفان عن بعضهما إلى حد كبير، حين يبدو أنه لا توجد وسيلة قياس مشتركة بينهما.

إنما نجد ما يثير الاهتمام بتحليل العلم إلى إقرار "فييرابند" بمبدأ القابلية للمقارنة، أو القياس بين نظرتين مختلفين، أحد أهم النقاط المهمة في تحليل العلم، لكن هذه اللامقياسية يمكن الاستدراك عليها، وذلك أن عدم قابلية نظريتين متنافستين للمقاسية لا يعني أننا نستطيع بأي صورة من الصور التفسير والرد، ولكي ننتقد تلك الفكرة كان علينا أن نشير

---

[1]- مُحَمَّد أحمد السيد: نسبية المعرفة عند بول فييرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، ص 17.

إلى خاصية تميز التغير العلمي، لا تشملها عملية التفسير والرد[1]، نفهم من هذا القول أن اختزال التفسيرات للعلوم على مقاس العلوم الفيزيائية فيه نوع من التهجم والرد، وتتأكد هذه في كثير من تقديراته فهو يقول في موضوع آخر: "اللامقياسية لا تستطيع الظهور ما دمنا باقين داخل منهج علني صلب بمعنى تجريبي"[2]، ويضيف في موضوع أخر "أنا مضطر لأن أضيف بأن اللامقياسية تمثل مشكلة بالنسبة للفلاسفة، وليس بالنسبة للعلميين، إن الفلاسفة يصرون على دوام الدلالة من خلال تفكير استدلالي، بينما العلميون واعون بكون تكلم لغة أو تفسير حالة ما يعني في الوقت نفسه انتاج مجموعة قواعد وتغييرها"[3].

وهذا ما يوضح موقف فييرابند من النزعة الوضعانية التجربانية فيما يتعلق بالجمود على منهج التجريبي من جهة، والجمود كذلك على المعايير والقواعد من جهة أخرى، ويشيد بأطروحة اللامقياسية عنده، ومن هنا "حاول أنشتاين ومساعدوه إثبات تجربة خيالية، وهي تجربة تماثل تماما ما حاول أفلاطون أن يثبته، ومؤدى تلك الفكرة أن للأشياء خصائص محددة حتى قبل قياسها"[4]. أما فييرابند فإنه يستدرك الأخذ المطلق بمبدأ اللامقياسية قائلا: "لم أقل أبدا أن أي نظرتين متنافستين لا تقبلان القياس بنفس المقاييس، إن ما قلته كان أن بعض النظريات المنافسة إذا أولت بطريقة معينة، لا يمكن مقارنتها بسهولة"[5].

فنفهم من هذا أن فييرابند لا يأخذ بمبدأ اللا مقياسية أخذا مطلقا وإنما يعتقد أن المقارنة بين نظريتين لا يمكن أن يحصل من كل الزوايا، وهذا ما يجعل الترتيب بأفضلية النظريات

---

[1]- بول فييرابند، ثلاث محاورات في المعرفة.

[2]- P. Feyerbend . *Contre la Méthode*, p. 313 see : rayan james graham . feyerabend .and incommensurability . masters thasis . durham university.

[3]- Ibid . p. 310.

[4]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 237- 238.

[5]- Feyerabend . *Against Method* . p 114 .

على النظريات الأخرى في بعض النواحي ما يوحي ببطلان التفضيل المطلق في رأي "فييرابند". وهكذا كان "فييرابند" يسعى جاهد من مبدأ اللامقياسية لنقد وتبيان الأخطاء، والتصورات الشائعة للتفسير العلمي لأن هذا المبدأ يشير إلى جوانب في التقدم والتغير، وهذا في فلسفته ويصرح بهدفه من اللامقياسية قائلا: "لم أكن أقصد –بالتأكيد – أن يكون هذا الأمر إسهاما وايجابيا، ولكنني أردت من هذا التصور نقد وجهة نظر شائعة ومضللة في هجوم على العلم"[1]، وهذا يعني أن هذه الأطروحة ليست مجرد رأي أو وجهة نظر بل هي فكرة موضوعية تساهم في تقدم وتغير العلم. وعليه يمكن القول أن خاصية الاستواء عند فييرابند في عملية الاستناد إلى العقل والمنطق أو العلم والمناهج والنظريات، كل ذلك مستندات للعقلانية التي تكرس فلسفة البعد الواحد، في حين يدعوا فييرابند إلى فلسفة ذات أبعاد متعددة بحيث لا تعد العقلانية إلى وجها واحدا للحقيقة.

2. فكرة اللاقياسية:

إن مفهوم اللاقياسية كان له فضل كبير من طرف فييرابند حيث تجلت القفزة النوعية من خلال الأفكار والمعالجات التي اسسهم فيها حيث نجد أن كون استفاد من هذه الأفكار وجدت هناك تقارب بين فلسفة كون وفييرابند في مفهوم اللاقياسية تكون بالنظر إلى اللاقياسية على انها مفهوم لتبرير الثورات العلمية وطبيعة الفكري الثوري وما يحصل عنه من تحولات على مستوى التجربة الادراكية في العلم أما فييرابند يصرح أن الدافع الذي يقف وراء دفاعه عن اللاقياسية لمفهوم علمي يرجع بالأساس إلى محاولة لنقد نظرية "التفسير والنقد" لدى الوضعية المنطقية بالإضافة تقدم الموجه إلى "كارل يوبر" على مستوى القابلية للتكذيب

---

[1]-Paul Feyerabend .*Realism Rationalism and scientific method .in.philosophical*.vol.Cambridge university press 1st published . 1981 . p.15.

عكس "كون" وليس لابراز العلاقة الحاصلة بين النظريات العلمية حيث نجده يقول: "لقد قدمت تصورا فلسفيا جديدا هو مفهوم اللاقابلية للقياس ولم أكن أقصد تماما أن يكون هذا الأمر اسهاما إيجابيا ولكن أردت من هذا التصور نقد وجهة أمر مظلة في التفسير والرد"[1].

بالإضافة كون اللاقياسية يعني عنده عدم ارتكاز علاقة بين نظرتين أو بالأحرى وجود عامل مشترك" بإمكاننا أن نطلق على النظريتين أنهما اللاقياسيتيان إذا كانت معاني حدودهما الوضعية الأساسية تستند إلى مبادئ لا تتفق كل منهما مع الأخرى"[2]. حيث نجده يتخذ مفهوم اللاقياسية من خلال مهاجمته للوضعية المنطقية على مستوين في التفسير لهما:

أ. شرط الاتساق النظريات العلمية الخاصة بالمجال العلمي المفترض يجب أن تتسق مع النظريات العامة المستخدمة في العلم.

ب. شرط ثبات المعنى "وفيما يتعلق بالتقدم ستكون المعاني ثابتة ذلك أن جميع النظريات المستقبل ستكون مؤطر بطريقة لا تؤثر استخدامها لا تقرره النظريات أو التغاير الواقعية"[3].

بالإضافة أن فييرابند يناول أطروحته اللاقياسية من ثلاث جوانب: الجانب النظري، الجانب اللغوي، الجانب الأنطولوجي. ويرتكز الجانب النظري للقابلية للقياس على "نظرية المعنى". فالتغيير في السياق النظري يؤدي الى تغيير معنى الحدود الموجودة في هذا السياق ذلك لأن معنى أي حد تستخدمه يعتمد على السياق النظري الذي يأتي فيه والكلمات أو الالفاظ لا تعني أي شيء اذا كانت بمعزل عن السياق[4].

---

[1]– بول فييرابند: ثلاث محاورات في المعرفة، ص 9.

[2]-Paul Feyrabend. *Problem of empiricim* opcit p 27.

[3]– دادلي شابير: المعنى والتغير العلمي في الثورات العلمية، ص 69.

[4]– عادل عوض: الابستمولوجيا بين نسبية فييرابند وموضوعية سالمرز، ص 54.

إننا نجد أن سبب تبني فييرابند لأطروحته اللاقياسية كان ناتج عن دراسته النقدية للوضعية المنطقية أو التصورات التجريبية التي تبنتها خاصة في نظرية المعنى والتي ارتبطت بالفكر الايستولوجي للفلسفة المعاصرة لمدة طويلة حيث نجد أن لهذا التصور الايستولوجي والقائم على فكرة بسيطة ان معنى حدود الملاحظة ثابت ومستقل عن النظريات العلمية المختلفة أما معنى الحدود النظرية فلا بد من تعريفه أو تأويله على أساس معنى حدود الملاحظة[1].

إن هذا القول ينص على ارتباط الحدود النظرية بشكل تام بحدود الملاحظة أي هنا حتمية الحدود بكونها ثابتة وهذا اثبات يرفضه فييرابند ويقر بالقول عكس موقف التجريبية المعاصرة بنظرية المعنى المتغير جذريا. أي أن الحدود عنده متغير من نظرية لأخرى ثابتة وهناك اختلاف آخر بين التكافؤ وبين تلك الحدود وليست هناك لفة واحدة بين الحدود أي الاختلاف يكمن مثلا في الزمان والمكان والمادة والقوة والجاذبية أي ليست نفسهما في النظريات العلمية والفيزيائية المتعاقبة كفيزياء نيوتن وفيزياء أينشتاين. بل أرجع هذا الاختلاف بين النظريات العلمية المتعاقبة إلى أن كل حد له مرجعتيه وسياقه الفكري الذي نشأ فيه والظروف التي فسر فيه ومنه فلا ثبات للمعنى للحدود الذي أقرت به الوضعية المنطقية بل ان تجاوز هذا الفكر الثابت ضروري، وواجب لغرض استيعاب التطورات العلمية الناتجة ومساعدة على التقدم العلمي. فيستند فييرابند إلى تاريخ العلم لتأكيد موقفه بخصوص نظرية المعنى المتغير جذريا ويذكر مثالا عن اللا مقياسية بين ميكانيك نيوتن ونظرية النسبية فإنها تنظر الى هذه المعطيات بوصفها علاقات فقط[2]. ومن هذا الكلام يمكن القول بأنه لا

---

[1]- رودولف كارناب: الأسس الفلسفية للفيزياء ص 270 .

[2]- آلان شارلمز: نظريات العلم، ص 58.

ثبات بين الحدود أو محاولة مقارنة هذه النظريات ببعضها وهذا الاختلاف معنى حدودها وعدم اتفاقها وثباتها في النظريات العلمية.

أما من الجانب اللغوي فيرتبط مفهوم اللاقياسية بحدود لغوية كون ليست هناك لغة موحدة بين النظريات العلمية فلكل حد لغوي أو لفظ مرجعيته الفكرية والثقافية والتاريخية التي نشأ فيها ولا يتعلق الأمر حسب فييرابند بالغات الخاصة بالنظريات ولكن لغة الحياة اليومية قد تكون أيضا لا قياسية، فالأنثروبولوجيين القدامى كانوا يُقبلون على مادة دراستهم بافتراضهم ان لغتهم الانجليزية أو الالمانية أو اللاتينية ثرية بما يكفي لطرح الأفكار الأجنبية غير الغربية لكن القواميس والترجمات التي قدموها تبين انهما طرائق تنقصها الدقة لعرض المفاهيم لغة لا ترتبط بالغة الغربية أو أفكارا لا تتوافق مع النمط الغربي للتفكير فمثل هذه اللغات يجب تعلمها من نقطة البداية كما يتعلم الطفل الكلمات والمفاهيم[1].

ومنه يمكن القول بأن كل الميتورولوجيا التي عرفتها فلسفة العلوم حسب فييرابند قد نشله في وضع حدود أو معيار يمكن الحكم به عليها فكل فيلسوف يرى حسب نظره المعيار المناسب في تحديد المفاضلة بين النظريات والفرضيات فالاتجاه التجريبي المعاصر يرى تطابق النظرية أو الافتراضات الأساسية مع التجربة هو المعيار الأساسي لصدق النظرية. وهناك من اعتبر ببساطة هو المعيار لتحديد بين النظريات العلمية أن كل هذه المعايير يرفضها فيلسوفنا فييرابند ولا يعتبر بوجود معايير عقلانية ثابتة وقواعد يمكن الاعتماد عليها بل أن الأحكام الذاتية وحتى الميتافيزيقية السابقة لها دور هام في تحديد المعيار بين النظريات العلمية حيث يقول في هذا السياق "لا توجد أي نظرية مكتملة، فكل نظرية يمكن أن تنجح إذا أجرينا

---

[1]– عادل عوض: الايستولوجيا بين نسبية فييرابند وموضوعية شارلز، ص 60 .

عليها بعض التحسينات، وينطبق نفس القول على كل قصة. كما أن أي نظرية تواجه في مراحلها المبكرة وقائع متعارضة، وعلمك، قد تستمر هذه المراحل المبكرة عدة شهور، أو سنين وربما قرون...

لدي مثال آخر أفضل من المثال السابق: كانت النظرية الذرية معروفة منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وقد فندها أرسطو...

كانت له حجج ممتازة ضد تلك المذاهب، وهي حجج مستمدة جزئيا من الحس المشترك، وجزئيا من الفيزياء التي سادت عصره. ولم يكن أرسطو بأي معنى من المعاني آخر كاتب يحاجّ ضدّ هذا المذهب، فقد استمر العلماء في مهاجمته حتى القرن التاسع عشر. بل ومازال بعض الناس الأذكياء جدا، مستمرين في نقده"[1].

وهكذا يعتبر فييرابند اللاقياسية فكرة ومفهوم أساسي لبناء نسقه وفكر العلمي وتحليله لتاريخ العلم ونقده للمنهج العقلاني البحت والذي كان يصر على التفسير العقلي لنظريات العلم بل ان اللاقياسية هي مفهوم لا يتعارض ولا يتنافى مع الممارسات الفعلية للعلم فليس العلم يمشي على نسق وقائم على نظام واحد ثابت وقواعد مطلقة عقلانية وقياسية ثابتة بل أن اللاقياسية هي ضرورة اتباع قواعد وتغيرها إذا لزم الأمر. أما بالنسبة للجانب الانطولوجي لمفهوم اللاقياسية لفييرابند يكمن في معرفية وثقافية وإنسانية وسياسية فهنا الهدف الحقيقي لدعوة وتبنى فييرابند لأطروحته اللاقياسية بأن يرجع بالأساس الى مناهضة التصورات العقلانية التي يقوم على التنميط والنمذجة فإن هذه المعايير كالمقياسية والمقارنة والنقد بين النظريات ينتج عنه ظهور أنماط أخرى من النظريات وراء أحكام جديدة والتي

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 208.

تساعد على التطور العلمي كما أن النظريات العلمية بناء على فكرة اللاقياسية لا تعد أكثر أهمية من النظريات الفلسفية أو المعارف العامة والمتفقدات الدينية وهذا ما يجعل من العلم نشاطا وفاعلية إنسانية تتداخل فيها عناصر وعوامل متعددة.

إن فييرابند يرى أن نقد نظرية ما يجب أن يكون بواسطة نظرية أو نظريات أخرى وليست من الداخل فواقعة واحدة مخالفة لا يمكنها دحس النظرية بل البحث عن الواقائع التي لا يمكن تفسيرها إلا بنظريات بديلة ويمكن لهذه النظريات ان تكون موافقة للنظرية موضوع البحث أي تعززه أو تقود هذه البدائل إلى محض النظرية. و"خذ مثلا بعض الأفكار الخاصة بمناهج البحث، فستجد، مثلا، الفكرة القائلة بأننا ينبغي أن نبدأ بحثنا باختبارات تجريبية، وألا نسمح للأفكار النظرية أن تؤثر فيها"[1].

– وهكذا يقرر "فييرابند" مفهوم اللاقياسية بين النظريات وفائدتها، ويحلل أبعادها المختلفة في فلسفة العلم المعاصرة، والمرتبطة بنتائج النسبية في تاريخ العلم، ومن هنا فالمقارنة بين النظريات العلمية ومصطلحاتها في غاية من الصعوبة، ومع ذلك يقسم أبعاد اللاقياسية إلى ثلاثة جوانب:

الجانب النظري: ويركز فيه على "نظرية المعنى"، فالتغيير في السياق النظري يؤدي حتما إلى تغيير المعنى.

الجانب اللغوي: يرتبط فيه مفهوم المصطلح بثقافة معينة، فمعنى التداوي في الغرب يختلف عن الشرق الذي يستعمل الطب البديل.

---

[1]– بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 125.

الجانب الانطولوجي: ومعناه أن النظريات العلمية خرجت من الاسطورة والثقافة الاجتماعية، وبالتالي فلا فرق بينها وبين النظريات الفلسفية.

– وعليه فإننا نجد "فييرابند" يستند إلى تاريخ العلم لتأكيد موقفه بخصوص نظرية المعنى المتغير جذريا، ويمثل بمثال علمي حول اللاقياسية مقارنا بين ميكانيكا نيوتن ونسبية آنشتاين الخاصة والعامة، ومن هنا يقرر بأنّ اللاقياسية فكرة ومفهوما أساسيا لبناء النسق العلمي الصحيح في المعرفة والبحث وتحليل المعرفة.

المبحث الخامس: مفهوم النسبوية عند فييرابند:

1. فكرة النسبية في العلم المعاصر:

اهتم فلاسفة العلم المعاصرين بفكرة النسبية، حيث تكاد تتجه نحو القول بعدم مطلقية المعارف العلمية، لقد أشار توماس كون إلى فكرة النموذج فمن خلالها عبر عن انتمائه للنسباوية، فالأحكام العلمية هي أحكام نسبية، أي بالنسبة للنموذج الارشادي المعمول في إطاره، فالحكم لا يمكنه أن يتجاوز النموذج بل يبقى محصورا في إطاره، ولا يمكن تعميمه في نموذج آخر، لأن كل نموذج طابعه الخاص ولكل نظرية علمية مقاييسها الخاصة تنتج فعالية داخل النموذج وتتعثر خارجه، فالنماذج عند كون ليست من الدقة بحيث يمكن أن تستبدل بها سلسلة صريحة من القواعد، "ففي وسع علماء مختلفين أو جماعات مختلفة من العلماء أن يؤولوا ويطبقوا النموذج بأشكال مختلفة[1].

انّ المتتبع للفكر الفييرابندي في مجال فلسفة العلم، يدرك تمسك فييرابند القوي بالنسباوية رافضا بذلك كل قواعد المنهجية والتصورات العقلانية التي تقيد حرية الإنسان فالمفاهيم التي تعتقد أنها أساسية في البناء العلمي كالموضوعية والعقلانية والمنهج هي مفاهيم نسبية تحكم تغيرها من نموذج إلى آخر ومن نظرية إلى أخرى فتختلف معانيها حسب السياق الذي وردت فيه فكل نظرية تدعي أنها موضوعية وعقلانية فلا توجد نظرية أحسن من أخرى فكل نظرية وجدت في حقبة زمنية تاريخية معينة ونشات تحت ظروف خاصة وبتاثير أفكار ايديولوجية التي تسعى لتحقيق التعرف اللامشروع تحت غطاء شعارات

[1]- آلان شالمرز: نظريات العلم، ص 189.

براقة[1]. وهذا ما صرح به فييرابند قائلا: "إن كل دليل مهما كان نوعه يبقى ظرفي، تتحكم فيه معتقدات المجتمع وثقافته، في لحظة معينة يجعله محدودا وغير كاف، مما يسمح بقبول تصورات ودلائل مخالفة"[2].

إذن يمكن القول أن النسبوية هي إحدى وجهات النظر الفلسفية التي تنحو إلى أن قيمة ومعنى المعتقدات الإنسانية والسلوك الإنساني ليس لها أي مرجعية مطلقة تقوم بتحديدها، فعملية تقييم المجتمعات الإنسانية للقيم والسلوكيات هي نتاج النسيج التاريخي الثقافي لهذه الجماعة البشرية وليس له علاقة بمرجعية خارجية مطلقة إلهية تمد هذا التقويم بقدسية معينة وتحول دون تغييرها[3]، بالتالي فعملية اعادة تقويم السلوكيات والمثل البشرية ضرورية كل فترة وهي تختلف مجتمع لآخر ومن جماعة لأخرى ومن ناحية لأخرى فهي مذهب يقرر أن كل معرفة نسبية، والمقصود بنسبية المعرفة هي أن المعرفة الإنسانية نسبة بين الذات العارفة والموضوع المعرف[4]، وأن العقل الإنسان لا يحيط بكل شيء وإذا أحاط ببعض الأشياء صبها في قوالبه الخاصة.

---

[1]– هواري شادلي: فلسفة اللامعقول عند فييرابند، دراسة تحليلية نقدية أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، علوم في الفلسفة، جامعة وهران 2، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، 2017، ص189.

[2]– ادغار موران: من أجل عقل متفتح، نقلا: عن مُحَمَّد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، العقلانية وانتقاداتها، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب ط 1، 2006، ص39.

[3]– النسبية لا تعني الإلحاد الفكري بالضرورة، ورفض الإله، والسلطة فوق الكونية، وإنما تعني أن الأفكار البشرية نسبية تماما، خاضعة للتغيير والنقد. و"فييرابند" هنا يحاول أن يستغل النسبية لبيان أن العقلانية الغربية ليست مقدسة كأنها سلطة إليهة، بل هي مجموعة أفكار غربية شكلت في مجموعها عقلا غربيا نسبيا.

[4]– الذات العارفة هي الإنسان، والإنسان نسبي في علمه وفكره، والموضوع المعرّف لا نعرف عنه كل شيء، إذا تصور الإنسان قائم على نسبيته في المعرفة، فهو يضع الموضوع في تصور معين ثم يقدم نقدا، فالحكم نسبي بنسبية التصور.

المقولة الأولى الشهيرة للموقف النسبي للفلسفة الغربية هي القول الماثور المشهور (الإنسان مقياس كل شيء) من قبل السفسطائي بروتاجوراس 480/490 ق.م، على وجه الخصوص والاضطرابات السياسية التي تلت ذلك تلقي بظلال من الشك حول الحقائق القديمة وتقدم لفكرة أن القواعد الاجتماعية والأخلاقية تفسر على أنها في متغيرة كلية أو ذات أصل إلاهي كانت في الواقع تقريبا مؤقتة وعامة فالمؤرخ هيرودوت 430/485 ق.م يستشهد بمجموعة واسعة من الممارسات والعادات التي من خلال المعايير اليونانية سو ف ينظر إليها على أنها غير طبيعية وغير مقبولة على سبيل المثال الزواج بين الأخ والأخت اعتبر طبييعيا بين المصريين القدماء وحتى النصوص التي يحددها دينهم بينما بالنسبة للاغريق يبدو لك مثيرا للاشمئزاز ومستهجنا[1].

ومن جهة أخرى نجد أن بروتاجوراس الفيلسوف الاغريقي عندما قال مقولته الشهيرة الإنسان مقياس كل شيئ فإنه يعبر بتلك المقولة عن نزعة نسبية فيما يتعلق بالأفراد، في حين نجد كون عندما قال: "لا توجد أي سلطة أعلى من سلطة الفريق العلمي المعني فإنه يعبر بذلك عن نزعة نسبية لدى الجماعات العلمية"[2].

ولذلك فإن القرارات والاختبارات التي يقوم بها المشتغلون بالعلم أفرادا أو جماعات سوف تكون محكومة بما يضفي عليه هؤلاء الأفراد أو هذه الجماعات من قيمة، فحين يتحتم الاختيار داخل وضعية معينة لا يوجد معيار شمل الاختيارات التي قامت ولا يفرض اتخاذ قرار معين يكون من الوجهة المنطقية ضروريا بالنسبة للمشتغل بالعلم من ذوي النزعة النسبية فإذا أردنا أن نفهم ما يضفي عليه هو قيمة وها هنا نكون أمام منهج من السيوكولوجي

---

[1]- Maria Baghramian, *Relativism Routledge*, London and New , 2004, p16.

[2]- آلان شالمرز: نظريات العلم، ص 108.

وإذا أردنا أن نفهم الاختيارات التي قامت بها جماعة من الجماعات العلمية فان علينا ان نلجا الى منهج من النوع السوسيولوجي فعندما فسر بوريس هيس 1893/1836 تبنى الفيزياء النيوتينية في القرن 17م يكون ذلك استجابة للحاجات التكنولوجية لذلك العصر فانه يصدر في ذلك عن اطروحة النزعة النسبية المتعلقة بالجماعات وعندما كتب فييرابند "أن الصلة بين جميع الأفكار المتضمنة في جميع أجزاء النسق الكوبرنيكي وكذا الاعتقاد في الطبيعة الأساسية للحركة الدائرية أن ذلك كله هو ما قد كوبرنيك إلى أن حركة الأرض حقيقة واقعية فإنه بذلك يعبر عن نزعة نسبية في المستوى الفردي"[1].

ذلك أن المنطلق الأساسي لنسبوية فييرابند يتمثل في تقدير جميع الثقافات وجميع التقاليد حيث يقول: "يجب على المجتمعات الديمقراطية أن تعطي لكل التقاليد حقوقا متساوية وليس فقط حظوظا متساوية، إن محاولة فييرابند للتوصل لمفهوم النسبوية جعله يقدم في كتابه وداعا "أيها العقل الكثير من الملاحظات التي تعبر بالفعل عن غموضه الشيء الذي جعله يثيره في الكثير من المؤلفات اللاحقة"[2].

إلا أن هناك تأويلين أساسين لنسبوية فييرابند يمكن استنتاجهما من خلال نصوصه هما:

"لا شيء مطلق وكل شيء صادق وحقيقي".

و"أن كل حكم أخلاقي أو سياسي أو اجتماعي أو معرفي يتوقف على الثقافة التي يوجد فيها ويتحدد بها".

---

[1]- آلان شالمرز: نظريات العلم: ص 107.

[2]- حسن الحريري: فييرابند بين الفوضوية والنسبية، جريدة الشرق الأوسط، العدد13337، يونيو 2015م.

"إنّ الثقافات والتيارات التاريخية المختلفة (بالمعنى التقريبي المحدد الذي سبق ذكره) لها أساس واقعي كما نقول أن المعرفة (نسبية) بهذا المعنى"[1]. وعلى الرغم من أن الحضارة الغربية تسعى إلى بلورة لأحادية الثقافة والسلوك ورسم ثقافة ذات اتجاه واحد يراد به الهيمنة على شتى المجلات، لكن فييرابند يرفض هذا، ويدعو إلى مجتمع واحد تسود فيه كل التقاليد ويكون لها من الاهتمام والفرص امكانات متساوية، ويصرح قائلا: "إن التقاليد ليست حسنة ولا سيئة، إنها ببساطة موجودة... ليس هناك إختيار بين النزعة الانسانية والنزعة ضد السامية، والحاصل أن العقلانية ليست حكما على التقاليد، إنها ببساطة موجودة[2]، ونداء فييرابند يكمن جليا في بناء وإرساء مجتمع واحد يساوي فيه التقاليد، ويتوازن فيه جميع القوى دون إمعان في صوابية تقليد ما على آخر فهو يقرر أن المجتمع الحر هو ذلك المجتمع الذي نال فيه كل التقاليد حقوقا متساوية ونموا متساويا لمراكز القوة، ويختلف هذا عن التحديد المعتاد الذي ينال الأفراد طبقا له حقوقا متساوية للوصول إلى موقع سبق تحديدها بتقليد معين، تقليد العلم واللاعقلانية الغربية[3].

إن تقاليد المجتمع الغربي لا تسودها الحرية، كونه يكرس ثقافة واحدة ومنهجا واحدا، إنه يكرس العقلانية، وهي في ذاتها تقليد واحد من التقاليد، إن المجتمع المستند إلى العقلانية لا يكون حرا تماما وإنما للمرء فيه أن يلعب لعبة المثقفين[4] هؤلاء المثقفون هم العلماء

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 91.

[2]- Paul –Feyerabend, *Against Method*, p . 225 .

[3]- بول فييرابند: العلم في مجتمع الحر، ص 16 .

[4]- بول فييرابند: العلم في مجتمع الحر: ص 42.

المتخصصون الذين يلعبون لعبة الثقافة المستندة إلى العقلانية المتوحدة، وهؤلاء المختصون هم الذين يتوجب على المجتمع أن يتعلمو على أيديهم ويستضيئوا بأنوارهم[1].

2. دعوة فييرابند للنسبية:

إن دعوة فييرابند للنسباوية يرجع إلى تفكيره المتفتح على تقاليد المجتمع وعاداته فمهما حقق العلم من نتائج لا يمكنه أن يقصي التجارب الأخرى التي لم تعطى لها الفرصة للافصاح عن مكانتها وقدراتها التي لا تقل أهمية عن العلم، فالنسبية ظاهرة ملتصقة بالعلم ولا تنفصل عنه، ذلك أن الحقائق العلمية ليست مطلقة مما يفتح المجال لأساليب أخرى للمشاركة في العلم، إن العقل العلمي الذي يؤمن به فييرابند هو ذلك العقل المتفتح الذي يعترف بوجود اللامعقول ومايتضمنه من مظاهر الصدفة وعدم النتظام والتناقض والتغيرات المنطقية ويمكنه أن يشتغل على ما ليس معقولا، إن العقل المتفتح ليس كبتا بل هو حوار مع اللامعقول[2].

ومن الشواهد التي ثبتت أن الحقائق في المجال العلمي ليست منوطة بفئة معينة أو جماعة خاصة، فتجارب تاريخ حياة البشر مفيدة إذا استدلينا بالسياق التاريخي على ما أرسته من عطاء فكري ساهم في رقي الإنسانية، فعالم اليوم ممتعدد لكل واحد له أسلوبه في الابداع والابتكار والانتاج وجب احترامه وعدم الاملاء عليه ما يحد من حريته.

وللإشارة هنا، يلاحظ عن فييرابند توجهين:

---

[1]- نفسه، ص 78.

[2]- ادغار موران، من أجل عقل متفتح ، ص39.

أولا: إن فييرابند هو فيلسوف غامض لا ينتمي إلى أي مذهب معين. في الحقيقة فييرابند له نزعة واقعية في جوانب ونسبوي في جوانب أخرى وهو ما يذكره بنفسه عندما يقول: "أنني اعترف أنني نسبوي متحمس في بعض الجوانب، أنني بالتأكيد ليس نسبويا في جوانب أخرى"[1].

ثانيا: أن فييرابند تناول النسيوية في أكثر من كتاب عنده قد نانت قسطا كبيرا في كتابه العلم في مجتمع حر وكتابه وداعا للعقل، وفي كل منهما نجد فييرابند يتخذ موقفا مختلفا ما يؤكد على غموضيته في الكتابة، فالنسبية ليست الافتراضية المطلقة لفلسفته كما يشاع عليه، فهو متعد الرؤى فتارة نجده يدافع عن الواقعية الجذرية وتارة اللا أدرية المتطرفة وتليها دفاعه عن النسبية المتطرفة وأخيرا مزاجه بين الواقعية والنسبوية. هذا هو موقف فييرابند بشأن النسبوية، وقد بدأ يتغير مع كل ورقة من أبحاثه، وهناك اتجاه عام الذي يمكن أن نصفه والذي يعرض ترجمة مترابطة منطقيا للنسبوية بيتما يبقى كحد أدنى واقعي[2]. هذا ما جعل جل موضوعاته التي تناولها مثار جدل ونقاش بين اهل الاختصاص مؤكدين صعوبة توصيف فلسفته.

3. مفهوم النسبوية في كتاب العلم في مجتمع حر:

يستهل فييرابند عرضه للنسبوية من خلال تبيان العلاقة بين العقل والممارسة كما يسميها هو أحيانا، لاحظ أن هناك ثلاث طرق مختلفة التي من خلالها أن كل من العقل والممارسة يحدث تفاعل بينهما، أولا يفترض مايسميه باسم المثالية أن هذا الموقف يرقى إلى ما يطلق علية في موضع آخر الموضوعية. فالمثالية تفترض هذه الممارسة ...فهي المواد الخام

---

[1]- Robert. P Farrell: *feyerabend And scientific values tightrope-walking* Rationality . vol .235 .kluwer Academic Publishers .Australia.2003.p106.
[2]- Ibid, pp-106-107

التي تكون المشكلة من قبل العقد... هي التطبيق الواعي والمنظم للعقل بالنسبة للبناء الجزئي والمواد غير المتبلورة التي يعطيها لنا العلم[1].

من خلال هذا الطرح ان المثالية تفترض ان تقوم بما يزودها به العقل فتصير فعلا، ولا يمكن ان تحيد عنه، مادام العقل هو الذي يزودها بالقواعد، حيث يضمن لها النتائج المرجوة

إلا أن مايعيق تطبيق تلك القواعد الصعوبات التي تحيل دونها يعرضها فييرابند في كتابه العلم في مجتمع حر: بالقول أما المصاعب التي يواجهها المذهب المثالي فهي أن صاحب النزعة المثالية لايرغب فيها ان يتصرف بصورة عقلانية فحسب وإنما يريد أيضا أن تكون لتصرفاته العقلانية نتائج وهو يريد ألا تحدث هذه النتائج ضمن المثاليات التي يستخدمها فحسب، وإنما أيضا في العالم الواقي الذي يحيا فيه، فهو يريد مثلا كائنات إنسانية حقيقية تبنى وتحافظ على المجتمع الذي يدور في خياله، كما يريد أن يفهم حركات وطبيعة النجوم الحقيقية والأحجار الحقيقية على الرغم من أنه ينصحنا بأن ننحى جانبا كل رصد للسماوات، أن نركز فقط على الأفكار إلا أنه يعود أخيرا إلى الطبيعة لكي يفهم المدى الذي هداه اليه تفكيره في قوانينها وقد يسفر الأمر غالبا عن أن التصرف العقلاني بالمعنى المفضل لديه لم يمنحه النتائج المتوقعة، وكان هذا التعارض بين العقلانية والتوقعات أحد الأسباب الرئيسية لإصلاح متواصل في معايير العقلانية، ولقد شجع ذلك كثيرا المذهب الطبيعي[2].

---

[1]- Robert . P Farrell : *feyerabend And scientific values tightrope- walking Rationality*-p-107.

[2]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 40.

أما بالنسبة إلى الذي يسميه فييرابند المذهب الطبيعي Naturalism، فإننا نجده يقول بصدده: إن العقل يستمد مضمونه وسلطته من الممارسة، فهو يصف الطريقة التي بها تعمل الممارسة، وتصوغ مبادئها الأساسية، وقد سميت هذه الترجمة بالمذهب الطبيعي[1]. ذلك أن العقل يستمد مضمونه وسلطته من الممارسة فهو يصف الطريقة التي بها تعمل الممارسة وتصوغ مبادئها الأساسية وقد سميت هذه الترجمة بالمذهب الطبيعي.

إن إختيار المذهب الموضوعي ممارسة مألوفة ناجحة تنعكس ميزتها الإيجابية على صاحب النزعة الطبيعية وأنه على جادة الصواب على الأقل بالنسبة إلى عصره غير أن الممارسة قد يصيفها الفساد، أو قد تكون مألوفة لأسباب خاطئة (الكثير من إختصاص الطب يؤدي إلى أن المرضى يلجأون إليه). وعليه فإن المعايير الزائفة في ممارسة تركها هناك، قد تخلف وراءها العيوب بشكل مطلق، وثمة عناصر معينة مشتركة للصعوبات التي تعترض كلا من المذهب الطبيعي والمذهب المثالي، فغالبا ما تصبح عدم كفاية المعايير واضحة من عقم الممارسة التي يحدثانها، وغالبا ماتكون العيوب واضحة جدا، عندما تستند الممارسات إلى معايير مزدهرة متنوعة، يؤدي هذا إلى إقتراح أن العقل والممارسة ليسا نوعين مختلفين من الكيانات، وإنما هما أجزاء من عملية ديالكتيكية (جدلية) واحدة[2].

وهذا يؤكد عليه فييرابند بقوله أن: "هذا يعني أن العقل والممارسة يدخلان التاريخ على قدم المساواة. العقل لم يعد الواسطة التي توجه التقاليد الأخرى، أنه تقليد في حد ذاته مع إدعاء كبير / قليل بأنه مرحلة وسط كأي تقليد آخر. كونه تقليدا لا يعني أنه جيد ولا

---

[1]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 40.

[2]- نفسه، ص40.

سيئا، وإنما يكون على ماهو عليه ببساطة"[1]. من هذه العبارة يفهم من أن فييرابند يحكم على أنه مجرد تقليد فلا سلطة له على التقاليد، والحجة الهامة العامة للتمييز بين العقل والممارسة، هي مجرد وهم Illusory الصراع بين هذين الثنائيين أو صدام للتقاليد، بالنسبة للعقل لا شيء أكثر من التقليد الآخر.

لكن التقاليد إما أن تكون جيدة أو سشئة، ببساطة كذلك تكون. وبالتالي العقلانية لايمكن أن تكون حكما موضوعيا للتقاليد، لأنها في ذاتها تقليد، بالطبع للتقاليد يمكن أن تكون حكما للمنازعات على أية حال، ومن تكون هذه الأمة نسبية، وبالتأكيد هذا لا يضر لا يسر قلب العقلانية. في حالة معينة فييرابند يُعد ما إذا كان يمكن إثبات أن العلم أفضل من العلم الأرسطي، نجد الجواب مرة أخرى لايوفر الكثير من الراحة للمدافعين عن العلم. أرسطو ليس جفية كلب[2].

وبعد تناول فييرابند لهذه الثنائية العقل والممارسة في إطار المذهب المثالي والطبيعي والصعوبات والعراقيل التي واجهتهما يسوقنا إلى عرض موقف ثالث يسميه المذهب الفوضوي الساذج Anarchism Naive، والفوضوية الساذجة هي التي تسلم بحدود جميع الحدود والمعايير، إذ يقرر الفوضوي الساذج، أن لكل القواعد، القواعد المطلقة، والقواعد المتوقعة على السياق حدودها واستدلالاتها. وأن كل القواعد والمعايير غير ذات قيمة، ينبغي التخلي عنها[3] والمشكلة تكمن في الاختيار، أي تقليد نختار؟ الإجابة الصائبة أن فلاسفة يقع خيارهم على العلم، العلم بوصفه تقليدا أساسيا لهم. بيد أن العلم ليس تقليدا واحدا،

---

(1)- Robert . P Farrell :*feyerabend And scientific values tightrope- walking Rationality* . vol .235 .kluwer Academic Publishers .Australia.2003.p180.

(2)- Robert-p-Fqrrell-op-cit-p 108

(3)- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص50

بل هو متعدد، وهكذا فقط ينتج عنه معايير متعددة ومتعارضة بعض الشيء[1] وعليه ليس هناك حسب فييرابند قواعد ثابتة أو معايير محددة تحدد مسيرة العلم، "فكل القواعد التي يدافع عنها علماء وفلاسفة العلم باعتبارها شكلا تنظيميا للمنهج التعليمي إما عديمة النفع أو ضعيفة"[2].

وهكذا يتناول "فييرابند" النسبوية في العلم المعاصر في كتابه "العلم في مجتمع حر"، مبينا اهتمام فلاسفة العلم بهذه الفكرة ببيان نسبية المعرفة وعدم مطلقيتها، تتغير بتغير النماذج والمناهج وخير مثال على ذلك ما ذكره "توماس كون" في "بينة الثورات العلمية"، وأن هناك من المفاهيم الأساسية مثل "الموضوعية والعقلانية والمنهج" ما به يتم فهم النسبوية. وعليه فمهما كان الدليل فانه يبقى ظرفيا يخضع إلى معتقدات المجتمع وثقافته، ومنها الأخلاق التي تخضع لمثل هذا ولا مرجعية مطلقية في النهاية، فكذلك المعرفة. ويشير في النهاية إلى أن النسبوية ليست مجرد فلسفة أو فكرة ساذجة، بل ضرورة لتقدم العلم وتطوره، ويجب التأكيد على أهميته التعددية المنهجية لفهم النسبوية وحرية الفكر، وأنها في الأخير جزء لا يتجزأ من العلم، بل الحقائق العلمية ليست مطلقة فكيف لا نقول بالنسبية.

---

[1]-بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص 50.

[2]- نفسه: ص113.

خلاصة الفصل:

العقلانية كدراسة تحليلية تفكيكية تسوقنا إلى تصحيح مسار العقل، ومن أهم ما يجب تصحيحه هنا هو مفهوم العقلانية نفسها، فليست هي السير وفق منهج مرسوم قبليا بقدر ما هي المنهج الذي يفرضه سير العلم والمعرفة، وعليه فليست العقلانية المنهج الذي يمارسه الفيلسوف وكأنه نبي من الأنبياء.

وتجدر الاشارة إلى التفريق بين معنيين للعقلانية، أولها العقلانية فيما في الطبيعة أي الاهتمام بما هو مشاهد ونبذ كل ما هو غائب، وثانيتها العقلانية في مقابل التجريبية وهنا لا يلتقي العقلاني بالتجريبي. حيث تتميز العقلانية العلمية الحديثة بسمات عدة أهمها إهمال تاريخ العلم والعوامل الإجتماعية، والإعتقاد المطلق بثباتية العقل. ومن هنا يقرّر فييرابند فشل الإتجاهات التقلدية في معالجة النظريات العلمية، ويبدأ بنقد عقلانية "كارل بور"، بل ونظرية المعرفة جميعها، وأن العلم هو الركيزة وليس العقل، فالعقل في نهايته مجموعة معارف، من خلال هذا ينظر "فييرابند" إلى النظرية الفوضوية أو التعددية المنهجية من جهة أنها سمة فعالة في فلسفة العلم، ورفضه للمناهج من باب رفض المنهج الواحد، أو العقلية الواحدة، أو النظرية الواحدة.

وهكذا يحاول فييرابند شرح فكرته حول الفوضوية كمذهب سياسي إجتماعي الهدف من هذا تحرير الإنسان من جميع قيوده، وهذا من طريق الدراسة الوصفية للسلوك غير المنتظم في كل العلوم كالبيولوجيا والفيزياء والفلك والطب وعلم النفس وعلم الاجتماع، وعليه فإنه يمكن أن يُعتبر فييرابند أول من صاغ هذا المصطلح (الفوضوية) ووظفه في فلسفة العلم المعاصر بعدما كان حكرا على أدبيات الفلسفة السياسية، وهذا لأنه يعتبر أن العلم أساسا مشروع فوضوي لم يكتمل بعد.

الفصل الرابع
أبعاد فكرة الفوضوية في المنهج

محتوى الفصل الرابع

مدخل

المبحث الأول: الجانب الميتافيزيقي لنظرية الأوتار (رؤيا فييرابندية)

1. نشأة نظرية الأوتار.
2. مفهوم نظرية الأوتار.
3. النظرية العلمية ونظرية الأوتار.
4. أسس نظرية الأوتار الميتافيزيقية.

المبحث الثاني: فكرة الفوضوية وأبعادها المنهجية

1. الفلسفة الفوضوية.
2. بول فييرابند والفوضى المنهجية.
3. بول فييرابند والأصولية العِلموية.

المبحث الثالث: البعد الاجتماعي لفكرة الفوضى في المنهج

1. دور العلم في المجتمع.
2. علم اجتماع المعرفة.
3. النتائج السياسية لفكرة الفوضى في المنهج.

خلاصة

مدخل:

سنحاول في هذا الفصل بحث أبعاد فكرة الفوضوية في المنهج، ببحث الجانب الميتافيزيقي لنظرية الأوتار بشرح النظرية ومعاييرها ونتائجها، ثم النظر في "بول فييرابند" وكلامه ضد المنهج، ومنه يجب بحث البعد الاجتماعي لفكرة الفوضى في المنهج ودور العلم في المجتمع، والنتائج السياسية لهذه الفكرة، ولكن هذا لا يهتم إلا بدراسة فكرة الفوضى في علاقتها بالمنهج، وهذا يحتاج إلى شرح المنهج نفسه.

إنّ طرح إشكالية وحدة هذا المنهج أم تعدده، محتاج إلى بيان أنّ المنهج من جهة اللغة يعني الطريق الواضح البيّن الموصل إلى الهدف المرغوب، وهو في الإصطلاح يعني طريقة البحث، البحث العلمي وفق قوانين وقواعد العلم، ولكن طرق البحث تتعدد وتتنوع، بحسب نوع الموضوع والفكرة التي يريد الباحث بحثها، فمنهج علم النفس غير علم الإجتماع غير المنهج الفلسفي، فما المنهج المناسب للدراسات العلمية ونحن نتكلم عن نظرية الأوتار؟

من المعلوم في تاريخ العلم أنّ الأخير يتطور، وأن لمنهجية العلم أهمية أكثر من العلم نفسه، فالأهمية المنهجية خاصة مع "أوجست كونت" وصولا إلى "أرنست ماخ" في "الوضعية التجريبية"، جعلت الفلاسفة يعيدون النظر في الكثير من الأسس المنهجية، ومنهم "بول فييرابند" مع نقده للمنهج العلمي المعاصر، وعلى كل النظريات الفلسفية في هذا المجال، وصرّح بتعددية المناهج ورفض فكرة المنهج العلمي الموحد المحدد وعليه ففيما تتمثل أبعاد فكرة الفوضوية في المنهج عند "فييرابند"؟

بل ويناقش علاقة العلم بالمجتمع في نقطة لا يلتفت إليها علماء الفيزياء ويطرح من خلالها فكرة علاقة القوانين العلمية بالمجتمع، في سؤال مركزي مفاده: ما الذي يأتي أولا: القوانين الإجتماعية أم القوانين الطبيعية؟

المبحث الأول: الجانب الميتافيزيقي لنظربة الأوتار (رؤيا فييرابندية):

1. نشأة نظرية الأوتار:

إن علم الفيزياء يطمح لأن يكون العلم الأول مع تقدم الحضارة الإنسانية، حيث يحاول ترجمة العالم وتفسيره تفسيرا ماديا، من هنا جاءت فكرة نظرية كل شيء، والتي تعود أصولها إلى "الإغريق لسيبوس ودمقريطس" (460- 370 ق.م)، تقول نظريتهما، الموصوفة بالذرية Atomism، بأن العالم يتألف من ذرات وخلاء فقط. بمعنى أنها لا يمكن إفناؤها ولا تحطيمها. أي أن الذرات لا تتألف من أجزاء داخلية، فلا يمكن القول بأنها مصنوعة من أي شيء أصغر منها"[1]، أي الذرة آخر جزء من الأجزاء المادية صغرا، وهي مخلوقة من لا شيء، وطريقة تركيبها هو ما يشكل نوع الجسم الذي نراه.

وبعد تطور العلم تبين بأن هناك في الذرة ما هو أصغر منها، من بروتون ونيرتون، وفهم العلماء أن حركة الذرة نفسها تخضع لقوانين الفيزياء، وهكذا جاءت فكرة بحث حركة الاجسام الأكبر في هذا الكون، إنطلاقا من فهم حركة الذرة سنفهم حركة المجرة. بل إن الماضي وما يتعلق بنشأة الكون ومستقبل هذا الكون سيصبح معلوما من خلال الفيزياء بعد ضبط مل ما يخص الذرة.

لكن الفيزياء تتطور والقوانين كذلك والعلم يحتاج إلى دقّة أكبر من ذلك، فمع "اكتشاف الإلكترون والنشاط الإشعاعي ونجاح نظرية بلانك الكمومية وظهور نظرية أنشتاين في النسبية، كل ذلك أدى إلى استبعاد الأسس التي بنيت عليها فيزياء نيوتن

---

[1]- بول ديفيس، جوليان براون، الأوتار الفائقة: نظرية كل شيء؟، ترجمة: أدهم السّمان (دار الابداع، ط 2، دمشق، 1997م) ص 10.

ومكسويل"[1]، معنى هذا أنّ فهم نظرية كل شيء، محتاجة إلى فيزياء عصرية مغايرة تماما للفيزياء السابقة المعروفة، فمن قبل كان العلماء يتكلمون عن مادة ملموسة لكنهم اليوم يتكلمون عن أوتار داخل البروتون غير ملموس وملا يمكن رؤيته بالمجهر ولا يمكن قياسه ولا وزنه ولا الشعور به، سوى تخمينات فيزيائية، ومع ذلك تبقى نظرية الأوتار موضة الفيزياء العصرية وآخر الصيحات فيها.

لقد "ظهرت في السنوات الأخيرة نظرية جديدة جذبت اهتمام الفيزيائيين، وقد عُرفت، في بادئ الأمر باسم نظرية الأوتار ثم تطورت فأصبح إسمها: نظرية الأوتار الفائقة"[2]، إنها نظرية تسعى لتوحيد الفيزياء، الفيزاء التي من خلالها نفهم كل قوى الطبيعة والجسيمات المادية والزمان والمكان، أربعة قوى، فهي نظرية تريد أن تفسر كل شيء، ومن هنا يسمونها نظرية كل شيئ، معتمدين في ذلك على الرياضات من جهة. ولكن لا دليل عليها قطعي ونهائي إلى حد الساعة، ومع ذلك فهي من أكثر النظريات حيوية في الفيزياء النظرية، وحتى نفهم هذه النظرية يجب أن يكون عندنا نظرة حول أسلوب علماء الفيزياء في طرح الأفكار العلمية، مع الإنتباه إلى موضوع نظرية الأوتار لا يزال تحت البحث والدراسة، أي لم يقل العلماء بعد فيه كلمتهم النهائية.

هذه النظرية تحاول كشف أصغر الأشياء التي منها تم إيجاد هذا الوجود، لتقدم شرحا كميا لكل أجزاء وجسيمات طبيعتنا التي نغيش فيها، فإن توصلنا إلى أصغر الأجزاء معناه توصلنا إلى الفيزياء النهائية، وبالتالي سنفهم الكون فهما دقيقا كأننا نقرأ من كتاب، فلا غرابة أن تجد علماء الفيزياء يتفرغون لدراسة هذه النظرية، ومع هذا وذلك تجد من العلماء

---

[1]-نفسه، ص 11.

[2]-بول ديفيس، جوليان براون، الأوتار الفائقة: نظرية كل شيء؟، مرجع سابق،ص 7.

من ينفر من هذه النظرية، ويرى بأنّ جهود النظريين الوتريين بعيدة عن الهدف صعيد الفلسفة والعلم.

ان فكرة تفسير العلم لنظرية الأوتار، مجرد فكرة، يحاول العلماء أن يحققوها في الواقع، وبالنظر إلى أساسها نجده مجرد الإيمان بفكرة أساسها غير علمي، فالنظرية في جوهرها تستند إلى الميتافيزيقا وليس إلى الفيزيقا، ذلك أن النظرية العلمية تكون خاضعة للقوانين العلمية، وليس إلى الفرضيات العقلية دون التجريب العلمي، لكن مشكلة نظرية كل شيء المثالية "يجب أن لا تحتاج إلى التجربة بتاتا، فكل شيء فيها يجب أن يتعين في إطار أشيائها الأخرى، باستثناء عامل واحد فقط هو سُلّم الوحدات الذي نعتمده في تعيين كموم عناصر النظرية، وهذا وحده ما يجب تحديده بالتجربة"[1].

2. مفهوم نظرية "الأوتار":

إن نظرية كل شيء ليست مجرد تجميع للقوانين مع بعضها البعض، وأن يحصي فيها العالم الفيزيائي الكتب الفيزيائية والقوانين الأساسية، والجسيمات والذرات والقوى الفاعلة ويتفحص ما جمع، ثم يقول هذا هو كل شيء، بل يجب على النظرية "أن تتألف من أكثر من مجرد قائمة تحوي القوانين والأغراض الأساسية. يجب ان يكون لديها القدرة على التعليل، كما يجب عليها أن تحوك روابط بين شتى أوجه الطبيعة"[2]، وقد شبه العلماء هذه بأوتار آلة الكمان – ومنه جاءت تسميتها بنظرية الأوتار– "فكر بآلة الكمان، إن الوتر فيها، عندما تعزف عليه، قادر على الإهتزاز بتوترات عديدة مختلفة، تسمى مدروجات، واختلاف

---

[1]– بول ديفيس، جوليان براون،: الأوتار الفائقة: نظرية كل شيء؟، ص 14.

[2]– نفسه: ص 13.

مدروجات وتر الكمان أساسي في غنى الصوت"[1]. فكذلك في جوهر البروتون في نهايته توجد أوتار من الطاقة في شكل دائري أو مستقيم تهتز بطريقة معينة من خلال الإهتزاز يتم خلق الإلكترون، وهذا الوتر أصغر من أي شيء صغير يمكن للعق أن يتخيله.

3. النظرية العلمية ونظرية الأوتار:

مما لا شك فيه أن أي نظرية لها خلفية فكرية معينة، إذ يستحيل عقلا أن ينشأ شيء من اللاشيء، لهذا كان بحث مسألة أسس نظرية الأوتار غاية في الأهمية، إذ معرفة أصل الشيء مما يساهم في فهم ذلك الشيء من جهة، وفهم ماهيته وإدراك ما ينجر عنه مستقبلا من جهة أخرى، وهكذا سنبيّن في هذا المبحث الأسس الميتافيزيقية لنظرية الأوتار، وقبل الكلام عن نظرية الأوتار وأسسها الميتافيزيقية وجب التنبيه إلى قاعدة فكرية حول علاقة النظرية بالعلم بشكل عام.

إنّ كل نظرية علمية غالبا ما تجد لها من الجذور الفلسفية أو الميتافيزيقية أو حتى الخرافية ما يخيّل للباحث ابتداء وكأن العلم لا علاقة له بتلك الأصول والجذور، وهكذا تجد البحث ينطلق من فكرة معينة ليثبتها أو لينفيها، ومع البحث العلمي يتبين صدق تلك الفكرة أو كذبها، ولكن المشكلة العويصة في هذا النوع من الأبحاث هو مفهوم العلم نفسه، إذ الخلاف قائم في مفهوم العلم الذي من خلاله نحكم على شيء ما انه علميّ، من جهة أنّ العلوم تملك سلطة عليا في عالمنا المعاصر، "لكن هذه السلطة ترافقها مسؤوليات عظيمة، فمعرفة ماهية العلم، وكيف يعمل، وكيف يؤثر على حياتنا أمر يهمنا جميعا، وقد كرّس الأستاذ

[1]- بول ديفيس، جوليان براون،: الأوتار الفائقة: نظرية كل شيء؟، ص 91.

فييرابند حياته لمعالجة هذه القضايا"[1]، فقد حاول الاستشكال على المعتقدات السائدة من دون أن يقدم حلولا جاهزة، بل يركز على تقديم الأدوات الدقيقة التي يحتاجها الناس لمعاجلة الأفكار، حتى يستطيع كل عاقل أن يصيغ فكرته الخاصة بمسؤولية وأخلاق.

إنّ الكلام عن النظريات العلمية مع "بول فييرابند" يستلزم أولا الكلام عن العلم، الذي "يزعم – أي العلم– أنه يتعامل مع التفاصيل ومع البيئة الشاملة للعالم، ويحاول أن يفسّر: كيف أتت المادة إلى الوجود، وكيف نشأت الحياة، ومتى وبأي أسلوب وصلت الكائنات البشرية إلى الأرض"[2]، يبدوا أن العلم يحاول الإجابة عن كل شيء، أو بتعبير آخر يزعم أنه يستطيع الجواب عن كل شيء، ولكن الواقع يظهر عكس هذا تماما، فالعلم جد قاصر عن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة الكبرى، والتي لا تزال قائمة منذ عرف الإنسان التساؤل، ومع ذلك لم يجد لها جوابا، ثم في النهاية يأتي العلم والمعاصر منه بشكل خاص ليزعم أن يستطيع الإجابة بمجرد ذكر نظريات مثل نظرية الإنفجار العظيم ونحوها من مثل "نظرية الأوتار"، التي نسأل من خلالها: هل نظرية الأوتار علمية محضة أم لها أسس ميتافيزيقية؟.

قبل الإجابة عن هذا السؤال العميق الواسع، وجب أن نلقي نظرة خفيفة حول الميتفيزيقا حتى نفهم علاقة العلم بالميتافيزيقا، ولنضرب مثالا على ذلك بـ"الدين"، الذي يعتقد به ملايير البشر من دون نقده، والمنتقد للدّين لا يستطيع ان يبطل الدين السماوي من خلال العلم، وربما يُظهر العلم دائما في صورة الضد من الدين، بينما يأتي المتدين ليظهر أنّ الدين والعلم لا تضادّ بينهما، ومن هنا نجد العلم لا يستطيع أبدا أن يخرج من هذه المعضلة، بل هو جزء من المشكلة، ورجع الأمر مرة اخرى إلى سؤال: ما العلم؟

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 17.

[2]- نفسه، ص: 23.

والإجابة ستكون من جهتين:

الأولى مادية، وأن العلم ما يخضع للمنهج التجريبي المادي القائم على الملاحظة والفرضية والتجربة.

والنظرة الأخرى وهي أن العلم جذوره روحية ميتافيزيقية ما ورائية وهو ما يقرره الدين، ومن هنا "ينقسم المؤمن إلى جزء يعمل (كعالم) وجزء آخر يعمل (كمتدين)[1]"[2]، وعليه فالكلام عن أي نظرية سيكون من جهة مادية وأخرى ميتافيزيقية، وهنا بالضبط يأتي دور الفلسفة.

إنّ الفلاسفة الإغريق تميزوا بالنقد أو هكذا يُشاع عنهم – ذلك أن الخلفية الفكرية للفلسفة الاغريقية واليونانية في أصلها ثقافة عراقية مصرية شامية، وهو الامر الذي يقرره الكثير من الباحثين والمؤرخين، من بينهم "جورج سارتون" – فكانت فلسفته تدينُ بعض الأشياء وتقرّ بعضها الآخر، ولا تقبل بالمرة كل فكرة ترد عليهم، بل الكل يخضع للنقد، ومن هنا قامت السوفسطائية ونقدها من "سقراط" وتأليف المنطق من "أرسطو"، ونحو هذه المسائل التي تعبر على النقد العالي للأفكار، وبعدهم في الحضارة الإسلامية من المشائين وعلماء الكلام، وبعدهم في الفلسفة الحديثة وما بعدها من "كانطيين" و"هيجليين"، هي

---

[1]– ينقسم المؤمن إلى جزء يعمل (كعالم من العلماء) وجزء آخر يعمل (كمتدين)، هذا التقسيم صحيح من وجه، وخطأ من وجه آخر:

أما وجه الصحة فيتمثل في أن المؤمنين ينقسمون إلى صنف مؤمن عامي، ومؤمن عالم في العلم المادي.

وأما وجه الخطأ، فهو تقسيم المؤمن إلى مؤمن يؤمن بالعلم قبل التجربة، ومؤمن يؤمن بالعلم بعد التجربة، وبالتالي فالإيمان هنا لا فائدة منه، وهذه شبهة يطرحها الماديون كثيرا، ولكن أهل الإيمان لا تعارض عندهم بين الإيمان والعلم، فالإيمان محله العبادة والعلم محله الحياة.

[2]– بول فييرانبد: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 23.

محاولات نقدية جيدة، لكنها بدأت من أجل القضاء على مذاهب فلسفية أخرى، والنتيجة أنها لم تنجح، وأصبحت المعارضة مدرسة، وجاء نقد تلك المعارضة من معارضين آخرين. فأصبح الكثير ممن "يكتب في الفلسفة اليوم أقرب إلى التفاهة ولا يشمل الاهتمامات الأوسع. فينشئ أحد الفلاسفة موضة جديدة ويبدأ قطيع كامل بالتحري عمّن ينتمي لهذا الموضة ومن لا ينتمي لها"[1].

وهكذا ينشئ العالم نظرية ما ويبدأ القطيع في الإنتماء اليها وإظهارها على أساس أنها حقيقة علمية، والعالم إلى الساعة لم يتفق على الأرض هل هي كروية أم مسطحة، ويجادل في نظرية الأوتار والأكوان المتعددة، والغاية هنا هي ترك طل تخصص لأهله، فعلناء الفييياء عليهم إثبات نظرياتهم التي يتكلمون فيها، والفلاسفة وظيفتهم التفلسف حول تلك النظريات وليس نقدها بالكلام ميتافيزيقي.

4. أسس نظرية الأوتار الميتافيزيقية:

إنّ أسس أي نظرية لابد لها خلفية معينة، سواء كانت علمية أم ميتافيزيقية، ومن هنا طرح العلماء "فكرة أن قوانين الفيزياء قوى ثابتة ليست من نتاج الفيزياء النظرية الحديثة. سيكون هناك آلاف الفيزيائيين الذي يسعدهم رؤية حقائق أو حوادث قد تفسر بطريقة أفضل بافتراض خرقٍ لهذه القوى الثابتة (الزمان والمكان)"[2]، إذا قوانين الفيزياء ليست ثابتة بالمرة، فهي تتغير باستمرار، فحين يتم هدم تناسق ما عجز عن حل إشكالات علمية، لهذا يحاول علماء الفيزياء إنشاء نسق جديد يحتوي الأول ويضيف عليه، تناسق أعم وأشمل،

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 28.

[2]- نفسه، ص: 28.

ومن هنا يظن البعض أن فكرة عدم ثبات القوانين الفيزيائية فكرة حديثة لكنها ليست كذلك، بل الخرق ليس للقوانين فقط بل حتى للأفكار العلمية ككل، كونها ليست مسلمات يجب أن نسلم بها دائما وأبدا.

ومن هنا يكتشف "فييرباند" شيئا مهما جدا، من خلاله يمكن أن يقول بكل صراحة أن أسس العلم في نهايتها ميتافيزيقية، ذلك "أن مبادئ الفيزياء الهامة تقوم على افتراضات منهجية يتم تجاوزها مع تقدم علم الفيزياء، فالفيزياء وإن كانت تستمد سلطتها من تلك الأفكار، غير أنه لا يؤخذ بها أبدا أثناء البحث الفعلي"[1]، فحتى وإن لم تأخذ الفيزياء في المخبر بتلك المبادئ إلا أنها تنتطلق منها في بحثها، كفروض علمية مؤقتة يتأكد الباحث منها خلال سير عملية البحث، ومن هنا كانت وظيفته تتلخص في أن "ينفذ السياسات التعليمية لولاية كاليفورنيا، وكان ذلك يعني أن يقوم بتلقين الناس ما تعتقد شرذمة أنه المعرفة"[2]، ومن هنا جاءت فكرته في تأليف كتاب "ضد المنهج: خطة لنظرية فوضوية في المعرفة"، والذي نشره سنة (1975م)، ثم طور أفكاره في أعماله الأخرى من مثل "العلم في مجتمع حر Science in Free Society"(نشره سنة: 1978م)، ثم "وداعا للعقل Fsrewell To Reason"(نشره سنة: 1987م)، وناقش فيهما التنوع الثقافي وتعدد في البشرية، مبرزا أن الثقافة منتج بشري لا فضل للحضارة الغربية فيه.

ويضرب مثالا عن الأسس الميتافيزيقية للعلم ليقدم به حول نظرية الأوتار منه، بنظرية علمية يسميها علماء الفيزياء باسم "حيلة جروتسك Grotesaue trick"، و"تتلخص في القول بأنّك أينما وليت وجهك تقابلك نظريات تحدق بها صعوبات جوهرية – وعلى الرغم

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 7.

[2]- نفسه ص: 8. بتصرف يسير.

من ذلك يتم استبقاؤها لأن العلماء لديهم إيمان راسخ بإمكان حل هذه الصعوبات في يوم من الأيام"[1]، فرجع الأمر إذا إلى مسألة الإيمان، ومنذ متى أصبح الإيمان الغيبي له علاقة بالتجربة بالعلمية، وبالعلم المادي، وفي كل يوم نجد الفيزيائيين يقررون عدم الأخذ بالأمور الغيبية، والإبقاء على الأمور الحسية التي تخضع للملاحظة الحسية العلمية والفرضية العلمية والتجربة العلمية، وهنا نجد حسب هذه النظرية قد إنقلب الأمر من الفيزيائيين حول قاعدهم، تلك الوقاعد التي من خلالها يحاربون الإيمان الغيبي أي يحاربون الميتافيزيقا، فكيف تحارب الميتافيزيقا وأنت تؤمن بها؟ كيف أصبحت تلك المسائل الإيمانية فرضيات علمية؟

الجواب أن هذا الربط حدث بعد ظهور النظرية الكوانتية، وهذا النوع من البحوث واضح أنه مدفوع بنوع من الحدوس، وليس بنوع من التجارب العلمية، والتي يسميها المنطق بالخرافات العقلية، ذلك أنها غير مثبتة علميا، بل هي نوع من التنجيم العلمي، إذا التنجيم موجود في الفيزياء هي الأخرى. ومن هنا نفهم بأن الفيزيائيين يستعملون سلطتهم فوق العلم، فالعلم من حيث هو علم لا يقبل مطلقا مثل هذا التنجيم، ويخضع الكل للمخبر، فمن اعطى الحق للعلماء في مثل هذا الأمر، فالحجج التي قدموها هي حجج متعلقة بشيء مستقبليّ غير موجود وغير معلوم ولا يمكن الجزم به، ولنضرب مثلا بالمقال الآتي المنشور في الدورية الأمريكية "The Humanist"[2]، حيث في هذا العدد مقالات مختلفة تجتمع في محاربة التنجيم، "وقد كتبت تلك المقالات بطريقة رديئة، كما جاءت حافلة بالأخطاء. يقول أحد مؤلفي المقال: (لقد تلقى التنجيم ضربة ساحقة باعتباره نظاما يقول بمركزية الأرض)....و(يذهب كاتب آخر إلى أن التنجيم يرجع بأصوله إلى السحر). غير أننا إذا

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 119.

[2]- عدد أكتوبر/ نوفمر: 1975م.

لجأنا إلى الحديث بهذه الطريقة السطحية فنستطيع أن نقول أن أصول العلم الحديث أيضا ترتد إلى السحر"[1]، لأن علم الكيمياء مثلا خرج من رحم السحر، وعلم النجوم والكواكب والفلك خرج من رحم التنجيم، وعلم الطب خرج من رحم السحر والأعشاب، وهكذا ترجع أصول العلم الحديث إلى السحر[2]، و"لكن أنظر الآن إلى نهاية القصية العامة التي تسبق الحجج التفصيلية في هذا البحث سوف تجد توقيعا لعدد 186 عالما. 186 توقيعا، من الواضح أن السادة المثقفين الموقعين لم يهتموا كثيرا بالإقناع بالحجج أكثر من اهتمامهم بدفع الناس دفعا لتصديقهم، لأنهم إذا كانوا يمتلكون حجة واحدة جيدة فما ضرورة كل هذا العدد من التوقيعات؟" وهكذا يضيف "فييرابند" بأن "هذا المقال ليس سوى منشور علمي كنسي: لقد تجدث البابوات، وقضي الأمر"[3].

ومن خلال هذا الكلام يتبين بأن "فييرابند" يوضح بشكل ملفت للنظر ذلك الكهنوت العلمي من طرف العلماء في العلم نفسه، فهم يمارسون البابوية الكنسية في العلم، ويظهر هذا من خلال توقيعاتهم الكثيرة جدا من دون ذكر حجج علمية، بل همهم الوحيد جمع القارئ حول مقالات هي نفسها ضرب من التنجيم والخرافة، إذا العلم يدافع عن نفسه ولا يحتاج كثرة التوقيعات فهذا علم وليس انتخابات ودمقراطية وكهنوت بعدد الأشخاص الموقعين نقبل المنشور والمقال، ولو كان الموقعين أقل فنرفض المكتوب في هذا

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 120.

[2]- وقد كان هذا سببا كافيا لتحريم العلوم في الحضارة الإسلامية من طرف الفقهاء،ومن ثم تحريم الفلسفة أم العلوم بسبب هذا، فكانوا يحرمون الرياضيات باسم التنجيم وأن علامة الجمع عبارة عن صليب، ويحرمون الكيمياء باسم أنها سحر تغير المعادن وفيها الغش للمسلمين، ويحرمون الطب لأن كاتب كتاب الطب هو ابن سينا وهو فيلسوف، وبما أن عقيدة ابن سينا ليست صنية فيلزم ترك علم الطب الذي أبدعه، وهذا قمة الجهل.

[3]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 120.

المقال، فحين تتأمل في الموقعين تجدهم علماء كبار في الفيزياء والفلك، ومع ذلك تجد مقالاتهم تعتمد بشكل أساسي على أمور إيمانية غيبية ميتافيزيقية، أمورا لا يمكن إثباتها علميا، فمن منهم أثبت نظرية الأوتار وصحتها وذكر قواينينها؟ طبعا لا أحد، إذا ما الفرق بين التنجيم ونظرية الأوتار؟

الجواب أنّ الأمر في النهاية سواء لا فرق بينهما.فهم يشيرون بأصابع اللعنة على المنجمين وهم يمارسون التنجيم، "وقد حاولت إذاعة الـ BBC، بعد عدة شهور من صدور هذه الوثيقة أن ترتب حوارا بين بعض الحائزين على جائزة نوبل ممن وثعوا على الوثيقة وبين مؤيدون لاتنجيم، غير أن كل الحاصلين على جائزة نوبل رفضوا إجراء الحوار وكان السبب رفض بعضهم هو القول: بعدم وجود فكرة تفصيلية لديهم عن التنجيم: أن السادة المستنيرين لا يعلمون عما كانوا يتحدثون، والآن فإن هؤلاء الجهلة يقررون ما ينبغي وما لا ينبغي أن يدرسه أبناؤنا في المدارس؟"[1].

إذا –حسب "فييرابند" – علماء حائزين على جائزة نوبل، لا يعرفون المعنى اللغوي للتنجيم، وبالرغم من جهلهم بالتنجيم إلا أنهم يصفون المجهول لديهم بأنه تنجيم، وكان الواجب علميا صبط المصطلحات قبل الخوص فيها، بل وصبط المفاهيم وتمييز العلم من اللاعلم، تمييز التنجيم من اللاتنجيم، ثم بعدا ذلك يأتي الحكم على الشيء أنه من العلم أم من التنجيم، ولو حكم واحد منهم على شيء ما قبل تمييزه إذا هو نفسه وقع في التنجيم. ويقال عنه منجم ولو كان حاصلا على جائزا نوبل، وهنا بالضبط يظهر دول الفلسفة وبالخصوص فلسفة العلم التي تميّز العلم من اللاعلم، والتنجيم من اللاتنيجم، وعلماء المادة

[1]–بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 121.

التجريبية في غالبيتهم لا يعرفون الفلسفة ولا قيمتها ولهذا يقعون في أخطاء فادحة تكون سبب الإستهزاء بهم وجعلهم أضحوكة أمام العلم، بل وهذا النوع من العلماء يجعلون أنفسهم مصدر تقرير مصير البشرية؟؟؟ فهل فعلا نسلم عقولنا لمنجمين لا فرق بينهم وبين المنجم في شيء سوى أن هذا الفريق يملك جوائز نوبل؟ إنهم حفنة من أغبياء يصرفون ملايير الأموال في مشاريع سخيفة، وفي تطوير النووي الذي يقتلون به ملايين الأبرياء.

ثم حين الكلام عن علوم الفلك، من خلال نظرية الأوتار والفيزياء المعاصرة، نجد العلم المعاصر أصوله من ثقافة الحضارات الشرقية، تلك التي يصفها علماء الفيزياء اليوم بأنها مجرد شعوب ثقافتها روحية ميتافيزيقية دينية لا علاقة لها بالعلم. فكيف تكون كذلك وعند النظر في تاريخ العلوم وعلم الآثار نجدهم في تطور واضح في علوم الفلك، فمن أين كانت لهم تلك العلوم وهل هي تنجيم؟ لا شك أن أغبياء الفيزياء اليوم ممن سبق ذكرهم عند "فييرابند" يجعلون علوم الحضارات القديمة تنجيما، لا لشيء إلا لأنّهم لم يستوعبوا بعد قوة العلم الشرقي وهندستهم وعلومهم الطبية والرياضية وغير ذلك، وكيف تكون تنجيما وتلك الأهرامات مبنية بدقة رياضية لم يصل إليها العلم المعاصر بعد، إذا على العلم المعاصر الاعتراف بأنه متطفل على علوم الحضارات تلك التي يعتبرها تنجيما، وعليه فإن أصول العلم المعاصر ميتافيزيقية.

وأيضا بالكلام عن "علوم الحضارات الشرقية" القديمة فإننا بأن علومهم واسعة ودقيقة جدا وخير مثال على ذلك الأهرامات، ولكن العلم المعاصر الذي يزعم أنه يفرق بين العلم والميتافيزيقا، يتهم الهندسة الشرقية بأنها ليست هندسة علمية، والسبب لأنه لا يعرف كيف تم بناء تلك الاهرامات، إذا كل شيء يجهله يعتبره غير علمي، وهذا تناقض، بل الصواب على العلم أن يعترف بأنه لا يعلم كيفية بناء تلك الأهرامات، ويبتعد عن الميتافيزيقا،

والتنجيم، فنجد مع مثال جميل يضربه "بول فييرابند" في محاوراته، بأنّ الذين يؤكدون وجود علم فلك متقدم في العصر الحجري يؤكدون في الوقت نفسه بأنهم لا يملكون علوما كافية ومع ذلك يزرعون بذور الشك حول تلك الحضارات، والجواب أن "الذين شيدوا تلك المواقع الحجرية القديمة... فقد كانت لديهم القدرة الإحصائية... لقد كانوا أكثر... علما، وقد كشف العديد من علماء الأنثرولوجيا عن جهلهم أيضا عند استكشافهم للقبائل البدائية حيث انتهوا إلى أنّ العقلية البدائية لهذه القبائل تقدم لنا (الخرافة) لا (النتائج العلمية).

وبالمثل حاول الأطباء مؤخرا بسبب جهلهم بأسلوب الوخز بالإبر أن يسخروا من هذا الأسلوب وأن يمنعوا ممارسته بالطرق القانونية. فهم يستخدمون القانون ليستبعدوا العديد من الاختبارات الجيدة الممكنة"[1]، والمعنى أنك تجد علماء العصر يرفضون المعارف الحضارية للشعوب الشرقية فقط لأنها شرقية وليس لأنها غير علمية، وهذا الرفض هو نوع من الميتافيزيقا التي يجب على العلم المعاصر لو كان علما حقيقيا أن يتجنبها، إذا أسس العلم في نهايتها ميتافيزيقية، لأنه لا يستطيع تفسير الهندسات والطب والرياضيات والفلك وكل العلوم الشرقية علميا، لأن العلم المعاصر أقل علما من العلم القديم الواسع الدقيق، وعلماء العصر أكثر جهلا من علماء الحضارات الشرقية، والعلم المعاصر وقع في مأزق علمي بأسلوبه هذا.

طبعا حينما نرجع إلى فكرة "الجاذبية" نجد أنها في الفلسفة اليونانية تفسر على أن الاجسام بها أرواحا، ويحدث "تجاذب للأرواح" التي في الأجسام فتنجذب الأجسام

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 123

لبعضها، ومع وصول العلم إلى "نيوتن" تغير مفهوم الجاذبية، ثم مع العلم المعاصر مع نظرية "أنشتاين" في "النسبية العامة والخاصة" وتحاد المادة والطاقة، تغير مفهوم الجاذبية، ثم مع ظهور "نظرية الأوتار الفائقة" سيتغير مفهوم الجاذبية، إذا تاريخ العلم فقط حول "تاريخ فكرة الجاذبية" يتغير في كل مرة على أساس تصحيح هذه الفكرة في الفيزياء، وليس الإعتراض على المفهوم السابق لها في كل مرحلة، بل العلم يحكم بأن المفهوم السابق خطأ، والمنهج المتبع في تفسير الجاذبية في تلك المرحلة خطأ، وعليه ففي كل مرة يشهد العلم على نفسه بأن مناهجه خطأ، إذا أين المنهج العلمي الصارم الذي يتبعه العلم سوى أفكار إنسانية يقول بها العقل البشري في كل مرحلة كإجابة على أسئلة وقته، ومن هنا جاء تأليفه لكتابه "وداعا للعقل Fsrewell To Reason"، والقول بالفوضوية المعرفية Theoretical Anarchism. ومن هنا ينتهي إلى رفض فكرة وجود منهج علمي، وبالتالي يقول بفكرة التّغير "هيراقليدس" ويلخصها بقوله "كل شيء يمر Anything goes" وهو المبدأ الوحيد الذي يقول به، ويبدأ مباشرة بنقد مبادئ صديقه "بوبر"، قائلا "لا يوجد حدث هام واحد في تاريخ العلم يمكن تفسيره من خلال منهج بوبر، كما لا توجد محاولة واحدة لدى هؤلاء النقديين لرؤية العلم من منظور صحيح. إنّ هذه الفلسفة ليست سوى خادم مخلص غير فاهم للعلم"[1]. ثم يوسع النقد على الوضعيين، وكافة الإتجاهات السائدة في فلسفة العلم، وأن تاريخ العلم دائما هو ضد العلم من جهة أنه يفضح نفسه وباستمرار بأنه بلا منهج، إذ يصحح منهجه في كل مرحلة تقدمية له، وليس غرضه هنا هو استبدال قواعد عامة في العلم بأخرى من اختراعه، بل غرضه "إقناع القارئ بأن مناهج البحث برمتها، حتى أكثرها وضوحا له حدوده"[2].

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة: ص: 20.

[2]- نفسه: ص: 21.

– وهكذا يتناول "فييرابند" نظرية الاوتار، من خلال نقده للعقلانية العلمية التقليدية الغربية، ويدعو إلى الفوضوية المنهجية كما شرحناها من قبل، فيتكلم في نظرية الأوتار رادا أصولها إلى اليونان حين كلامهم عن الذرة، هذه النظرية التي تحاول التأسيسلقوانين فيزيائية تجمع كل القواعد بداخلها، ولكن هناك تساؤلات علمية وجب تحريرها حول هذه النظرية، فهناك العديد من المبادئ الفيزيائية تقوم على افتراضات منهجية يتم تجاوزها مع تقدم العلم، مع الاحتفاظ فقط بالنظريات التي تواجه صعوبات يمكن حلها مستقبلا حسب "حيلة جروتسك". وعليه فنظرية الاوتار مثلها مثل أي نظرية علمية، في نهايتها لها جذور ميتافيزيقية، وخير دليل أن كل النظريات نشأة من الاسطورة والثقافة وليس من العلم، هذا ما يثبت تاريخ العلم نفسه. ومن هنا وجب نقد الكهنوت العلمي والدعوة إلى التفكير النقدي في الأسس التي تقوم عليها النظريات العلمية، ويختم بأن تاريخ العلم يظهر باستمرار أنه لا منهج مطلق وثابت، بل يصحح العلم مناهجه باستمرار.

المبحث الثاني: فكرة الفوضوية وأبعادها المنهجية:

1. الفلسفة الفوضوية:

لقد كتب فييرابند حول الفوضوية مقالا علميا كاملا، بيّن فيه بأن الأخيرة ليست فلسفة جذابة، بل علاج ودواء فكري لفلسفة العلم والأبستمولوجيا، واستدل لهذا بتاريخ العلم نفسه، والثورات العلمية التي دائما ما تفضح العلم وتبين بأنه كان بلا منهج علمي صارم، بل في فوضى عارمة[1]. ومن هنا يمكن القول بأنّ "الأطروحة التي قدمها فييرابند واحدة من أجرأ الأطروحات التي قامت بمراجعة المنهج العلمي، فما هي المنطلقات النقدية التي اعتمدها فييرابند في ابستمولوجيته الفوضوية كأساس لإعادة قراءة المشروع العلمي؟"[2]. وهذا من خلال عدة نقاط منها:

نقده الوضعية المنطقية، والتي حرصت على تحليل المعرفة الإنسانية، ثم حصرها في المعرفة المادية دون غيرها، في محاربة ظاهرة للميتافيزيقا ضمن مشروع المنهج التجريبي منهجا أوحدا للعلم، وكأن العلم يخضع لمنهج واحد لا يتغير، فانتقد فييرابند هذا التصور وبين الجانب اللاعلمي واللامنهجي واللانسقي في العلم، معتمدا على تاريخ العلم نفسه، حيث أن العلم نفسه تتعرض طريقه صعوبات يتجاوزها من خلال الميتافيزيقا وليس من خلال العلم والمنهج العلمي الصارم الذي تزعمه الوضعية المنطقية، وفي كل مرة يبرر فيها العلم تجاوزاته يقع في فروض غير علمية.

(1)- Paul Feyerabend : Against Method .Op.cit. saيme page .

(2)- بوعلام الزهرة: الإبستمولوجيا الفوضوية عند بول فييرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم (مقال علمي: مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 10، العدد: 2، جامعة ابن خلدون: تيارت، الجزائر: 2022م) ص: 563

ومنها نقده فكرة القابلية للتكذيب عند كارل بوبر، من جهة أن العقل البشري يتعلم من خلال المحاولة والخطأ، فقد كان متأثرا بفكرة بوبر –كما شرحنا هذا في الفصل الأول– ثم تراجع عن هذا المنهج البوبري، وهذا واضح من خلال نقده لبوبر، من خلال نقد الأصل الذي قامت عليه فلسفة بوبر، والمتمثل في الكشف أولا عن أفكارنا وهل هي صحيحة قبل إستعمالها في تصحيح الخطأ، ولعل الفكرة التي نستبعدها تكون هي الفكرة الصحيحة التي يجب العمل بها، فكل الفروض يجب الأخذ بها، وعليه فبعض النظريات لا تقبل التكذيب على طريقة بوبر.

ومنها نقده لفكرة إشكالية تطور العلم عند "توماس كون" مؤرخ العلم، صاحب كتاب "بنية الثورات العلمية" وفكرة اللامقايسة[1]، والتي تعني اللاعقلاني، أي الجانب اللاعقلاني في المدراس والمناهج العلمية، ذلك أن المناهج ليست خطأ في حد ذاتها بل طريقة إستعمال كل مدرسة لهذا المنهج أو ذاك، فالعلم يتطور من خلال تطور المنهج العلمي، فـ"(كون) رفض النظر إلى العلم وإبداعاته وتطوره من وجهة نظر فردية. فهو اعتقد أن تاريخ العلم لا يمكن فهمه وشرحه إلا بفضل المتحدات العلمية وبراديغماتها"[2].

ومنها نقد الميثولودولوجيا عند "لاكاتوس إمري"، وهذا بعد التأكيد على أهمية هذا الفيلسوف وفلسفته، لكن بعد توضيع نقد "لاكاتوس" للمناهج الموجودة، حتى أنا نقده يشبه تقريبا نقد فييرابند للمناهج، لكن الإختلاف فقط في الجانب الميثودولجي، فهو يرفض

---

[1]– "هي نوع من القطيعة المعرفية التي تعني عدم قابلية النظرية العلمية القديمة للمقايسة مع النظرية العلمية الجديدة". بوعلام الزهرة: الإبستمولوجيا الفوضوية عند بول فييرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم ص: 563.

[2]– توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة حاج إسماعيل: مراجعة: محمد ديس، دار النشر المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007 ص: 8.

كل ميثودولوجيا تريد وتسعى لأن تبني نظرية معينة موحدة نجعلها الجانب العقلاني الوحيد الذي نلتزم به في ممارساتنا العلمية، فلا يوجد برنامج منهجي موحد مطلقا.

ومن هنا تظهر الفلسفة الفوضوية في فكر فييرابند، والتي بدأها بالنقد، ومن ثم بررها بأدلة علمية، وذكر أمثلة عليها من بينها نظرية الأوتار، إذ لو كان العلم كما كان العلماء من قبل يقولون بأن العلم صارم ووفق منهجية محددة يسير ويبحث، لما وجد هذا الإختلاف بين الفيزيائيين حول هذه النظرية، التي كشفت الجوانب الخفية من العقلانية الغربية المزعومة، والتي تبجحت طيلة قرون عديدة بأن تملك العقل واللغوس والمعرفة والمنهج، إن فلسفة فييرابند حول الفوضوية يفتح مجالا للحكم بأن فلسفة العلم في جوهرها محتاجة إلى إعادة بناء، وأن النظريات العقلانية Theories of Rationality، ما هي إلا إنعكاس للثقافة، وأن الإبستمولوجيا المريضة محتاجة إلى إبستمولوجيا صحية Healthy Epistemology، هي تلك الإبستمولوجيا التي تجمع كل الثقافات والأفكار والآراء في سياق واحد موحد من خلاله ننظر للعلم[1].

فينطلق في كتابه "ضد المنهج: خطة لنظرية فوضوية في المعرفة"، عن فكرة يمكن تسميتها بأنها نوع من الفوضوية المعرفية Theoretical Anarchism، أي أن العلم نفسه فوضوي، أو عمل فوضوي، بل يصرح قائلا: "العلم أساسا عمل فوضوي: والفوضوية النظرية أكثر إنسانية من العلم ومن المرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام"[2]، وهي فكرة يمكن أن نبرر بها فلسفة العلم حسبه طبعا، فهي فكرة تعلل المعرفة العليلة، وجزء من الإجابة عن بعض إشكالات نظرية المعرفة، ومن هنا ينطلق في محاربة مناهج البحث الكلاسيكية، وعليه فإن المنهج الأمثل للعلم –حسبه– هو اللامنهج،

---

[1]- Robert. P . Farell :*Feyerabend and Scientific Values . tightrope- walking Rationality* .vol . 235 . Kluwer Academic Publishers . Australia . 2003 p – p – 5 -6 .

[2]– بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 11.

أي أن العلم بلا منهج أساسا، وهذه الإجابة صادمة حقا، إذا كيف يُعقل أن يكون العلم بلا منهج يميزه عن أي نشاط إنساني، حيث يقول "تواجه فكرة منهج علمي يتضمن مبادئ صارمة لا تتغير وملزمة إلزاما مطلقا صعوبات جمة عند مقارنتها بنتائج البحث التاريخي... إذ لا توجد قادة واحدة، مهما بدت متمكنة، او مستندة إلى أسس ابستمولوجية راسخة إلا وتم تجاوزها في وقت من الأوقات"[1]، أي أن تاريخ العلم نفسه يشهد بأن العلم لا منهج هل، ففي كل مرحلة زمنية يتطور فيها العلم، ويصحح أخطاءه، يجد نفسه يفند قوانين كان يعتقد بأنها صارمة، حتى مع طول الزمن تغير كل القوانين وبالتالي المنهج المتبع في البحث العلمي، إذا لا منهج للعلمي في الحقيقة سوى أفكار إنسانية تتطور مع الزمن، وهذا الأمر ليس عارضا بل تاريخ العلم نفسه يشهد به، ليبرهن على أنه "مهما بدت لنا قواعد المنهج التي يتشدق بها فلاسفة العلم ضرورية وأساسية فهناك دائما ظروف تستدعي ليس فقط تجاهل هذه القواعد، وإنما تبنى عكسها"[2].

وهكذا نجد "فييرابند" في تبرير حجته يعتمد على تاريخ العلم نفسه كما ذكرنا ذلك آنفا، بمعنى أن تاريخ العلم يثبت بشكل واضح أن نتائج العلم وتطوره وقوانينه ليست وليدة منهج محدد، وإنما وليدة ثقافة علمية مشتركة بين البشرية، فكل المناهج البشرية التي استعملها الإنسان وحلّت له مشكلة ما، فإنها مقبولة علميا، أي لا يمكن رفض مناهج الحضارات القديمة التي كانت سببا في تطور العلم عندهم فقط بسبب أنها تنتمي للحضارت القديمة، فنحن نعلم بأنّ الأهرامات مبنية وفق مناهج علمية رياضية وفيزيائية، وليست قوانين بنائها مجرد صدفة، والطب في الحضارات القديمة مثل الحضارة الفرعونية كان متطورا جدا وأكثر

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 11- 12.

[2]- نفسه، ص: 12.

دليل عليه التحنيط الذي من خلالها تم حفظ الأجساد قرونا عديدة فهذا الحفظ تمّ عن علم وليس مجرد صدفة.

وعليه فلا يمكن للفلسفة الغربية أن تزعم بأن الطب تطور معها فقط وأن التحنيط ليس علما، بل تاريخ علم الطب ممتد إلى الحضارات القديمة، والتداوي بالأعشاب أيضا علم من العلوم أثبت تاريخ العلم أن الناس يستعملون ويفي بالغرض، ولعله أفضل بكثير من الأدوية الكيمياوية، وعليه فطب الأعشاب طب علمي لا يمكن الشك فيه، والمنهج المستعمل في الطب هو الآخر علمي، وعليه ففييرابند يحاول من تاريخ العلم أن يثبت بأنّ كل المناهج التي تؤدي النتيجة وتحققها هي علمية، فما دام الحل يلائم طبيعة المشكلة ويحلها فهو مقبول علميا.

فالفوضوية إذا ليست فوضى بالمعنى المتبادر إلى الذهن حتى نرفضها، بل معناها أن الغرب عنده فوضوية في قبول مناهج دون غيرها، وعقلانية تقرّ فقط بما هو غربي دون غيره، فهذه الحضارة الإسلامية تبيّن بأنّ العلم معها في الطب تطور بشكل لافت وكذلك في الهندسة المعمارية والرياضيات والفلك وغير ذلك، ومع ذلك نجد من الغرب الإقصاء الواضح لكل ما هو عربي أو إسلامي فقط بسبب الصليبية ومعتقدهم الديني وليس رفضا منهجيا علميا، فتاريخ العلم يبيين بأن الحضارة الإسلامية قدمت للإنسانية تراثا ضخما من العلم، فكيف يمكن للعقل الغربي الذي يزعم العقلانية أن يتجاوز كل ما هو إسلامية أو عربي أو شرقي، فهذا السؤال منطقي جدا في العلم وفلسفة العلم؟

والجواب عن السؤال: أن العقلانية الغربية محدودة، وهذا إنما يدل على عقلانية غربية هشة من داخلها، عقلانية لا تجمع كل العقول، بل تقتصر على العقل الغربي فقط، وهذا مخالف للعلم، وعليه فمن نتائج الفوضوية أنها "تساعد على تحقيق التقدم، مهما كان المعنى

الذي يحرص على إعطائنا إياه، حتى أن أي قانون أو نظام للعلم لن ينجح إلا إذا سمح للحركات الفوضوية أحيانا أن تأخذها مكانها"[1]. وعليه يمكن القول بأن من نتائج الفوضوية أيضا أنها تصحح المناهج العلمية التي من خلالها سيتقدم العلم، ومن المنهجية اللامنهجية، بمعنى أن كل شيء جائز بدلا من إقصاء أشياء ممكن أن تكون هي الحل المنهجي لكثير من مشكلات العلم.

ومن نتائج الفوضوية مع فييرابند أنه يعتبرها منهجا علميا جيدا يمكن تبنيه في الفلسفة، من اجل تصحيح مسار الفلسفة والعلم، ويضرب لهذا أمثلة علمية بالفيزياء المعاصرة وتقدمها في مثل نظرية الكم، إنما كان نتيجة الإنفتاح على كامل الإحتمالات العلمية، "إذ أن الشخص الذي يحاول أن يحل مشكلة سواء أكان ذلك في العلم أم في أي مجال آخر ينبغي أن يمنح كامل الحرية، ولا يمكن تقييده بأي مطالب[2]، فالتقييد يكون عائق أمام الحلول، إذ لا يمكن الجزم بأن ذلك الذي تم استبعاده لا يكون حلا للمشكلة، بل كل الإحتمالات واردة في حل المشكلة.

إذا يجب الأخذ بكل الإحتمالات سواء كانت علمية أم غير علمية ومجرد ثقافة علمية، لأن الذي نعتبره ثقافة وليس علما يمكن أن يكون هو الحل او الطريق للحل، وخير مثال على ذلك ما نراه في أن الفلسفة في كل زمان تخترع منطقا جديدا تتعامل به مع الأفكار، كما نلاحظ تعدد المذاهب الفلسفية من مثالية وعقلانية وتجريبية ووجودية وغير ذلك، فهذا التنوع غنما دليل على تنوع العقل البشري، وبالتالي فكل فكرة ناتجة من العقل هي عقلانية، وليس فقط ما نتج عن العقل الغربي.

---

[1]- Paul Feyerabend, *Against Method* , p-18.

[2]- بول فييرابند: العلم في مجتمع حر، ص ص 136 -137.

فالفوضوية تفرض فتح المعايير والمبادئ والقوانين وعدم الجزم بشيء ما بأنه هو الأصل الذي يمكن الإعتماد عليه دون غيره من المبادئ، وخير مثال على ذلك ما نراه اليوم من عدم قدرة العقل البشري على التنبؤ بالكوارث التي تقضي على البشرية، إذا لو فتحنا المجال من قبل على كل الإحتمالات وراجعنا المبادئ لكانت الإنسانية اليوم خير بكثير مما نراه من تصادم وحروب وتدمير للإنسانية باسم العلم، فالعقلانية الغربية هي عقلانية إيدلوجية تبرر مصالح الغرب دون مصالح الإنسانية، ذلك أن فكرة فييرابند هي "اقناع القارئ بأن جميع المنهجيات حتى تلك الأكثر وضوحا لها حدودها"[1].

انّ العقلانية الغربية بالنهاية لها حدودها، والعلم له حدوده، وكل شيء له جدوده، ويجب النظر بعقلانية منفتحة حول المبادئ والحدود، فبعض القواعد في حقيقتها ليست علمية ولا عقلانية ولا إنسانية ولا تستحق أن تكون أساسية في المناهج العلمية، في حين تلك التي يتم استبدالها هي التي ينبغي أن تكون أساسية في عالم العقل والعقلانية.

2. بول فييرابند والفوضى المنهجية:

لقد ظهر مع القرن العشرين "ثلاثة أشياء: النظرية النسبية، والفيزياء الكمومية، ونظرية الفوضى، التي اعتبروها الثورة العلمية الثالثة في تاريخ علم الفيزياء"[2]. وأصبحت الفوضوية كمذهب سياسي منمدج في هياكل الفكر، فنجد بأن النظرية النسبية حطمت الفيزياء الكلاسيكية وأدمجت الزمان بالمكان، وهكذا أسقطت نظرية الكوانتوم ما يتعلق بفكرة القياس الدقيق والدقة العلمية، وأخيرا النظرية الفوضوية والتي أزاحت فكرة التنبؤ في العلم الذي كثيرا ما جعله علماء المنهج التجريبي القانون الأساسي بعد الملاحظة والفرضية والتجربة، وأن العلم

---

[1]- Robert . p, Farrell, : Op. cit , p 7.

[2]- بوعلام الزهرة: الإبستمولوجيا الفوضوية عند بول فييرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم: ص: 565

يستطيع التنبؤ بالمستقبل وبقي فقط معرفة نشأة الكون في الماضي، فجاءت النظرية الفوضوية لتحطم فكرة التنبؤ. ثم جاءت نظرية الأوتار لتحطم الفيزياء جميعها، وتنبؤ بظهور فيزياء عصرية مختلفة تماما عن الفيزياء الكلاسيكية، ومنه أصبح هناك فوضى منظمة في العلم، تحطم المنهج العلمي الذي كان يعتقد العلماء فيه أنه ثابت ومنظم، فتبين أخيرا بأن العلم قد وقع في مأزق حقيقي.

وبعد نظرة دقيقة حول كتابات "فييرباند" نجد أنّ الفلسفة الوضعية بارزة في بداية حياته، والتي تنطلق من أنّ التجربة أساس المعرفة وأصلها، بل ومقياس الصحة والخطأ في العلم، مع نفي التيار العقلاني جملة وتفصيلا إلا جانب المنطق منه، وكل المعارف الباقية مجرد هراء لا قيمة له من الناحية العلمية، ثم في أطروحة الدكتوراه الخاصة به والتي كانت سنة 1951م "هاجم ذلك التقليد (الوضعي)، وجادل ضد التوصيفات الساذجة لدور الملاحظة في التجربة، وبعد أن قابل (لودفينغ فيتغشتاين) حاول إعادة صياغة مقولاته المختصرة في كتاب (تحقيقات فلسفية Philosophical Investigations) على شكل حجة منهجية، وذلك لتذمره من تصوره العقائدي للفلسفة باعتبارها علاجية فقط[1]، وعمل مع (كارل بوبر) Karl Popper في لندن، وحمل أفكارا عقلانية هامة إلى أوربا وشمال امريكا، وذلك قبل أن يتحول إلى أحد أشد منتقدي بوبر"[2].

من خلال نقده للسائد من الأفكار الإيديولوجية التي اختلطت بالعلم، تبين كيف تأثرت فلسفة العلم بالثورات العلمية في تخلصها من تلك العوائق، ما جعلت الفلاسفة

---

[1]- من جهة أنها غالبا ما تقدم حلولا جاهزة، فهي لا تعرف كيف تنتقد الفيزياء مثلا، بل تصف ما توصل اليه العلم وفقط، من دون الغوص في انعكاسات النظرية النسبية على الفلسفة نفسها.

[2]- بول فييرانبد: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 19.

يعيدون النظر في الكثير من الأسس المنهجية، ومنهم "بول فييرابند" مع نقده للمنهج العلمي المعاصر، وعليه يصرّح بتعددية المناهج ورفض فكرة المنهج العلمي الموحد المحدد[1]. بمعنى أن التعددية المنهجية حسبه تؤمن بفكرة البدائل المعرفية النظرية المتعددة، المساهمة في توسيع المفاهيم والمدركات الإنسانية، ويصرّح بعدم وجود منهج علمي موحد يصلح لكل النماذج البحثية، حتى نثق فيه ونجعله منجها موحدا، من جهة أن فكرة النموذج المثالي غير صحيحة فلسفيا فضلا على أن تكون صحيحة علميا[2]. ووفقا لهذا الطرح وجب على فلسفة العلم المعاصرة أن تتجنب المطلقية في الأحكام، وعلى الفلاسفة مراجعة العلم ومناهجه، وعلى العلماء مراجعة الفلسفة ومناهجها، فالكثير منها هو عائق علمي في طريق العلم ويجب القطيعة معه ابستمولوجيا، بل ضرورة علمية – بحسب تعبير "باشلار"[3]– ذلك "انّ العلم حين يغيّر من مناهجه يصبح أكثر منهجية"[4].

فمفهوم المنهج ليس نفسه، بل لا يمكن علميا القول به، أي القول بأنه يمكننا تعريف المنهج، وهذا ما نلاحظه بشكل واضح في كتابه "ضد المنهج" الذي بيّن فيه تهافت فكرة أن العلم أسير للمنهج، بل العكس هو الصحيح، أي أن العلم هو من يضبط المنهج الذي من خلاله يصل للحقيقة، ولو جعلنا المنهج هو القائد في البحث العلمي فإننا قد نضل الحقيقة أساسا، لأنه لا سلطة فوق العلم[5]، من جهة أنّ "العقلانية التي ينشدها ليست

---

[1]– حياة مشاط: الظاهرة العلمية عند بول فييرابند (مجلة الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مجموعة: 13، العدد 01، جامعة حسيبة بنبوعلي الشلف، الجزائر، 2021م) ص: 285.

[2]– بول فييرابند: العلم في المجتمع الحر، ترجمة: السيف نفادي ص: 113.

[3]– أنظر: مُحَمَّد وقيدي: فلسفة المعرفة عند باشلار.

[4]– شعبان حسن: برونشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم: ص: 154.

[5]– يمنى طريق الخولي: مفهوم المنهج العلمي: ص: 119.

الوصول إلى نظرية مثالية، إنما بالأحرى زيادة محيط البدائل، واستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت منذ زمن وأصبحت طي النسيان، لأنه ربما يكون بها عنصر مثالي يقيّد معرفتنا"[1]. فهو بهذا يتوافق تماما مع "توماس كون"[2]، صاحب كتاب "الثورات العلمية"، برفض كل القواعد والمعايير الخارجية والتي تجعل لنفسها الحق في ممارسة يسميها بعضهم بالعلمية، ذلك أن القواعد مهما عظمت فهي خاضة للتطور، فالمنهج الواحد لا يتوافق منطقيا مع الروح الإنسانية، الروح الباحثة عن الحقيقة في كل المجالات، الروح المطلقة التي تسعى وراء العلم والبحث باستمرار سعيا وراء الحقيقة المحتملة، التي لا يمكن ربطها بأي إنسان أو منطقة جغرافية فضلا عن منهج موحد، فتوحيد المنهج يلزم منه بالضرورة تقييد الحقيقة أو تغييبها[3]، كما يشير هو نفسه إلى ذلك ممثلا له بالثقافة وتنوعها، فتنوع الثقافة واللغة ناتج عن تنوع طرق الفهم والتعلم[4].

ولا نفهم من الفوضى المنهجية عدم الإتساق أو العشوائية بل نفهم أنها عبارة عن إتجاه يناهض المعتقد السائد ويضاده ويخالفه، يمشي بطريقة عكسية مع النقدية البوبرية، والمعنى أن فييرابند أراد من خلال هذا المنهج، المنهج الفوضوي عدم الإنسياق والخضوع لقوانين العقل والتي يلخصها العقل الغربي في عقلانيته، بل يجب على العقل أن يراجع عقلانيته في كل مسيرة علم، إذ لا يمكن القطع بوجود أي شيء ثابت ومحدد سلفا، بل تاريخ العلم يبين بأن العلم نفسه يغير من نفسه في كل مرحلة ومن مناهجه التي يستخدمها في الوصول

---

[1]- خالد قطب: العقلانية العلمية، ص: 44. بتصرف يسير.

[2]- هناك دراسة علمية بعنوان: فلسفة العلم بين توماس كون وبول فييرابند: دراسة مقارنة، يمكن الرجوع إليها للتفصيل أكثر.

[3]- بول فييرابند: العلم في المجتمع الحر، ص: 114.

[4]- بول فييرابند: ثلاث محاورات في المعرفة، ص: 6.

للحقيقة العلمية، ويمكن من خلال هذا أن نقول بأن فييرابند قد نحت مصطلحا جديد يمكن صياغته في "تاريخ العلم الفوضوي".

3. بول فييرابند والأصولية العِلموية:

يذهب "بول فييربايند" إلى أنّ العلم لا مزية له بها يتفوق على غيره من الأنشطة الإنسانية المختلفة، بل العلم عبارة عن تجربة اجتماعية إنسانية، ونشاط فكري أجاب فيه الإنسان عن انشغالات يومه، أي أجاب عن تساؤلات الإنسان الحياتية، وهذه الإجابات ليست قائمة على منهج صحيح صارم لا يخطئ، ومن هنا نجد "فييربايند" في وصفه للعلم يذكر إيجابيات وسلبيات العلم، فيقول: "نعم لقد كان العلم في مقدمة الحرب ضد السلطوية وديكتاتورية التّخلف والخرافة، ونحن ندين للعلم بتحرير الجنس البشري من نير الاستبداد وطغيان أصحاب الأفكار القديمة البالية، كما ندين له أيضا بالحرية الفكرية المتزايدة، حتى أضحى العلم والتنوير صنوين أو اسمين لشيء واجد"[1].

لكن المفارقة أن عصرنا الحالي أصبح النقد فيه متاحا، الجميع ينتقد بالصواب والخطأ، المهم أن النقد أصبح ثقافة عصرية في هذه المجتمعات، خاصة منها المجتمعات الغربية بعد ظهور الفلسفات الوضعية، أما العربية فالغالب عليها النقد بلا علم، بل تقلد الفلسفة الغربية وتجترها حتى في النقد، ولكن "فييربايند" فيلسوف غربي، ومن هنا فانه يتكلم عن مجتمعه الغربي والايديولوجيات الغربية التي انغمس فيها مجتمعه بعد أن كان يحارب الخرافة وينتصر للعلم.

---

[1]- بول فييرابند: ثلاث محاورات في المعرفة، ص: 27.

من هنا نجد "ليفي شتراوس الذي جعلنا ندرك أن الفكر الغربي ليس هو القمة المتفردة للإنجازات الإنسانية، كما كان الغرب يعتقد، استثنى العلم أيضا من هذه النسبية الإديولوجية"[1]، أي أن الثقافة العامة الغربية تنتقد كل شيء ما عدا العلم، ولكن "فييرباند" ينتقد كل شيء ومنه العلم من جهة أن العقلية الغربية تحاول فرض ثقافتها على غيرها من الشعوب باسم العلم "المجتمع الذي يكون فيه لكل التقاليد والثقافات حقوق متساوية بغض النظر عن تصور الثقافات الأخرى لها"[2].

فالعلم التنويري الذي كان في فلسفة الأنوار ينور العقل، اليوم تغير ورجع مجرد إيديلوجيات، وأداة للإستعباد، فشأنه شأن أي ثقافة قد تدمر ولا تبني، ثقافة تخرب القيم والأخلاق، ثقافة تؤسس ديانة جديدة يتدين بها الغرب ليفرضها فيما بعد على الإنسان، وهذا ما نراه في منهجية تعليم النشء بطريقة التقليد والتلقين والمحاكاة، تلك الطريقة التي تبجح الغرب مرارا على جعلها مسبّة يسبّ بها الحضارات الشرقية وأنها غير علمية ومنهجها هو الحفظ والتقليد، هو نفسه اليوم يعمل بها حرفيا ويحارب بها غيره من الشعوب ممن يعترض على تلقيناته التي يروج لها كأنا شريعة سماوية من اعترض عليها فهو معترض في نظرهم على الحقيقة وهذا جد غريب، ومن هنا يقرّر بعد مقارنة مجتمع مع مجتمعات الحضارات الغربية قائلا "إنجازات واضعي الأسطورة في العصور السابقة أفضل من إنجازات العلماء في كافة العصور وأن مخترعي الأسطورة الأوائل بدءوا الحضارة بينما اكتفى العلماء بتغييرها، وليس إلى الأفضل دائما"[3].

---

[1]- بول فييرابند: ثلاث محاورات في المعرفة، ص: 27.

[2]- نفسه، ص: 28.

[3]- نفسه، ص: 31.

ومنه نفهم منهجية "بول فييرابند" في محاربة الأصولية العِلموية، أي محاربة طغيان العلم (The Tyranny of Science)، فهو في منهجيته هذه ضد المنهج[1]، أي ضد النظرة الإختزالية التي تجعل العلم وحده من يصل إلى الحقيقة، فهو يشبه العلم بالدين، من جهة أن بعض العلماء أصبح العلم عندهم مثل الدين تماما، لا يخطئ ومعصوم عن الخطأ، ومنهج العلم يتميز بالصرامة، وهذا في حدّ ذاته خرافة، فكما أن علماء الدين فيهم الخرافة الدينية من جهة أنهم ينسبون للدين أشياء هو منها بريء فكذلك أصبح علماء الفيزياء ينسبون للعلم أشياء هو منها بريء. فالنزعة العلموية إذا عليها التراجع عن هذه الخرافة، بل الفلسفة لها منهجها الذي من خلاله تصل للحقيقة، وكذلك الدين له منهجه للوصول إلى الحقيقة، وليس العلم فقط من يملك المنهج الموصل إلى الحقيقة، فهذا كلام الذين يعادون الدين والفلسفة ينتصرون للمادة، فمنهجهم ماديّ صرف، والعلم في جوهره وحقيقته التي يجب أن يكون عليها ضد هذه الإختزالية، وعلى فلسفة العلم أن تصحح مسار العلم الذي أصبح اليوم أكثر خرافة من كل شيء.

وهكذا تظهر فلسفة "فييربايند" التعددية، "والتي غالبا ما أسيء فهمها، والتي لا تتصل بأي وجهة نظر مفردة، وتقدم كثيرا من المقاربات المختلفة للقضايا المعقدة"[2]، وعدم التعددية والتوحد المنهجي يناسب الكنيسة وليس العلم والحقيقة المعرفية، وهو ما يجعل الإنسان يفقد الاستقلال الفكري ويصبح عبدا لمنهج واحد مثل الوضعية المنطقية أو المنهج التجريبي أو غيرها من المدارس الفكرية والتي لا نملك دليلا علميا يقول بالاعتماد على هذه المدارس دون غيرها، ومخالفتها يعد جريمة علمية، بل هذا عين التفكير الكنسي الذي حاربه العلم من قبل في

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 20.

[2]- نفسه: ص: 21.

الفترة الوسيطة في الحضارة الغربية، وهذا الكلام يصلح في العلم كما يصلح في الفلسفة كما يصلح في أي مجال آخر من مجالات المعرفة كلها، فالاعتماد على منظور واحد من أجل الحقيقة يعمي عن الحقائق الأخرى التي تقدمها المنظورات المغايرة، بل فيه قمع واضح للآخر من طرف من يقتصر على منظور واحد وفقط.

فنظرية "فييرابند" في نهايتها تسعى حثيثا للإستفادة من كل وجهات النظر الباحثة عن الحقيقة، مع أخذ الجانب الإيجابي من كل جانب، فكلما تنوعت المصادر كانت النتيجة أقرب للحقيقة من تلك التي تعتمد مصدرا واحدا، ولهذا كثيرا ما "أصرّ بأن وضع وجهات نظر متفاوتة يحسّن التقدم أكثر من مجرد الالتزام بمنظور واحد فقط، مهما بدا أنّ هذا المنظور ناجح"[1]، وعليه فإن تقدم العلم لا يكون وفق خط سير مستقيم كما كان يعتقد "فردريش هيجل" في الفلسفة وأنها انطلقت من اليونان لتصل إلى الألمان، بل حركة العلم في نهايتها "كم هائل من البدائل" والطرق ما يشبه ما تقرّره نظرية الأوتار وتعدد الأكوان. ومن هنا مارس فلسفته التعددية، واستخدكل الطرق المتاحة له من التحليلات اللغوية، والمنطق، والمنهج التاريخي، بل والقصص وخبرته في المسرح، من أجل أن يطور فكره.

وعليه فإنّ كلامه في كتابه "ضد المنهج" لا يعني أنه ضد المنهج فقط ليقال أنه ضدّ، بل هو منهج ارتدادي ضد الإلتزام بالمنهجيات، من خلال عرضه لمسائل علمية تبيّن الإيديولوجيات الظاهرة في المدارس الفكرية، التي تنتطلق من حتمية أنها المالك الوحيد للحقيقة دون غيرهم من المدارس، وهذا كلام واضح الخطأ وبكل بساطة، ولا يحتاج إلى أي دليل لإبطاله، لشدة وضوح بطلانه، وخير الأمثلة ما نراه من الأخطاء العلمية التي يقع فيها

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 22.

العلم من كثرة الإحصاءات للفقراء من دون إيجاد حل للفقر[1]، وإحصاء للحروب من دون إيجاد حل للحروب، فوظيفة العلم ليست الإحصاء والعرض والتوصيف بل إيجاد الحلول، ومن هنا نفهم أنّ "(العلم)، و(المنطق العلمي)، و(الرؤية الكونية العلمية)، لا تعدو جميعها أن تكون أسطورة علاقات عامة، وهي جزء من المشكلة التي يعمل على علاجها، فالعلم لا يتكلم بصوت واحد، ولا يقد رؤية كونية وحيدة متماسكة"[2].

وهكذا يقوم "فييرباند" بتشكيل فلسفته الخاصة التي ينسجها بمهارة فائقة قائمة على عناصر واضحة ضمن تيار العقلانية الغربية الحديثة والمعاصرة، ليبين خطر الفكر الإنساني على العلم نفسه، من جهة أن البعض يجعل في العلم التسليم التام في بمادئ العلم وفروضه قبل الإنطلاق في عملية البحث عن الحقيقة، وهذا من الاعتقادات السائدة الساذجة التي يجب تركها من خلال عملية مراجعة تلك المبادئ والفروض قبل أي عملية بحثية، ما يجعل موضعة "فييرباند" فضلا عن فكره في خانة محددة شيء من الصعوبة بمكان، كونه "يعني الكثير من الأشياء المختلفة لكثير من الأشخاص المختلفين... ومن الميزات اللافتة لأعمال (فييرابند) – في الواقع – مدى اندماجه المباشر مع كثير من التطورات الكبرى في فلسفة القرن العشرين،إضافة: لدراسة العلم وكيف أعاد صياغة أفكاره، ليكون في طليعة الاتجاهات المعاصرة والاهتمامات المتغيّرة"[3]، كل هذا راجع لخلفيته الفيزيائية والفلسفية والتاريخية.

---

[1]- أنظر: ماكسويل نيكولاس: من المعرفة إلى الحكمة: ثورة للعلم والعلوم الإنسانية. ولديه أعمال كثيرة جيدة منها: كتاب بعنوان "مشكلتنا الرئيسة: مقاربة ثورية في يونية 2020"، عن دار نشر جامعة ماكجيل كوين، بمونتريال. وأنظر للتفصيل أكثر: حوار مع الفيلسوف نيكولاس ماكسويل – حاوره: خالد قطب، منشورة على الإنترنت.

[2]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 24.

[3]- نفسه، ص: 18.

– وهكذا يقرر "فييرابند" فكرة الفوضوية وأبعادها المنهجية من الناحية العلمية، بأن الأخيرة ليست مجرد فلسفة جذابة، بل علاج ودواء فكري لفلسفة العلم والابستمولوجيا، ويستدل على ذلك بتاريخ العلم نفسه، وبالثورات العلمية التي تظهر باستمرار أن الصرامة العلمية تتمثل في تجديد المناهج لا الثبات على منهج واحد. ومن هنا ينتقد الوضعية المنطقية، وفكرة القابلية للتكذيب عند "بوبر"، واشكالية تطور العلم عند "توماس كون"، وأيضا الميثودولوجيا عند "امري لاكاتوس"، ليصل في النهاية إلى أن العلم في جوهر فوضي، وأن المنهج الأمثل هو اللامنهج.

فتاريخ العلم يشهد بأن العلم في كل مرة يكتشف مناهجا جديدة يستعملها في بحثها، وأن المناهج التي يفتخر بها العلم يتم تجاوزها من العلم نفسه باستمارا، وهكذا ينتقد الأصولية العلموية، ويرى أن العلم أصبح مثل الدين في تقديسه من بعض العلماء. ومن هنا ينتقد العقلانية الغربية ويصفها بالمحدودة، ويدعو للتفتح المنهجي، قيؤسس لفلسفة جديدة تقوم على التعددية، وترفض الواحدية، ذلك أن العلم والمنطق والرؤية العلمية ما هي في النهاية إلا أسطور علاقات عامة بين الأفكار.

المبحث الثالث: البعد الاجتماعي لفكرة الفوضى في المنهج.

1. دور العلم في المجتمع:

يناقش "فييرابند" فكرة علاقة القوانين العلمية بالمجتمع، ويطرح فيه سؤالا مركزيا مفاده: "ما الذي يأتي أولا: القوانين الإجتماعية أم القوانين الطبيعية؟

– ثم يجيب قائلا – بالنسبة لعقلي: فإنّ هذا السؤال لا معنى له، ومهما كان، فإنّ هاتين المنطقتين منفصلتان تماما اليوم.

[ثم يسأل سؤال آخر قائلا][1]: هل تفترض أن بعض الناس وضعوا نظاما اجتماعيا محددا بحيث يدأوا لا حقا بالتفكير بالكون وأنهم بالنهاية أسقطوا نظامهم الإجتماعي على الكون؟"[2].

فهو يطرح أسئلة مركزية في فهم هذا العلاقة، ويحاول أن يستخرج جوابا على الطريقة "السقراطية" بالتهكم والتوليد، وتطرق من خلال بحثه الى كاتب مشهور في هذا هو "رودلفو موندولفو Rodolfo Mondolfo (1877– 1946م)"، صاحب كتاب " اللامتناهي في الفكر اليوناني L'Infinito nel pensiero dei Greci" وكتاب "فهم الذات الإنسانية في الحضارة القديمة، طبعا كتبه باللغة الإيطالية لأنه إيطالي الأصل، sogetto nella antichitià La comprensione del classica"، فمن خلال هذين الكتابين ينطلق "فييرابند" ليضع الحجر الأساس حول علاقة العلم بالمجتمع، ويجب بأنه "يمكنك أن تجد ارتباطات، ولكن لا يمكنك معرفة: أيهما جاء قبل الآخر؟"[3].

---

[1]– ما بين معقوفتين زيادة منا ليتضح الكلام.

[2]– بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 64.

[3]– نفسه: ص: 64.

من هنا ينتقل الكلام إلى مثال علمي من خلال يتم توضيح السؤل أكثر، أعني "الفيزياء النظرية المعاصرة"، من جهة تصرف الفيزيائيين تجاه القوانين، فـ"حين يُهدم التناسق يحاول معظم الفيزيائيين إيجاد تناسق أعم، يتضمن التناسق الزائل في حالة خاصة.

لماذا كان الميكانيك الكلاسيكي شائعا جدا؟ لأنه بدا من الممكن تفسير كل التأثيرات بمساعدته. لماذا تركوه إلى النسبية العامة؟

لأنّ المرء لم يقنع فقط بإضافة تأثيرات خاصة له"[1]. بمعنى أنهم جاهزون للتغيير من خلال محاولة تفسير التأثيرات المساعدة، فبمجرد ظهور نظرية النسبية وقبل التحقق من صدقها تم تغيير وجهة نظر الفيزياء، بل وسعداء بهذا التغيير، فتم تغيير القوانين السابقة إلى قوانين غير ثابتة، وكذلك مع "نظرية الأوتار" وهذا التغيير غير مسند للعلم إطلاقا، بل لفرضيات علمية لم يتحقق منها العلم تجريبيا بعد، بمعنى أي حدث علمي في الفيزياء ظاهره أنه سيقدم تطورا ولو نظريا في الفيزياء النظرية فمرحبا به.

ومن هنا تجد بعض الفيزيائيين يجمعون البيانات ثم يحاولون جعلها متوافقة مع الفيزياء والقوانين. بل تجد بعض الناس يتطلع"إلى إيجاد خروقات في القوانين الأساسية، لأن ذلك يعدُّ تقدّما، وليس لأنهم يحبون قوانين فيها معرفات معيارية"[2]، بمعنى أنّ هذه الخروقات قد تدفعهم وترشدهم إلى قوانين أساسية أفضل وأكثر دقة وعمومية، ولكن هنا نجد التجريبيين يعتقدون أن التجربة هي الحقيقة وسبيل الحقيقة وليس أهل الفيزياء النظرية. فالبيانات النظرية تبقى مجرد نظريات عقلية. حيث "يقوم أشخاص مختلفون بأشياء مختلفة، بعض الناس يقولون

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 65.

[2]- نفسه، ص: 67.

(لسنا منظرين للماورائيات، نحن لا نفسر وإنما نتنبأ فقط)، يسمونه تفسيرا، وهو في معظم الحالات شيء أكثر بقليل من التنبوؤ"[1].

فمن بين أهم الأدوار التي يلعبها العلم في المجتمع بيان الفرق بين الخبرة الاجتماعية والمذهب التجريبي، حيث "الخبرة هي ما نشاهده ونسمعه ونشمه ونلاحظه عندما ندخل مناطق لم تكن معروفة بعد. أما المذهب التجريبي فهو فلسفة أو رؤية كونية تقول أنّه عندما تستعمل الخبرة بشكل مناسب ستخبرنا بالضبط عما يتكون منه العالم"[2]، فالفلاسفة يعتبرون أنّ الخبرة ربما تعكس حالة العالم بشرط أن تكون الرؤية منضبطة، وهذا كلام ربما أقرب إلى الإنشاء منه إلى الخبرة العلمية، ذلك أن ضبط الإنضباط محتاج إلى وسيلة ضبط تضبطه، وهذه الوسيلة غير متوفرة، وإن توفرت يجب أن تكون دقيقة وعلمية. وعليه فالخبرة البشرية قد تكون سبيلا للعلم، ونقطة بحث ينطلق منها الباجث، لكن لا يمكنه أن يجعلها علما، ويبني عليه نظريات علمية من خلالها يتقدم العلم ويطور من نفسه.

وهكذا تظهر الوظيفة الأساسية للعلم في المجتمع هي التفريق بين الخبرات الاجتماعية والعلم التجريبي، ببيان الفرق بين الميتافيزيقا والعلم المادي، تمييز التجربة الحسية عن التجربة النفسية أو الاجتماعية، لأن الخلط بين هذه الأشياء والعلم وصل إلى حد عدم القدرة على التمييز بينها وبين العلم التجريبي، ولكن الغرب يتسغل هذه النقطة من اجل نشر عقلانيته ضد عقلانية الشرق، وأن العلم فقط ما أنتجه الغرب دون غيرهم من بني الإنسان، وكل ما انتجه غيرهم هو مجرد خبرة إجتماعية وليس علما صارما، ومنه يستنتج الغرب أن الطب مثلا فقط الذي في الغرب وأما الطب البديل والأعشاب ونحوه فكل ليس طبا حتى لو ثبت

---

[1]-بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 155.

[2]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 83.

الشفاء به فعليا، ولم يتجقق الشفاء بالطب الغربي الكيمياوي، هذه العقلانية الغربية يحاربها "فييرابند" كثيرا في كتابه "طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟"، ليحاول تحرير مفهوم العلم نفسه قبل الخوض في الفرق بينه وبين الخبرة الاجتماعية.

2. علم اجتماع المعرفة:

حين الكلام عن اجتماع المعرفة يجب أن نستحضر بأنّ "هناك شيء إسمه العلم، يزعم أنه يتعامل مع التفاصيل ومع البيئة الشاملة للعالم، ويحاول أن يفسر: كيف أتت المادة إلى الوجود، وكيف نشأت الحياة، ومتى وبأي أسلوب وصلت الكائنات البشرية إلى الأرض. يبدوا أن العلم يتعلق بكل شيء، ولكنّ العلم في الواقع قاصرٌ جدا"[1]، هذا ما يريده العلم، ولكن هل وصل إلى معرفة هذا الذي يريد معرفته؟

الجواب: أنه إلى الآن لم يجد الإجابة. ولكنه لا يزال يحاول ويزعم أنه يملك الإجابة، وإذا ما سألناه يخبرنا بأنه يتبع ما توصل إليه من فرضيات، أو انه سيكتشف الجواب مستقبلا، ولكن العقل الإنساني يسأل الآين أين الجواب.

من هنا يحكم "فييرابند" على أن العلم لا أساس له من العلم، بل هو يتكلم دائما عن نفسه وكأنه يملك الشيء وهو في الحقيقة لا يملك شيئا، ذلك أنه وبالرجوع إلى أسسه نجدها ميتافيزيقية أساسا، بل وتاريخ العلم نفسه يشهد على العلم بأنه يبدأ في بحثه عن الحقيقة دائما من أصل غير علمي، فهو يبدأ من فروض يسميها علمية لكنه لم يتحقق منها بعد، فكيف تكون علمية وهو لم يتحقق منها؟

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 33.

وهنا يضرب لنا "فييرابند" مثلا علميا وفيه يقول: "دعوني أقرأ لكم ما كتبه (جاك مونو)، وهو عالم بيولوجيا جزيئية... فاز بجائزة نوبيل، عن الرؤية الكونية للعلم قائلا:

بإرادة متجهمة لا تقترح أي تفسير وإنما تفرض تخلّيا قاسيا عن كل شأن روحي [فكرة أن المعرفة الموضوعية هي المصدر الوحيد للحقّ الثابت] على نحو لم يخفف من قلقنا وإنما زاد فيه"[1]، أي أن العلم يضرب الموروث العلمي ضربة واحدة، من خلالها يحكم على نفسه بالعدمية، إذ لا ضامن أنه لن يفعل هذا مستقبلا، وبالتالي المعرفة التي نعرفها اليوم سيحكم عليها مستقبلا بأن ضرب من الخرافة، والأسطورة، وبهذا هو نفسه يحكم على نفسه بأنه لا فرق بينه وبين الأسطورة، فكلاهما يزعم الحقيقة وكلاهما لا يملكها.

أي أن الموضوعية التي نقلها "فييرابند" عن "جاك مونو" توضح بشكل لا يحتاج للشك أن الموضوعية أصبحت هي المقياس الوحيد للحقيقة، مع فكرة رفض كل ماهو روحي، وهذا الرفض يعني رفض كل الموروث الروحي مع الموروث العلمي، وهذا الموروث في حقيقته هو جوهر الإنسانية، فالموروث الروحي يمثل الجانب اللامادي فينا، الجانب الذي يبحث فيه اعلوم الإنسانية والإجتماعية والدينية، فكيف نرفض شيئا هو فينا، وهذا المنهج يصرح بأنه يزيد شيئا للعلم بل فقط يزيد من قلق العلماء.

فالعلم المعاصر يحاول أن يزيل كل شيء يتعلق بالمعاني، يحاول أن يجعل كل شيء مادي، ويرجع بنا إلى "ديموقريطس" الذي فسّر الروح بأنه مجموعة ذرات، إن التفسير المادي الذي منهجه "كارل ماركس" في ماديته الجدلية، وجعل منه فلسفة يفسر بها الوجود، ولكن الناس

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 33. وأنظر: جاك مونو الصدفة والحتمية (نييورك الولايات المتحدة الأمريكية، 1962م) ص: 170.

كثيرا ما يعرضون عن الأفكار المخالفة لمعتقداتهم، أو التي تزعزع ثوابتهم، ومنهج العلم أن نسمع كل الأفكار ونناقشها علميا، ومن هنا "كتب (ستيفن واينبرغ): حسنا: سترى أنّ إعطاء الأمل وتقديم المعنى ليسا من مهمة العلم، بل من مهمة الدين"[1]، وكأنه يفرّق تفريقا لا رجعة فيه بين العلم والدين.

"إنّ أداء العلم –كما يقول مونو– يدفعنا للإصغاء إلى الرؤية الكونية ذات الصلة... هو المعمار الفلسفي الذي يرتبط به العلماء"[2].

أربع أطروحات كونية في العلم:

"**الطرح الأول**: يعتمد تقدم العلم –بالمعنى الذي طرحه مؤيدون – على انفتاح الرؤى الكونية التي تتعارض مع البيانات الشمولية لكثير من هؤلاء المؤيدين.

الطرح الثاني: تأخذ الرؤى الكونية وقتا طويلا وربما تستغرق قرونا، قبل أن تبدي نتائج (تفرض الاعتراف بها).

الطرح الثالث: غالبا سيكون ما (يفترض الاعتراف) في مجتمع ما غير مهم، وربما مؤذيا في مجتمع آخر.

الطرح الرابع: الرؤية الكونية التي تتضارب مع (نتائج مؤسسة تأسيسا جيدا) قد تتعارض مع الموضة، أو مع هوس ديني مؤقت، لكنها لا تتعارض مع الهوس الذي يعتنقه كل العلماء ومحبو العلم، ألا وهو هوس المذهب العقلاني"[3].

---

[1]– بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟ ص: 34.

[2]– نفسه، ص: 75.

[3]– نفسه، ص: 87

فالطرح الأول يعتمد على الانفتاح على كل القوانين والاحتمالات والثاقافات مهما كان مصدرها الشرق ام الغرب أم الدين أم المادية أم غير ذلك، فالمهم هو البحث عن الحقيقة العلمية بكل طريقة وسبيل، وليس المهم تصحيح المناهج أولا بقدر الحصول على العلم أولا.

بينما الطرح الثاني يبين بأن العلم يأخذ وقتا طويلا، من أجل البحث عن الحقيقة، وخير دليل على ذلك تاريخ العلم نفسه، ذلك التاريخ الذي يكتبه علماء فلسفة العلم في مجلدات طويلة يشرحون فيها تقدم العلم، وهذا التقدم يمشي ببطء شديد، ويحتاج إلى الكثير من الخبرات المعرفية والثقافات الأولية التي من خلالها يسير العلم.

أما الطرح الثالث فيفرق بين الحضارة الشرقية والغربية، فما يجعله الشرق علما يجعله الغرب خرافة، وينعتون العلوم الشرقية بأنها روحية وسطحية وساذجة، وهذه النظرة غير علمية، والعلوم الشرقية مبدأ العلم، والأهرامات خير دليل على الهندسة المتطورة عند الشرق، وقبلهم الحضارة العراقية.

والطرح الرابع كما ترى هو طرح علمي، يطرحه العلم نفسه، وفيه طرح العلم في صورته مع الدين، والدين الذي يتعارض مع العلم هو دين الكنيسة الذي حارب الحضارة والإنسانية، ويجب أن نفرق بين الدين نفسه وبين نظرة المتدينين للعلم من الذين يحتقرون العلوم الحضارية.

ف"الناس الذين يقولون أنّ العلم يحدد طبيعة الحقيقة يفترضون أنّ العلم يتحدث بصوت واحد، يعتقدون أنّ هذا الوحش (أي العلم) حين يتحدث ينطق ويكرر ويعيد مرة أخرى

رسالة واحدة متماسكة، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. فالعلوم المختلفة تملك أيديولوجيات مختلفة جدّا"[1].

وهذا الذي يحكم به "فييرابند" إنما هو في علوم المادة الجامدة، فكيف إذا رأيه في العلوم الإنسانية والإجتماعية، فمثلا مبحث "التاريخ"، الذي دائما تحت المحك والإختلاف حول علميته، ذلك الفنّ الذي يصدر فيه "فييرابند" حكما قاسيا على كاتبيه الذين نسميهم مؤرخين، إذ يقول: "هؤلاء المؤرخين؟ إنهم يحصلون على المنح لتلفيق التاريخ الشفهي، ذلك التاريخ الذي يعني الأحداث التي يرويها الأحياء عن أحداث ولت منذ أمد بعيد"[2]، بمعنى أن التاريخ الشفهي حقّه أن نستمع فيه للشهود مباشرة، أما مجرد النقل عنهم فإن الخبر معرض للنسيان والخطأ والتزوير والذاتية ونحو هذه الأمور التي تدفع بالكاتب إلى التلفيق حين يجد الفراغات بين الأحداث، وربما لأسباب أخرى كثيرة، في مجموعها لا نقطع بصدق الخبر المكتوب.

فالمؤرخ إذا هو شخص يقف بين المصدر ومن يريد سماع الخبر. وليس هذا فحسب، فقبل زمن ليس بالبعيد كان المرضى نفسيا يوضعون مع الفقراء إحتقارا لهم، واليوم في مصحات عقلية ونفسية، وهكذا بدأت الناس تتوجه للصحة النفسية والعقلية، وأصبحت الجريمة تُدرس مع "فوكو" وقبل ذلك كان المجرم يُعاقب وفقط بغض النظر عن أسباب الجريمة النفسية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الجينات الوراثية، "وهذا القول يكافئ القول بأن فكرة الكفولة، أو الموت، أو الجنون، أو الجريمة، أو السجن، أو النظرة إلى كبار السن تختلف باختلاف

---

[1]- بول فييرابند: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ص: 104

[2]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 109.

المجتمعات، بل وتختلف باختلاف أجزاء المجتمع الواحد، تماما كما تتغير من جيل إلى جيل"[1].

وهكذا بعد مدة من الزمن يتراجع العلم عن علميته وأفكاره تجاه الأشياء التي ذكرناها، كما تراجع عن الكثير من الأشياء، ليقرر في النهاية أن السابق كان مجرد أفكار هو يصححها الآن، وبالتالي أين العلم؟ وما العلم؟ وهل بقي من العلم شيء يمكن أن نسميها علما؟ خاصة وأننا اليوم في منهجية التعليم أصبحنا "ندرب شخصا معينا ليتخذ القرار الذي يتخذه الخبير في الظروف [نفسها]... أو على الأقل تزويدهم بفهم لمعرفة تشبه معرفة الخبراء"[2]، إذا العلم يصنع نسخا مطابقة لأشياء هو يتراجع عنها مستقبلا، ولا يصنع منهجا من خلاله نتعلم، بل من خلاله نكرر النسخ والأخطاء عينها.

3. النتائج السياسية لفكرة الفوضى في المنهج:

لقد تم الحديث عن مجالات مختلفة للعلم في المباحث السابقة، في علم الفلك وحياة الناس وعلاقتهما بالعلم، وهنا نريد الإشارة إلى شيئ آخر، وهو جنون الإيديولوجيا في العلم المعرفة، ومن هنا تم إختراع بعض الحقائق من طرف علماء المنهج التجريبي من خلالها يزعمون مع إخوانهم الفلاسفة بأن الحقيقة موضوعية ولا علاقة لها بالأيديولوجيا، بل العلم يتعامل مع الحقائق وفقط. "يقولون أن العلم يتعامل مع الحقائق، وهذه هي الحقائق. تتعمال السياسة (سواء كانت إنسانية أو وحشية الطابع) مع ما يجب أن يكن، ولا توجد طريقة للمجادلة المنطقية مقنعة من ما يكون إلى ما الذي يجب أن يكون (العكس بالعكس)"[3]. ولكن العقل

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 110.

[2]- نفسه، ص: 110.

[3]- نفسه، ص: 70.

يسأل كيف ظهرت تلك الفراغات العلمية في العلم نفسه؟ هل بسبب الموضوعية مثلا؟ ولماذا العلم يخطئ باستمرار ويزعم أنه يتعامل مع الحقائق؟ هل نفسية الإنسان منفصلة عن الطبيعة التي يتعش فيها؟

والجواب أن الإنسان يعيش في بيئة يتأثر بها، وفيه انفعالات نفسية تؤثر عليه، ولغة يستعملها في التعبير عن أفكاره العلمية، وهذا التعبير قد يخونه كما أنه اللغة تخضع للتطور وبالتالي فإن التعبير عن الحقيقة يتطور، و"من هنا ينبه الفلاسفة ذوو الميل الموضوعي على أنّ هذه قياسات غامضة، وأنه يجب أن لا نثبت للعبارة أي محتوى موضوعي"[1]. لأن اللغة الطبيعية غير دقيقة في التعبير في العلم. ومن هنا نجد "أفلاطون" يجعل الحقيقة فقط في عالم المثل، ويخرج الشعراء من دائرة الحقيقة، بل يفهم بأنهم يزورون الحقيقة، وعليه فالحقيقة نسبية فقط. فبالرغم من دفاع الكثير عن الموضوعية وأن الطبيعة لا غاية لها سوى الحقيقة، فإن الموضوعية لم تحظ بالقبول مطلقا بين العلماء، لأنها تتعدد بين الآراء وتختلف بين الناس والتوجهات الفكرية. وعليه فالعلوم تعرض نفسها اليوم مجردة من القيم ولكن هذا لا دليل عليه من العلم، "لأن الملاحظة والنتائج المختبرية لا تصبح حقيقة علمية إلا عندما يكون من البيّن أنها لا تحوي أي عناصر (ذاتية). أي: يمكن فصلها عن العملية التي أدّت إلى إعلانها، وهذا يعني أن القيم لها دورها الهام في تشكيل الحقائق العلمية"[2].

وعليه نسأل: ما المعرفة؟ وما المنهجية التي من خلالها نصل إلى المعرفة؟

والجواب عند كل العلماء أنه يجب أن نقدّم منهجية لتسعتمل المنطق ومبادئ العلم.

---

[1]-بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 156.

[2]- نفسه، ص: 158.

لكن من قال بأنّ تلك المبادئ صحيحة؟ وأن المنطق صحيح؟

هل الذي صنع المنطق والمبادئ إنسان نسبي ام مطلق؟

والجواب: أنه لا يوجد جواب علمي، لأننا كلنا نعلم بأنّ تلك المبادئ والمنطق أشياء نسبية، وخير دليل أنه في كل مرة يظهر منطق جديد ومبادئ جديدة، ومن هنا يقرّر "فييرابند" بأنّنا نستعمل هذا المنطق المتاح بين أيدينا وهذه المبادئ، لا لأنها علمية، بل "لأن الأمور تجري على هذه الشاكلة هذه الأيام... هل وجدوا هذه القوانين بإجراءات تجريبية؟ لا، لأن الإجراءات استخدمت فقط في وقت لاحق من تاريخ الغرب، لقد ظهرت في وقت كانت فكرة وجود قوانين عامة ليس لها أي أساس تجريبي، هل هذا يعني أنه يمكننا اليوم أن نتبع آراء لا يوجد لها أساس تجريبي لها؟ بحسب الظاهر: يمكننا ذلك"[1].

فإذا نظرنا إلى تاريخ العلم وتاريخ المنطق وتاريخ المنهج التجريبي، نجد بأن اللأخير ظهر أخيرا، ومعنى هذا أن الذي كنا نسميه علما من قبل إنما هو تخمينا عقلية، ومن هنا كان المنهج التجريبي المقياس للعلم من غير العلم، طبعا هذا علوم المادة الجامدة ثم البيولوجيا ثم العلوم الإنسانية والإجتماعية، لكن التساؤل المهم، هل فعلا ما كان من معارف قبل المنهج التجريبي لا يمكننا أن نسميه علما؟ ماذا سنسميه؟ ولو لم يكن علما فكيف تم بناء العلم الحديث عليه؟

الجواب أن العلم يتطور ويطور نفسه، لكن لا نقول كما يقول التجريبيون يطور نفسه بنفسه، بل يتطور أيضا من خارجه، من المبادئ الإنسانية والإجتماعية العامة، فلا يوجد أي دليل اليوم يؤكد لنا بأن مبادئ العلم المعاصرة ستصبح مجرد مبادئ عامة، وثقافة بشرية وليس علما، بل وربما سيضحكون علينا مستقبلا بأننا فعلا كنا نعتقد أشياء غير علمية

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 160.

ونتبجح بأنها عين العلم. فحتى السفسطائيين الذين حاربهم الجميع وقالوا أن كلامهم سفسطة لا فائدة منه، ومجرد حشو للكلام، فيما بعد أصبح عندهم معرفة ومنهج، "ويمكننا القول أنّ السفسطائيين أخرجوا الناس من المقاربة الدينية للمعرفة إلى مقاربة أكثر دنيوية، وكانت هذه ميزة ولكن يهوزها الشمول"[1]، ولكنها معرفة جاء أفلاطون وطورها، وأرسطو وقننها بالمنطق.

ونسأل سؤالا بسيطا حول أعظم فلاسفة البشرية سقراط وأفلاطون وأرسطو، كيف وصل الواحد منهم إلى الفلسفة؟

فمن خلال "الجمهورية" نستطيع أن نعرف الجواب، من جهة أن الحوارات في أصلها بدأت ملحمية زمن "هوميروس" في الشعر القديم من "الإلياذة، والأوديسة" ثم جاء النثر، أعني النثر العلمي وإلا فكل الناس كانت تتحدث النثر، كما تختلف لغة مقال علمي أو أدبي أو فلسفي عن غيره من الكلام النثري[2]، ثم تطورت الحوارات شيئا مع السفسطائيين الذين أخرجوها عن الدين وجعلوها عقلية أكثر، ثم تطورت هذه الحوارت مع سقراط وأفلاطون في شكل جدل مبني على التهكم والتوليد وتم اختيارها الحوارات كمنهج للمعرفة، تم ضبط الجدل من خلال المنطق، فأنت ترى الجذور الدينية أو الميتافزيقية لعلم المنطق، فالبرغم من أننا نصف المنطق بأنه علمي، إلا أن جذوره دينية، بل وحتى المنطق التجريبي الذي جاء كردّة فعل على المنطق الصوري، والذي يتعبره العلماء المنهج الحق في دراسة العلم، إذا الخلاصة أن المنطق التجريبي نفسه أصوله دينية إجتماعية.

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة: ص: 169.

[2]- بالنظر في كلام "هيرودوت" في "التاريخ" تجد أن النثر العلمي ظاهر في كلامه، وفيه المزج بين الرواية والاخبار من جهة، والقصة القصيرة والأمثلة الإرشادية.

أنظر مثلا "مفهوم الإنسان" في الثقافة اليونانية، ثم كيف تطور في الحضارة الإنسانية ليشمل اليوم ذلك الكائن السياسي وصولا للإنسان الأنثروبولوجي، الذي يريد أن يجعل علم الأنثربولوجيا علم الإنسان. أيضا مفهوم الجسد الذي كان فقط ذلك الذي له علاقة مع الروح، وأنه قوقعة أو سجن الروح، ليتطور الكلام فيه اليوم من عدة نواح منها الجانب الطبي والكلام في الخلايا، وصولا إلى فلسفة الجسد، والكلام في تاريخ الجسد، وجماليات الجسد، ونحو هذا من الأمور التي جعلته محلا للدراسة البيواتيقية، فمن فكرة إجتماعية دينية إلى موضوع معرفي، فهذا يدل على الأصول الدينية والإجتماعية للمعرفة العلمية.

ومن خلال ما سبق تذكر بأنّ العلماء يتبجحون كثيرا – حسب فييرابند – بأنهم يملكون الحقيقة العلمية، ولكن كلامهم في النهاية مجرد تنجيم، إذ يتراجعون كثيرا عن تلك المسائل التي كانوا يقطعون فيها قطعا لا رجعة فيه بأنه العلم، ولابد هنا أن نبين كيف تتصرف العقلية العلمية، وما العقبات التي تواجهها؟ هنا يجيب "فييرابند" بقوله: "لنأخذ العلماء في ميدان بحثي معين كمثال، حيث يكون لهؤلاء العلماء افتراضات أساسية نادرا ما يتشككون فيها. كما تكون لهم طرق في تقييم الشواهد يزعمون أنها الإجراءات الطبيعية الوحيدة المناسبة، ويدور البحث العلمي عندهم حول استخدام الافتراضات والمناهج الأساسية، وليس في امتحان هذه الافتراضات"[1].

نعم يمكن القول أن العلماء يضعون الافتراضات من أجل حل المشكلات، والتخلص من الصعوبات، وهي افتراضات مؤقتة في زمن أولئك العلماء، غير أن الزمن يتغير، والعقول تتغير، فهل الافتراضات لا تتغير؟ فالبحث العلمي يجدد دائما شروطا جديدة، والافتراضات تتحدد وفقا للشروط الجديدة، "إن العلماء يجعلون أنفسهم موضع سخرية عندما يتحدثون

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 125.

في أمور درسوها بإسهاب. حسنا أنا أقول لك أنهم لم يدرسوا أبدا أية افتراضات من النمط الذي أشرت إليه"[1].

بمعنى أن بحثهم قد تم من دون هذه الإجراءات، وبالتالي فإن بحوثهم لا قيمة لها من الناحية المنهجية العقلية المنطقية العلمية، ما جعل العلم معهم في حلقة مفرغة، "خذ مثلا بعض الأفكار الخاصة بمناهج البحث، فستجد، مثلا، الفكرة القائلة بأننا ينبغي أن نبدأ بحثنا باختبارات تجريبية، وألا نسمح للأفكار النظرية أن تؤثر فيه"[2]، وإذا طبقنا هذا الكلام على علم الآثار، فهل يمكن أن نستغني عن الثقافة في تفسير الآثار؟

والجواب لا يمكن، وهل الثقافة إلا نتاج العقل البشري الذي كان في تلك الفترة، والتالي الثقافة تفسر تفسيرا عقليا، وهل داخلة قبل التجربة المادية، إذا العالم المادي دائما يغيب عنه الجانب الفلسفي، وبسب هذا يقع في أخطاء وتناقضات تؤدي بكلامه ومنهجه إلى نتائج غير علمية، ومن أمثلة ذلك في الطب أن كفاءة الدواء تعتمد على كفاءة الافتراضات الكامنة وراء سبب المرض، إذا الدواء مبني على احتمالات وافتراضات وليس على أسس علمية، ومن هذا القبيل الكثير من الأخطاء الطبية التي لا تنتهي، ولهذا كانت الحضارات القديمة تعاقب الطبيب على الأخطاء الطبية، ولا ننسى أن الكثير من العمليات الجراحية في النهاية غير ناجحة، والطبيب قبل العملية يفترض نجاحها وإلا فما سبب القيام بها غير القطع بنتيجتها.

---

[1]- بول فييرابند: ثلاثة محاورات في المعرفة، ص: 125.

[2]- نفسه، ص: 125.

– وهكذا يقرر "فييرابند" البعد الاجتماعي لفكرة الفوضوى في المنهج، ودور العلم في المجتمع نفسه، فيناقش علاقة القوانين العلمية بالمجتمع، ويطرح أسئلة مركزية حول أسبقية القوانين الاجتماعية ام الطبيعة. ثم يشير إلى سذاجة السؤال السابق ويستهد بكتابات بعض العلماء، ويمثل بمثال الفيزياء المعاصرة، حيث يتم تغيير القوانين باستمرار بمجرد ظهور نظريات جديدة، مثل النسبية والأوتار، وأن هذا التغيير لا يستند إلى العلم، بل الى فرضيات علمية لم يتحقق العلم منها بعد.

فتكلم عن علم اجتماع المعرفة، وسجاذة العلم الذي يزعم انه يملك الحقيقة المطلقة، ويستشهد بكتابات "جاك مونو"، ويشير إلى أن العلم يرفض كل ما هو روحي، ويركز على الحسي المادي، وعليه فالعلم هكذا يتجاهل التوجه الروحي الذي من خلال تضيع عن العلم الكثير من الحقائق العلمية، بل هناك أربع اطروحات كونية يجب النظر فيها:

الأطروحة الأولى: تقدم العلم يعتمد على الانفتاح والتعديدة.

الأطروحة الثانية: الرؤى الكونية تحتاج إلى وقت طويل من أجل الاعتراف بها.

الأطروحة الثالثة: ما يعتبر هامًا في مجتمع ليس كذلك في مجتمع آخر.

الأطروحة الرابعة: بعض الرؤى الكونية متضاربة مع الموضة أو الديني أو العقل.

ويستخلص بعض النتائج السياسية لفكرة الفوضى بأنّ بعض العلماء يخترعون شيئا من الحقائق ويزعمون أنها موضوعية ولا علاقة لها بالايدلوجية، ويبررون من خلالها تطور العلم، ومفهوم العلم، وخرافة الميتافيزيقا والدين، وهذا في نهاية خرافة علمية من علماء يزعمون انهم علماء، فالعلم في المجتمع له اكثر من دور يقوم به في نهايته، بل يتأثر بالقيم الايديولوجية ولا شك في هذا.

خلاصة الفصل:

إنّ نظرية الأوتار الفائقة، الأمل الأكبر عند علماء الفيزياء المعاصرة، فهي تطمح إلى تفسير كل شيء ومن هنا فإن العلماء يسمونها أيضا نظرية كل شيء، نظرية تسعى لتوحيد الفيزياء التي من خلالها نفهم كل قوى الطبيعة والجسيمات المادية والزمان والمكان، أربعة قوى، من خلالها تحاول الكشف عن أصل الوجود ونشأة الكون المادي، ولكن العلماء مختلفين في قبولها من عدم ذلك، كون أسسها إلى حد الساعة هي أسس ميتافيزيقية وليست علمية، إذ لم يثبت أي قانون علمي صارم يدّعهما.

ومن هنا جاءت فكرة الأسس الميتافيزيقية للعلم ككل، ذلك أنّ جوهر الذرة وهو الكوارك والذي بدوره يحتوي الخيوط التي تهتز لخلق الإلكترونات والبروتونات بحسب نوع الإهتزاز في نهايتها هي عبارة عن طاقة وليست مادة يمكن لمسها أو وزنها أو قياسها، وهذا كلام العلم الذي يريد القول بأنّ المادة أساس الوجود، في النهاية يقرر أن اللامادة هي الأساس، وهي فكرة غير علمية بالنسبة للفيزياء العصرية، ومنه الفيزياء تثبت أن نظرية الأوتار أسسها ميتافيزيقية وليست علمية.

خاتمة

خاتمة:

انصب تركيز الوضعيين المناطقة وكارل بوبر وتوماس كون وإيمري لاكاتوس على أهمية وقيمة المنهج العلمي والمعرفة الموضوعية ولكن مع بول فييرابند ألغى هذا التصور ورفض المنهج العلمي معتبرا استحالة الوصول إلى معرفة موضوعية وحث على الفوضوية في المنهج مما أدى إلى حروب العلم ، ولعل من الأسباب التي جعلت فييرابند يشن هجومه على العلم والمنهج العلمي الإصابة التي تعرض لها فأقعدته وجعلته لا يثق بنتائج العلم فهي من الأسباب المباشرة التي كانت سببا لكل ما يرفع من قيمة العلم ويعلي من شأنه، بل اعتبر فييرابند أن الأسطورة والتنجيم أصدق من النظريات العلمية، وجعل الاسطورة مقابل العلم، لأن العلم باعتقاده فشل في التحديات التي واجهته في ذلك العصر وهو الأمر الذي جعل العلم في دائرة النقد وعلا صوت الأسطورة من جديد ولقد كان أثر كارل بوبر على فييرابند واضحا إذ أسهم في تشجيعه على روح النقد فشجعه بذلك بالهجوم على العلم ومنهجه وبالتالي لم يعد العلم الكلمة الأخيرة، وأصبح من الضروري المراجعة الدقيقة لأفكار فلاسفة العلم وعدم الانخداع وراء زيف النظريات العلمية ، ولعل الفكرة التي يعول عليها فييرابند هي أن المعرفة العلمية تتخذ من الاعتقاد المسبق أو الفروض المسبقة أساسا تنطلق منه النظرية، وهذا يؤدي إلى استحالة الوصول إلى معرفة موضوعية عن العالم الطبيعي المادي، وذلك لأن معرفتنا بالعالم الخارجي تأتي نتيجة تداخل الذات الإنسانية بقدرتها العقلية وفروضها المسبقة وقياسها وأن معرفتنا عبارة عن تركيب عقلي تلعب فيه الذات دورا أساسيا وفعالا.

وقد ظهر في العقدين المنصرمين جدالا واسعا حول ما بعد الحداثة التيار الثقافي الذي حل محل الأفكار العقلانية الحديثة ومع ذلك فإن مصطلح " ما بعد الحداثة "، يشمل مجموعة من المعتقدات التي تفتقر إلى الدقة كالفن والعلوم الاجتماعية والانسانية والفلسفة وهو ما

يدعو إلى إعادة النظر في الفلسفات المعاصرة خاصة ما بعد الحداثة، ثم إن مفهوم النسبوية عند فييرابند كان له أثرا سياسيا مهما وذلك من خلال طرحه لنظريته السياسية حول مفهوم المجتمع والمواطنين الأحرار من خلال بلورة أفكارهم وقبولها ورفضها تبعا لأيديولوجية كل مجتمع.

إن فييرابند لم يرفض مطلقا العلم وليس عدوا له كما يشاع عنه وذلك لأن فلسفته فيها بعض القواعد المنهجية كمبدأي التشبع والوفرة، فقد جمع بين الإبداع والحرية الفكرية وأفكارا أخرى تبدوا غريبة عن العلم، بالإضافة إلى إبداعه لفكرة جديدة في فلسفة العلم لم يسبقه إليها أحد، وهي إخضاع النظريات العلمية للتصويت الديمقراطي عن طريق تشكيل هيئة محلفين تفحص كل ما هو علمي، بحيث تشكل اللجنة من خبراء وفلاسفة وحتى من العوام "الرجل العادي" لتحوز القبول أو الرفض تبعا لخصوصية كل مجتمع وبالتالي التخلص من التبعيات الأيدولوجية دون إقصاء الثقافات الأخرى ليتحرر العلم من سياسة القوى الغربية في اتخاذ القرارات.

النتائج:

إنّ الكلام عن النظريات العلمية مع "بول فييرابند" يستلزم أولا الكلام عن العلم، الذي يزعم أنه يتعامل مع التفاصيل ومع البيئة الشاملة للعالم، ويحاول أن يفسّر: كيف أتت المادة إلى الوجود، وهو يقرر بأنها أتت من لا شيء، فكان "فييرابند" ضد المنهج، فنقد الأفكار السائدة، وحارب الإيديولوجيات التي اختلطت بالعلم، ما جعل الفلاسفة يعيدون النظر في الأسس المنهجية للعلم.

إنّ العلم مهما تطور فلا يحق له أن يزعم أنه يتعامل مع التفاصيل ومع البيئة الشاملة للعالم، وأن يفسر كل شيء، ذلك أن السؤال الأهم للعلم هو من أين أتت المادة، وها هو في نظرية الأوتار أرجع المادة إلى أوتار من طاقة وهي ليست مادة وبالتالي تناقض مع نفسه، وقرّر فرضية لا أساس لها من العلم.

إنّ الفيزياء العصرية تثبت بأنّ تاريخ العلم ليس تاريخ الأخطاء، بل تاريخ الميتافيزيقا، ذلك أن الجذور والأسس التي يبني عليها العلم فرضياته هي في نهايتها ميتافيزيقية، وعليه فإنه حين يحارب الدين باسم العلم هو يحارب أسسه، ومنهجه الذي يعتمد على اللاعلم، فتاريخ العلم يثبت أن العلم دائما يسير من غير منهج، بل يكتشف أولا ثم يزعم أنه اكتشف ذلك الشيء وفقا لمنهج معين، وهو في حقيقته يكتشف وفق اللامنهج.

وعلى اعتبار أن فلسفة العلوم شهدت تطورات علمية مذهلة ومهمة بداية من ظهور كتابات الوضعية المنطقية، والردود التي تبلورت جرائها بداية من التحليلات النقدية، فإن للفيلسوف "فييرابند" موقفه الخاص، بنقده فلسفة العلم التقليدية خاصة منها نموذج "توماس كون" و"لاكاتوس"، من أجل فهم العلم نفسه، وعلاقته بالثقافة الإجتماعية لكل مجتمع وحضارة، ودحض الفكر الغربي الذي يريد أن يجعل العلم نتاج الثقافة الغربية وفقط.

فييرابند مثَّل فلسفة جديدة من خلال تاريخ العلم الفوضوي، ومحاربة أسطورة العلم الذي لا يخطئ ويستطيع التنبؤ بالمستقبل من خلال المنهج التجريبي ومبدأ الحتمية وفكرة التكذيب البوبرية، بل العلم في أسسه يعتمد على الميتافيزيقا بشكل واضح، وخير دليل على ذلك عدم قدرته على تفسير المعرفة التي قامت في الحضارات الشرقية من هندسة "الأهرامات" والدقة الرياضية فيها، وعلوم الفلك، والطب، والثقافة الإنسانية العالية.

ينتهي فييرابند إلى أن العلم ليس منهجا موحدا، ولا شبكة منهجية منتظمة من العلاقات الرياضية، بل العلم نشاط عقلي إنساني، بدأ منذ الحضارات القديمة وهو يسير في تطور مشترك بين بني البشر، ولا وجود لعقلانية غربية متميز عن غيرها من العقلانيات، بل هناك عقلانية واحد هي العقلانية الإنسانية، وأما العقلانية الغربية فهي مجرد خرافة علمية يجب على العقل تركها جانبا والتفرغ للعلم.

على العلم أن ينتهي عن السلطوية، والبابوية الكنسية، وأن يتواضع للأخذ بكل الفروض والإحتمالات، فالعلم في نهايته هو ذلك الذي يحقّق حلا لمشكلات الإنسان، فحين يتحصل الإنسان على حل لمشكلته فالمنهجية التي من خلالها تحصل على الحلّ هي منهجية علمية، والحل هو حل علمي، والعلم لا ينتمي لمنهجية محددة أو حضارة محددة.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر باللغة العربية :

1. بول فييرابند: كيف ندافع عن المجتمع ضد العلم أيان ها كينغ الثورات العلمية، ترجمة وتقديم: السيد نفادي دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1996.

2. بول فييرابند: ثلاث محاورات في المعرفة (المجلس الأعلى للثقافة، من دون دولة، 2000م).

3. بول فييرانبد: العلم في المجتمع الحر، ترجمة السيد نفادي وسمير حنا صادق، (المجلس الأعلى للثقافة، من دون دولة، 2000م).

4. بول فييرانبد: ضد المنهج، ترجمة ماهر عبدالقادر، الإسكندرية، 2005.

5. بول فييرانبد: طغيان العلم: ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ترجمة: مركز دلائل، مراجعة وتعليق: عبد الله الشهري (مركز دلائل، ط1، الرياض- السعودية، 1996م).

المصادر باللغة الأجنبية:

6. I . Lakos: *Histoire et méthodologies des sciences*. Tra cothivine Malamoud et Jean Spitz, Paris puf . 1994.

7. Karl popper . *La logique de la decouverte Sc*ientifique . O.P De .N. thyssen – Rutten Et Philippe De Vaux ،Auec Une Préface . De jacques Monod . paypt paris 1912.

8. Kuhn.T.S (logic of Discorery or Psychology of Research) ed . incritiscism and the Growth of knowledge. by lakatos.J. and Musgrave . A.-ed- Cambridge Univercity Press.Cambridag.1981.

9. P.K Feyerabend : *Realism, Rationalism an Scientific Method, Philosophical Papers*, Volume (1), Cambridge, Cambridge University Press, 1981.

10. Paul -Feyerabend . *Against Method* 1975.

11. Paul -Feyerabend *Science in a free society*. london. new left Books 1978.

قائمة المراجع باللغة العربية :

12. أحمد أنور أبو النور: ضد المنهج إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة ، ضمن كتاب قضايا العلوم الإنسانية إشكاية المنهج، القاهرة، الامل للطباعة والنشر 1996.

13. أحمد مستجير: في بحور العلم، الجزء الثالث، ط 2 – القاهرة – دار المعارف 2010.

14. أحمد نور: ضد المنهج إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة، قضايا العلوم الإنسانية اشكالية المنهج، العدد الأول، الهيئة لقصور الثقافية ، القاهرة ، 1996م.

15. ادغار موران: من أجل عقل متفتح نقلا عن مُحَّد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي. العقلانية وانتقاداتها .دار توبقال .الدار البضاء .المغرب ط 1، 2006.

16. إدغارموران ، تساؤلات الفكر المعاصر ، العقل والعقلانية ، ترجمة مُحَّد سابيلا وعبد السلام بن عبد العالي ، دار توبقال ، الدار البيضاء ط 2، 2007.

17. أكيتايجور دوسكي، النظام والفوضى في عالم الذرات، ترجمة داود سليمان المنير، دار مير ، للطباعة والنشر موسكو 1983.

18. آلان شالمرز: نظريات العلم، دار تو بقال، المغرب، 1991م.

19. إيان هاكينج: الثورات العلمية، ترجمة وتقديم: السيد نافادا، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 196.

20. بول ديفيس: جوليان براون، الأوتار الفائقة: نظرية كل شيء؟ ترجمة: أدهم السّمان دار الابداع، ط 2، دمشق، 1997م.

21. توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة حاج إسماعيل، مراجعة مُحَّد ديس، دار النشر المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007.

22. جاك مونو: الصدفة والحتمية، نويورك، الولايات المتحدة، 1962م.

23. جميلة صنيفي: يورغن هابرماس من الحداثة إلى المعقولية التواصلية، اصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية ،2016.

24. جون بروكمان: الانسانيون الجدد، العم عند الحافة، ترجمة مصطفى ابراهيم فهمي، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، 2009م.

25. جون جريبين، البحث عن قطة شرودنجر الفيزياء الكمية والواقع، ترجمة: فتح الله مُحَّد ابراهيم الشيخ، أحمد عبد الله السماحي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة ط1، 2009.

26. جون غريبين: تاريخ العلم ، ترجمة شوقي جلال، 2002م.

27. جون كونتنغهام: العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مركز الانتماء الحضاري دمشق ط 1 /1997.

28. جيلز دونالد: فلسفة العلم في القرن العشرين ، ترجمة حسين علي، دار التنوير، بيروت ط 1، 2009م.

29. جيمس تريفل: لماذا العلم ؟ ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، عدد 372، فبراير 2010م.

30. جيمس غليك: الهيلولية تصنع علما جديدا، ترجمة: علي يوسف علي، المجلس الأعلى للثقافة القومي للترجمة، ط المشروع 2000 م.

31. خالد قطب: العقلانية العلمية دراسة نقدية، المكتبة الأكاديمية القاهرة.2005م.

32. دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: منير السعيداني، مراجعة: الطاهر لبيب: ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة 2008 .

33. الربيع ميمون: مشكلة الدور الديكارتي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط1. 1982.

34. رودولف كارناب: الأسس الفلسفية للفيزياء، ترجمة السيد نفادي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ، 1996.

35. سهام النويهي: تطور المعرفة العلمية، مقال في فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة، 1988.

36. السيد نفادي: اتجاهات حديثة جديدة في فلسفة العلم في عالم الفكر، المجلس الخامس والعشرون، العدد 2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر/ ديسمبر 1996.

37. عادل سلامة: الثقافتان، علم الفكر، العدد الرابع، المجلد الثاني، يناير فبرلير مارس 1972م.

38. عصام مُحَمَّد بيومي: إبستمولجيا التقدم العلمي عند توماس كون، دار النهضة العربية، القاهرة، 2006م.

39. كارل بوبر: بحثا عن عالم أفضل. ترجمة: أحمد مستجير، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

40. لخضر شيكر: نقد العقلانية لدى فييرابند، نحو استيمولوجيا جديدة للعلوم الإنسانية، دار الإمام للنشر والتوزيع، عمان، ط1.

41. لخضر مذبوح: فلسفة كارل بوبر، دار الالمعية للنشر والتوزيع الجزائر، 2011م.

42. مانويل دوديكنر: العقل وأوثانه في العقل والعقلانية: مُحَمَّد سابيلا وعبد السلام بن عبد العالي. دار توبقال. الدار البيضاء. ط 2 – 2007 .

43. ماهر عبد القادر: فلسفة العلوم: المشكلات المعرفية. دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1984م.

44. مُحَمَّد أحمد السيد، التمييز بين العلم واللاعلم، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1996.

45. مُحَمَّد أحمد السيد، نسبية المعرفة عند بول فييرابند ، ثلاث محاورات في المعرفة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1997.

46. مُحَمَّد مُحَمَّد قاسم، رؤى معاصرة فلسفة العلوم، بيروت، 1990م.

47. محمود مُحَمَّد علي: التفكير العلمي ومستجدات الواقع المعاصر، مصر، 2014م.

48. صلاح قنصوه: فلسفة العلم، دار التنوير للطباعة والنشر 2000م.

49. يمني طريف الخولي، فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، دار حباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ط، 2001.

المراجع باللغة الأجنبية:

50. Dacques Monod . *Préface de logique de la découverte scientifique* Tard.de .N thy ssen – Ruthen et ph . Devaux. Paris 1 payoT. 1973.

51. George Couvalis: *Conceptual Analysis: The significance of Feyerabend's philosophy of science*, Oxford, USA, BlackWell Publisher, 1999.

52. Harris .H. .(1981) « *Rationlity in Sience* » in Sientifie explantion .Ed. by . AF . Heat h . Clarendon press .Oxford .

53. James Robert Brown. *Who rules in science* : *An Opinionated guide to the wars* .USA.Harved University Press . 2001 .

54. Maria Baghramian:*Relativism.Routledge* .London and New .2004.

55. Robert . P Farrell :*feyerabend And scientific values tightrope-walking Rationality*. vol .235 .kluwer Academic Publishers .Australia.2003.

56. Robert Delete : Paul Feyerbend, *The Trannt of science*, Philosophy in Review , XXXI, 2011.

المعاجم والموسوعات:

المعاجم باللغة العربية:

57. إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة – الهيئة العامة لسؤون المطابع الأميرية، 1983م.

58. جلال الدين سعيد: معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تونس، دار الجنوب للنشر، 2004.

59. جميل صلبيا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

60. عبد الرحمان بدوي، الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984.

61. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار قباء الحديثة، 2008م.

62. مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة. ط 1، 2009م.

المعاجم باللغة الأجنبية:

63. Andé lalande . Vocabulaire technique et critique de la philosophie quadrige . P.U.F.France .1991 .

64. المجلات والرسائل بالعربية:

65. بوعلام الزهرة: الإبستمولوجيا الفوضوية عند بول فييرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم مقال علمي: مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 10، العدد: 2، جامعة ابن خلدون: تيارت، الجزائر: 2022م.

66. حسن الحريري: فييرابند بين الفوضوية والنسبية ، جريدة الشرق الاوسط، 2015م.

67. حياة مشاط: الظاهرة العلمية عند بول فييرابند (مجلة الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مجموعة: 13، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر، 2021م).

68. شادلي هواري: فلسفة اللامعقول عند فييرابند – اطروحة بنيل درجة الدكتوراه علوم في الفلسفة،جامعة وهران2، 2017م.

69. عثمان علي: بنية المعرفة العلمية عند غاستون باشلار ، رسالة الماجستر غير منشورة، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، 2008م.

70. لخضر مذبوح: فكرة التقنح في فلسفة كارل بوبر، رسالة دكتوراة غير منشورة ، قسم الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2022م.

71. مشقف الطاهر: مناهضة المنهج عند فييرابند، رسالة ماجستر قسم الفلسفة جامعة منتوري، قسنطينة، 2006م.

72. مصطفى عبد العاطي: مفهوم التقدم بين توماس كون وباول فييرابند .

73. نعيمة ولد يوسف: مجلة دراسات فلسفية، قسم الفلسفة الجزائر، العدد 11، 2015.

المجلات والرسائل باللغة الأجنبية:

74. Koertage. N. " *For and Against Method* " in British journal of philosophy of Science . Ud .23/1972.

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
إهداء	ب
شكر وتقدير	ت
ملخص الأطروحة	ج
مقدمة	07
الفصل الأول: المعرفة عند بول فييرابند	
مدخل	17
المبحث الأول: التطور الفكري لفييرابند	18
المبحث الثاني: حياته وأعماله	30
المبحث الثالث: علاقة فييرابند بـ " كارل بوبر وتوكاس كون وإمري لاكاتوس"	34
المبحث الرابع: نقد فييرابند لفلسفة العلم التقليدية	54
خلاصة الفصل	73
الفصل الثاني: العلم والثقافة العلمية عند فييرابند	
مدخل	76
المبحث الأول: العلم لغة واصطلاحا	77
المبحث الثاني: التمييز بين العلم واللاعلم	84
المبحث الثالث: رؤية فييرابند للمنهج العلمي	98
المبحث الرابع: هجوم فييرابند على العلم	103
المبحث الخامس: الثقافة العلمية عند فييرابند	117
خلاصة	129

الفصل الثالث: من العقلانية إلى التعددية المنهجية عند فييرابند	
مدخل	132
المبحث الأول: العقلانية	133
المبحث الثاني: التعددية المنهجية عند فييرابند	144
المبحث الثالث: الفوضوية	153
المبحث الرابع: اللاقياسية بين النظريات	161
المبحث الخامس: النسبوية عند فييرابند	172
خلاصة الفصل	183
الفصل الرابع: أبعاد فكرة الفوضوية في المنهج	
مدخل	186
المبحث الأول: الجانب الميتافيزيقي لنظرية الأوتار (رؤيا فييرابندية)	187
المبحث الثاني: فكرة الفوضوية وأبعادها المنهجية	202
المبحث الثالث: البعد الاجتماعي لفكرة الفوضى في المنهج	218
خلاصة الفصل	233
خاتمة	235
قائمة المصادر والمراجع	240
الفهرس	248